اللسانيات الاجتماعية

عند العرب

تأليف الاستاذ الدكتور

هادي نهر

دار الأمل للنشر والتوزيع

اللسانيات الاجتماعية

عند العرب

تأليف
الأستاذ الدكتور هادي نهر

الطبعة الأولى
١٩٩٨

دار الأمل للنشر والتوزيع
إربد - تلفاكس ٢٧٦١٧٤
ص ٤٦٩
الأردن

الإهـــداء

إلى التي قاسمتني عناء الكلمة، ونصب الكفاح،
إلى(زوجتي) والى (سيف) الرابع في أبجدية الأقمار
التي تعزز النور في ذاتي ،
فأنا لا أملك الا حبّي وهذه السطور.

المحتوى

الفصل الخامس:

فهارس عامة:

مقدمة

- أ -

لا شك في أنّ العلاقات بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية، وتأثر اللغةبالعادات والتقاليد والنظام الاجتماعي في زمان ومكان معينين قائمة منذ أنْ وُجدت اللغة ووجدت الحياة الاجتماعية، فجوهر الإنسان انّما يكمنُ في لغته وحساسيته وحياته الاجتماعية.

والنظر في هذه العلاقات قديم لا ريب، غير أنّه لم يستوِ كمّاً ونوعاً وتنظيراً، ومنهجاً، وروواداً إلا في عصرنا الحاضر في ظل علم جديد من علوم اللغة أطلق عليه (علم اللغة الاجتماعي (Sociological Linguistics) او Sociolinguistics .

وبين يدي القارىء الكريم بحثٌ في هذا العلم حاولت فيه التعريف به والوقوف على ملامحه الأولى في الدراسات الانسانية، مندرجاً مع تطور الأفكار التي تصبّ في مصبّه، مستعرضاً إياها في نموها، وارتقائها، وتعددها بتعدد اصحابها، وتنوّع مشاربهم الفكرية، وهو أيضاً محاولة لرصد ما في تراثنا العربي في مجلى من مجالاته المتعددة التي يمكن أنْ نستنبط من خلالها ما يمكن أنْ يُعزى الى هذا الدرس اللغوي الاجتماعي للوقوف على ما قدّمه اللغويون العرب في هذا الميدان .

وعلى الرغم من إني لا أريد أنْ اطلبَ من التراث ما لم يكن من شأنه أن يوجد فيه، أو أنْ أتبنّى عبر هذا البحث موقفاً منحازاً مع التراث أو ضدّه، إلا أنّي ألح على إنّ العودة الى معارف الماضي قد تكون من أفضل السبل لدخول احدث العلوم، بما يوقفنا على إنّ كثيراً أوقليلاً مما هو حديث، انّما هو جزء من الاكداس المبعثرة من معطيات الاسلاف، يمكن أنْ نخلع على بعضها شيئاً من التصوّرات المحدثة، والمفاهيم القائمة يعزز قيمتها العلمية، ويؤكّد فعلها في معطيات الحاضر، فالعلوم، أيّة علوم،لا تنغلق كالرعد في السماء الصافية، ويؤكّد ايضاً عدم جواز الفصل بين الماضي والحاضر إذ ليس للأول وجود مستقلّ خارج وعينا به، وفهمنا ايّاه، فالماضي لا يوجد إلا في الحاضر وبه، والتراث قبل كل شيء شيءٌ من الذات لا يمكن خلعه أو تبديله بسهولة.

ولا أريد ايضاً الزعم بأنّ مثل هذا البحث – على امتداد زمانه ومكانه – يخوّلُ لي القول إنّ اللغويين والمفكرين العرب قد أرسوا أسس هذا العلم قديماً أو أنهم ابتكروه، وكوّنوا له منهجاً مستقلاً لنظرية لغوية خاصة، كما هو حال هذا العلم اليوم، فتلك مغالطة موضوعية لا أريد السقوط فيها، ولكني عزمت على اخضاع التراث العربي الى مماحكة موضوعية علمية في مجال موضوعي علمي من المجالات التي كان لأسلافنا فيها نظر، وعطاء، ومن خلال مفاهيم يقبلها ذلك التراث آخذاً بمبدأ «النسبية» في مقابلة معطياته مع « الكليّات» التي تمخض عنها علم اللغة الاجتماعي المعاصر، مع عدم اغفال المنطق الداخلي الخاص للتراث من وجهة، وعدم التعامل معه بمعزل عن الوعي المعاصر من وجهة أخرى، كل ذلك من أجل الدعوة الى ضرورة الاعتراف بأنّ لبعض لغويينا ومفكرينا القدماء، وفي مواطن معلومة من الدرس اللغوي الاجتماعي، ومن خلال أفضل ما كتبوه، أو استقرؤوه – على الأقل – قصب السبق في تلك المواطن والمجالات.

وبتأكيد هذه الحقيقة يزداد وعينا المعاصر بأشياء كثيرة مما يخصّ هذا العلم، ويثري معارفنا فيه، ويضع أمام المستعربين مدخلاً جديداً للدرس اللغوي عند العرب حيث كانوا قد تجاهلوا قيمه الفكرية والموضوعية لأسباب معلومة ... !

وعلى الرغم من أنّ ما تفتقت عنه أذهان العرب القدماء من نتاج لم يسعفه المنهج المتكامل، ولا الوسائل العلمية الدقيقة التي توافرت لدى المعاصرين، ولم يصدر بعضه عن فكر منظم، يضبط مجالاته في بناء عقلاني متماسك، إلا إنّ فيه ما يوازي آخر ما جاءت به النظريات اللغوية المعاصرة. والكشف عن هذا هو أدنى ما يُمجّد به الأولون، ويشهد بالبرهان أنّ العقل العربي ليس عقلاً اسطورياً أو غيبياً، وانما كان فيه للعلم والتجريب ميدان مبدع خلاق، وإنّ الافكار التي خرجت عن اللغويين والمفكرين العرب جديرة فعلاً بأن تذكر في كل موسوعة تعالج تاريخ الفكر اللغوي الانساني. وعلينا أن ندرس التراث العربي في هذا المجال بوصفه وثائق تحكي قصة الجهد العلمي الفذّ الذي بذله العرب سعياً وراء إدراك كيفية دوران أثمن أدواته، ونعني بأثمن أدوات الانسان ... اللغة.

ولكي أنهض بما عزمت عليه سلكت في اعداد بحثي منهجاً وصفياً تاريخياً عُنيت خلاله بشيئين أساسيين يمثلان إطاره الكلي.

الأول: هو التعريف بالموضوع اللغوي الاجتماعي على وفق ما تمخض عنه في الدراسات المعاصرة.

والثاني: ربط هذا بملامحه الأولى عند اللغويين والمفكرين العرب القدماء بما لا ينفي أن تكون لمعطيات الحاضر آثار سبقت نشأتها، مما يمكن الباحث المنصف من بلورة « نظرية» في خلود اسلافنا وقدرتها في تحريك السواكن والاثارة، وعلى احداث ردّ الفعل الذي يبقيه دائماً متجدداً باطراد من غير أنْ يأتي عليه البلى، ومن غير أن يدّعي مدّعٍ غير معتبر – وبلا سند علمي – أنّ كل ما قيل ويقال في عصرنا الحاضر في هذا الضرب من الدرس انّما هو مُلْك أشاعه الغربيون المعاصرون ليس فيه ما يوصله بمنبع أو مشرب من مشارب التراث العربي الخالد.

توزع البحث على أربعة عشر مبحثاً تندرج في فصول خمسة:

أما الفصل الأول فكان **المبحث الأول** فيه مقصوراً على التعريف بعلم اللغة الاجتماعي بمعنييه الخاص والعام، والعوامل التي ساعدت على نشوئه.

أما **المبحث الثاني** فمسوق، من أجل بيان تاريخ هذا العلم وتطوره عبر الزمان، بما يؤكّد نزعة تكامل المعرفة اللغوية، وامتدادها عبر فسيح من الزمان، واتساعها موضوعاً ومنهجاً.

وكان **المبحث الثالث** في بيان أهمية علم اللغة الاجتماعي سواء أكانت علمية أم عملية ذات نفع كبير على اللغات وعلى الجماعات، وعلى الأمم .

أما الفصل الثاني فكان عن اللغة مفهوماً، ووظيفة، وطبيعة .

حاولت في **المبحث الأول** منه تحديد الأسباب الكامنة وراء نشوء اللغة، ووظيفتها من وجهة نظر لغوية اجتماعية، وبيان قدم هذه القضية، وارتباطها بالانسان باعتبار أنّ اللغة حادثة عنه ومن أجله، وما كان فيها من تعدد الأقوال وتنوّعها، وتباينها عند العرب وغيرهم من الأعاجم. أما المبحث الثاني فقد أشرت فيه الى مسألتين: أولاهما حقيقة اللغة بين الغريزة والاكتساب، وثانيهما العلاقة بين

اللفظ ودلالته من وجهة نظر لغوي اجتماعي.

وانطوى **الفصل الثالث** على دراسة مستفيضة لجمع اللغة واستقرائها من لدن اللغويين العرب، والسبل التي انتهجوها في هذا العمل.

وقد حاولت في **المبحث الأول** من هذا الفصل أنْ اكشف عن ابعاد المنهج الذي سلكه اللغويون العرب في جمع اللغة، من اعتمادهم المنطوق، واحكامهم الحدود الزمانية والمكانية التي يجب ان تحيط بلغة الاحتجاج . وبيّنت في هذا المبحث ايضاً الخصائص الموضوعية التي يقرّها الدرس اللغوي الاجتماعي المعاصر في ذلك المنهج.

أما **المبحث الثاني** فقد كان في العوامل التي تساعد على تطور اللغة على وفق ما فهمه اللغويون العرب القدماء.

وكان **المبحث الثالث** في (الصراع اللغوي) بوصفه أحد العوامل الفاعلة في تطوّر اللغات سلباً أو ايجاباً، وما اهتدى إليه اللغويون العرب من مظاهر القرابة بين العربية وغيرها، ووعيهم لتأثير العربية وتأثرها بغيرها من اللغات واسباب هذا التأثر والتأثير.

وقصدت في الفصل الرابع إلى دراسة وسائل التواصل غير اللغوية، فعرّفت في المبحث الأول منه بالفروق بين الإشارات اللغوية المنطوقة وغيرها من وسائل التواصل الأخرى . وعرضت في المبحث الثاني للإشارات والحركات الجسمية المصاحبة .

أما **الفصل الخامس** فقد أوقفته على استجلاء العلاقة بين اللغة والمستويات الاجتماعية، متأملاً خلاله دور العرب في بيان نظرية السياق.

فكان **المبحث الأول** في استحضار العلاقات الكافية بين البنية الاجتماعية بأبعادها ومظاهرها المتعددة، والبنية اللغوية.

ولحظت في **المبحث الثاني** ما توصّل إليه اللغويون العرب في نطاق دراستهم المستويات اللغوية، والمواطن التي رأيت أنّهم قد حققوا فيها نوعاً من السبق على غيرهم من الأعاجم.

أما **المبحث الثالث** فدار في الإشارة اللغوية ومدى تأثّرها بالمواقف الكلامية المختلفة، ملمحاً إلى أثر الموقف في الاصوات والمفردات، ومفيضاً في درس (الدلالة اللغوية)، وبيان وظيفة هذه الدلالة داخل التركيب المعين.

أما **المبحث الرابع** فقد وسمته بـ(لغة السلوك وقواعد التصرف الاجتماعي) قاصداً فيه بيان الأفعال المادية الدّالة، وما يقتضيه الفعل اللغوي المعين من مقاييس اللياقة، وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد مستدعياً في ذلك كلّه معطيات اللغويين العرب القدماء.

- جـ -

ولست أزعم إني بهذه الصفحات قد استقصيت آثار اللغويين العرب في مجال الدرس اللغوي الاجتماعي كلّها، أو أتيت على ما تناثر في كتبهم من ذلك – وهو كثير – فتلك مهمّة أعسر على الفرد، وأليق بالجماعة، ولكن « ما لا يُدرك كلّه لا يُترك جلّه » فوقفت على جملة باسطاً في بعض المسائل، وقاصداً بالشرح بعضها الآخر.

وخليق بي في هذا المقام أنْ اشير إلى أن الطريق الذي سلكته قد سار فيه من قبل غيري، وانّي وإن كنت أجلّ اعمال اساتذة افاضل في ميدان العلم اللغوي الاجتماعي من امثال الدكاترة : محمود السعران، وتمام حسان، وعلي عبد الواحد وافي، وعبد الرحمن ايوب، ونهاد الموسى، وابراهيم السامرائي، ورضا السويسي، وحسن ظاظا، وفاطمة محجوب، وغيرهم من الأساتذة الذين احتوت آثارهم قائمة مراجعي . إلا انّي قصدت مقصداً آخر، زيادة على ما قصدوه، وهو استدعاء ما في تراثنا العربي القديم من هذا الضرب من الدرس، موازناً إياه مع المعطيات المعاصرة، محاولاً ان ادلّ بالبراهين الواضحة، والدلائل الناطقة على أن كثيراً مما بين ايدينا من حقائق علمية قد تضمنته آثار السابقين.

واني مع ادعائي التقصير، فانما فتحت لغيري باباً جدياً خليقاً بكل غيور على العربية وتراثها الخالد، وأمل أن يلتفت اليه غيري وينظر فيه، وليس للمرء إلا ما استطاع.

وأخيراً، أتقدم بالشكر والعرفان لكل من تعاون معي على الخير، وانجاز هذا البحث بالرأي والمشورة والكلمة الطيبة وأخصّ بالذكر الأساتذة الافاضل الدكتور عبد الأمير السفار والدكتور عبد الباقي الصافي، والدكتور احمد نصيف الجنابي، والله الموفق .

الفصل الأول

علم اللغة الاجتماعي

ماهيته، وموضوعه، وتاريخه، وأهميته

المبحث الأول

علم اللغة الاجتماعي

ماهيته وموضوعه

إن أعظم اكتشاف عرفه الانسان على مرّ العصور هو اللغة، فهي أبرز ما يميزه عن غيره من الحيوانات، ومن حسن الصنيع أنْ نعرِّف الانسان بأنه الحيوان القادر على الخلق البشري.

إنّ الانسان لسان « وشكراً للغة التي صار فيها الانسان إنساناً » كما يقول (ويلهم همبولت)[1]، شكراً للغة التي لم تتفتح انسانية الجنس البشري تفتحها العجيب إلا عندما تمكن الناس من التعبير عن اختلاجاتهم بهذه الأداة المثلى التي بها يفكرون وينطقون، وصاروا بفضلها اجتماعيين فاعلين ومنفعلين.

لقد كانت اللغة وما زالت وستظل احدى القوى التي ساعدت الكائنات البشرية على الخروج من العالم الحيواني والانضواء في جماعات، وتطور القدرة على التفكير، وتنظيم الحياة الاجتماعية، وتحقيق درجة التقدم التي عليها الإنسان اليوم، لأن الكلام «يفتح العالم المغلق في حياتنا الداخلة، ويسمح لنا بالخروج عنه، إنه مبدع، وصانع الحياة الاجتماعية »[2] .

ولهذا يتحتم على من يريد دراسة الانسان أن يعكف على درس لغته، إذ لا يمكن التعرف على هذا الكائن خارج الحقل اللغوي. إنّ كل ما يحدث في هذا العالم، شئنا أم أبينا مرتبط باللغة . « فقد نشأت مع نشوء العمل وتطورت معه، من دونها لن نحسن عملنا، ولن يتقدم علمنا وفننا، ولن تتقدم حياتنا ولن تكون لنا حضارة »[3] فاللغة إحدى أهم وسائل نشاطنا العلمي والفكري والاجتماعي.

---

(١) اللغة بين العقل والمغامرة ، د. مصطفى مندور ، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ١٩.

(٢) Vendrys Joseph. Langage Oral et Langage par le Geste en Grammaire Psychologis, Paris, 1950, p.5.

(٣) انظر : علم اللسان . د. رضوان القضماني . بيروت ١٩٨٤ ، ص ٨.

ومن هنا لا يمكن فهم اللغة، وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين، لأن فيها من الانسان فكره، وطرائقه الذهنية، وفيها من العالم الخارجي تنوّعه وألوانه.

وقد مضى على الانسان حين طويل من الدهر نجهل تحديده تعامل فيه مع اللغة تعامله مع الهواء والماء، فلم يكلّف نفسه عناء البحث عن مكوناته، ولم يشغل باله في معرفة كنه ووسيلته الإبلاغية المثلى، ثم جاء زمن بدأ فيه الانسان يصرف جهداً من أجل الوقوف على سر سلوكه التواصلي ..أعني (الكلام)، أو إثراء نظام هذا السلوك .. أعني (اللغة).

ولكن ما زال الانسان يجد أن معرفته باللغة على النحو الذي يطمح إليه بحاجة إلى مزيد من الدرس والبحث، ويؤكد (براتراند راسل) ضآلة معرفتنا بالكلام واللغة ويدعو إلى طريقة سلوكية دقيقة في البحث اللغوي قائلاً : « إنني أظن أن المعنى لا يمكن أن يفهم إذا عالجنا اللغة على أساس أنها عادة جسمية.. والميدان الصحيح لعلم اللغة هو دراسة ما يقوله الناس، وما يسمعونه وسط المحيط والتجارب التي يعملون فيها الأشياء[٤] .

ويؤكد (فيرث) هذه النظرة الاجتماعية إلى اللغة بقوله : « لنبدأ بأن نعتبر الإنسان ليس مفصولاً عن العالم الذي يعيش فيه، إنه ليس إلا جزءاً منه، إنه ليس موجوداً ليفكر فيه، ولكن ليعمل ما يناسب، وذلك يقتضيه أن يمتنع عن العمل في الوقت المناسب أيضاً، وهذا ينطبق على أهم نشاط اجتماعي للإنسان، ونعني به دفع الهواء، وآذان الآخرين الى الاضطراب بوساطة ما ينطقه . فكلامك ليس مجرد تحريك للسان، أو اهتزاز في الحنجرة، أو اصغاء، إنه اكثر من ذلك نتيجة لعمل العقل في تأدية وظيفته كمدير للعلاقات لتحفظ عليك سيرك في المحيط الذي تعيش فيه »[٥] .

إن هذا الارتباط بين اللغة والانسان يخولنا أنْ نؤكد « إنّ الانسان لغة، ويلزم عن هذه المقولة أنّ اللغة من كيان الانسان، فلا إنسانية بدون لغة »[٦]، والإنسان بدون لغة لا يتمتع بالانسانية الكاملة، ولو كان عقله وأفكاره في مستوى

---

(٤) مقدمة لدراسة فقه اللغة . محمد احمد ابو الفرج ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨.

(٥) نفسه ، ص ٢٩.

(٦) تأملات في اللغو واللغة ، محمد عزيز الحبابي ، ليبيا - تونس ، ١٩٨٠ ، ص ١١.

اعلى بكثير من المستوى الحيواني، وقد أثبتت الأبحاث التي قام بها العلماء « أن العقل لا يبلغ نموه إلا بعد أن يتمكن الانسان من النطق كلّ التمكن »[٧] .

فاللغة قطعة من الحياة نشأت فيها، وسارت معهن، وتغذت بغذائها، ونهضت بنهوضها، وركدت بركودها، وكان تاريخ اللغة وسيظل مجالاً رحباً نتصفح من خلاله تاريخ الحضارات الإنسانية، ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تؤدي اللغة دوراً ذا أهمية أساسية بوصفها من أقوى الروابط بين اعضاء ذلك المجتمع، وهي في الوقت نفسه رمز لحياتهم المشتركة، وضمان لها« فما الأداة التي يمكن أنْ تكون أكثر كفاءة من اللغة في تأكيد خصائص الجماعة؟ إذ هي في مرونتها، ويُسْرِها، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات متشعبة، وتقف موقف الرابطة التي توحد اعضاء الجماعة، فتكون العلامة التي بها يعرفون، والنسب الذي اليه ينتسبون »[٨] فلا يمكن أن تعرف شيئاً عن نظم العرب في عصر ما قبل الاسلام مثلاً، إلا إذا نظرت في لغة العرب آنذاك نظرة فاحصة من حيث دلالات الالفاظ، وتقلبها، أو ثباتها، وما تدل عليه كل كلمة منها من نظام عربي قديم بعينه، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى [ما جعل الله من بَحِيرة ولا سائبة ولا وصيلةٍ ولا حام][٩]، حتى نبدأ في فهم العادات العربية المتعلقة بهذه العادات، أو أن نقرأ قوله

---

(٧) اللغة والفكر ، بول شوشار ، تر صلاح ابو الوليد ، باريس ، ص ٨٧.

(٨) اللغة، فندريس ، تر.: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص . القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٧.

(٩) من سورة المائدة : ١٠٣ والبحيرة التي يمنع درها للطواغيث ، فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الابل بأنثى ، ثم تثنّى بعد بانثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت أحداهما باخرى ، وليس بينهما ذكر. والحامي : فحل الابل يضرب المعدود فاذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيث واعفوه من الحمل فلا يحمل عليه شيء وسموه الحامي . أنظر : تفسير الجلالين : السيوطي والمحلي ، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٢٤ .

تعالى { وَأنْ تستسقموا بالازلام}[10]، أو { وما اكل السَّبع إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النُّصب }[11] أو { قل احلّ اليكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلّبين }[12] أو قول (الأعشى) [13] :

فاني وما كلّفـتموني وربّكــم ... ليعلم من أمســـى أعقَّ وأحرَبا
لكالثور والجنّي يضرب ظهـره ... وما ذنبُـهُ إنْ عافت الماءَ مشربا
وما ذنبـه إنْ عــافت الماء باقرٌ ... وما تعـافُ الماء الا ليُضــــربا

ومما عاب به النقاد اللغويون على الشعراء استعمالهم أوصافاً تفتقر إلى الدقة لما فيها من مجانبة للعرف الاجتماعي، فقد جعل الأعشى مثلاً المرأة خرّاجة ولاّجة في قوله:

كأنّ مشيتها من بيت جارتهـا ... مرّ السحابة لا ريث ولا عجل

ومن هنا ذمّه (الأصمعي) قائلاً : « هلا قال كما قال الآخر :

ويكرمها جاراتها فيزرنهـــا ... وتعتلّ عن اتيانهنّ فتعـــذر

وعاب (الأصمعي) ايضاً قول عوف بن عطية :

رفعت له ناري فلما اهتدى بها ... زجـرت كلابي أنْ يهرّ عقورها

بقوله : « فقد فَضَحَهُ وصفُهُ اكلابه، وأساء الى نفسه من حيث أراد لها الذكر، ذلك انه لو كان الضيفان يكثرون اتيانه أنست بهم كلابه »[14] .

---

(١٠) من سورة المائدة : ٣، والازلام جمع (زَلَم) وهو قطع من الخشب مسواة تصلح أن تكون سهماً، وكان العرب في الجاهلية يقترعون بالازلام، يكتب على احدها:امرني ربي وعلى الثاني: نهاني ربي، ويكون الثالث غُفْلاً لاكتابة عليه، فاذا خرج ماعلية الامر نعلوا واذا خرج ماعليه من النهي امتنعوا، واذا خرج الغفل اجالوا الأزلام مرة اخرى . وقيل: الاستسقام بالازلام هو لمعرفة مقدار الانصبة في المسير، أنظر:معجم الفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية ط٢ القاهرة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠ م ١٠ / ٥٤٢ .

(١١) من سورة المائدة : ٣. والنصب هنا ماكانوا يذبحون عليه من الأوثان .

(١٢) من سورة المائدة : ٤ ومكلبين : حال من كلّبت الكلب بالتشديد اي : ارسلته على الصيد .

(١٣) ديوان الاعشي الكبير ، ميمون بن قيس . شرح وتعليق : محمد حسين . الاسكندرية ١٩٥٠. ص١١٥. زعموا أن البقر اذا عافت الشرب وانصرفت عنه ، اخذوا ثوراً فضربوه حتى يرد الماء فتتبعه البقر .

(١٤) الموشح المرزباني . القاهرة ١٣٤٣ هـ . ص ٢٨ ، وانظر : النقد عند اللغويين في القرن الثاني . سنيه احمد محمد ، بغداد ١٩٧٧ ص ٢٨٨ .

فهذه النصوص وغيرها كثير تشير إلى عادات جاهلية هي من صلب الحضارة العربية، ولا نستطيع أنْ نفهم العربي الذي عاش فيما قبل الاسلام إلاّ إذا عرفنا له هذه العادات، ومظاهر السلوك الاجتماعي التي كانت من الأهمية بدرجة جعلتها ترد في نصوص عربية ذات خطر.

فاللغة على هذا الأساس ليست عنصراً من عناصر الحضارة فحسب، بل إنّها أصل لكل أنواع النشاط الحضاري، ومن ثم فهي « أقرب الأدلة وأقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لأي مجتمع »(١٥)، وإننا لا يمكن أن نتعرف على أي نشاط انساني إلاّ من خلال اللغة وباللغة، فعالم اللغة هو « العالم الوحيد الذي حقق العناصر الاساسية لموضوع البحث »(١٦) .

ولم يجتمع الباحثون والمفكرون على تصور حقيقة العلاقة بين اللغة والمجتمع الناطق بها، اذ نجد أنّ هذه العلاقة تكتسب أهمية كبرى وأصيلة لدى الباحثين الامريكيين في اللسانيات البنائية، ونجد في لقاء معهم الوظيفيين والكوسماتيين(١٧)، وبعض البنائيين من أمثال (انطوان ماييه) يدافعون عن استقلال مادتهم ليس فقط عن الفلسفة، أو علم النفس، ولكن عن علم الاجتماع كذلك، ويحاولون عقد صلة وثيقة بين البنى الاجتماعية والبنى اللغوية، نجد من جانب آخر فريقاً من البنائيين يرى في هذا الموقف عبثاً، ومن رأيه عدم وجود علاقة ضرورية بين القانون اللغوي والسياق (الاجتماعي الثقافي) الذي يستعمل فيه هذا القانون. وقد كتب (سوميرفلت A. Sommerfelt يقول: «إن اللغة ظاهرة اجتماعية، والتغيرات التي تعرفها هي ايضاً ذات طابع اجتماعي، لكن هذا لا يعني أنّ هناك تقابلاً بين البنية اللغوية والمجتمع الذي يستخدم هذه البنيات وسيلة للتواصل. إنّ البنيات الصرفية للغة معينة يمكن أن تبقى هي هي دون تغيير رغم التغيرات الثورية التي تحدث في

---

(١٥) اللغة بين المعيارية والوصفية . د . تمام حسان القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥ .

(١٦) المرجع السابق

(١٧) من ابداع (ل. هلمسليف) . وهذه الكلمة اليوم عنوان لنظرية لسانية تتوافق مع تعليمات (سوسور) التي تقول في مجملها : إنَّ اللغة هدف بذاتها وليست وسيلة . انظر تفاصيل ذلك في : البنائية في اللسانيات . د. محمد الحناش . الدار البيضاء ١٤٠١ هـ – ١٩٨٠ ص١٦٥ وما بعدها .

البنيات الاجتماعية التي تتكلم هذه اللغة »[18] .

وعلى الرغم من هامشية هذا الرأي، اذ لم يوضح فيه (سوميرفلت) المقصود بالتغير اللغوي، وما الجوانب اللغوية التي تتغير، واذا كان يعتقد بأنّ التغير يكون عنيفاً وسريعاً كالتغيرات السياسية مثلاً، فهذا غير مقبول ولا يمكن أنْ يقصده أيّ لغوي مهتم بمسألة التغير اللغوي، الذي يحدث ببطء غير ملحوظ آنياً على الرغم من حصوله في كل فترة من حياة اللغة، دون أن يظهر للعيان إلا عبر قرون من الزمن، وقد يشمل اصوات اللغة دون نحوها، أو صرفها، أو معجمها، أو العكس . أقول على الرغم من ذلك فإن (بنفنست) E. Benveniste ، يؤكّد نفي العلاقة بين البنى اللغوية والبنى الاجتماعية، ومن رأيه أنه يمكن أن توجد لغات مختلفة تحمل حضارة واحدة ويمكن أن يُعبّر عن حضارات عديدة بلغة واحدة[19].

وفي رأي (بنفنست هذا إصرار من جانب فريق من البنائيين على الفصل بين البنى اللغوية والاجتماعية، وهو ما يرفضه آخرون كما بيّنا، والثابت لدينا أنَّ علاقة جدلية قائمة بين اللغة والمجتمع، ذلك أمر يجب على عالم اللغة، وعالم الاجتماع الاعتراف به، إذ إن المجالين غيرمتناقضين « إنهما متمايزان ومتكاملان في الوقت نفسه »[20] وإدراكاً من أغلب المفكرين والباحثين لتلك العلاقة الحتمية الثابتة، فقد تضافرت جهود متواصلة لعلماء الاجتماع الألمان ومن أشهرهم (دير كايم) الذي كانت نظرياته التي قدّمت في مجال علم الاجتماع تحوّلاً حقيقياً في دراسة الحقائق الاجتماعية (Social Facts) لما لها من تأثير مباشر على الدراسات اللغوية إذ تحول مفهومه لمجال علم الاجتماع من الحقائق الاجتماعية إلى الحقائق اللغوية (Lingual Facts) على يد (دي سوسور) وانتقل تمييزه بين الفردي (Individual)، والاجتماعي (Social) إلى تمييز (سوسور) بين فردية الكلام (Individuality of Speech) والطبيعة الاجتماعية للّغة (Social Nature of Language) وتحديده استقلالية علم الاجتماع وعمليته إلى تحديد (سوسور)

(١٨) البنائية في اللسانيات . ص ١٤٧ .

(١٩) انظر:علم اللغة العام سوسور تر.د.يوئيل يوسف عزيز ص٢٧و٣٢ والبنائية في اللسانيات، ص ١٤٨ .

(٢٠) نفسه ١٤٧: .

استقلالية علم اللغة وعلميته[٢١].

وقد اجتهد علماء اللغة من أمثال:سوسور، ومابيه، وفندريس، وفيرث، وهاليداي، ومالينوفسكي، ويسبرسن، وفلمور، وفيربواس، وهاريس،وكاردنر، وغيرهم على إنشاء فرع جديد من فروع علم اللغة، أخذت أصوله تتضح وتستقر في السنوات الأخيرة . وتشغل اذهان الباحثين وتفهم تفكيرهم بالدراسة والبحث، أطلق على هذا الفرع (علم اللغة الاجتماعي) (Socioliguistics)، ويطمح أصحاب هذا العلم الى اكتشاف الأسس أو المعايير الاجتماعية التي تحكم السلوك اللغوي مستهدفين إعادة التفكير في المقولات والفروق التي تحكم قواعد العمل اللغوي، ومن ثم توضيح موقع اللغة في الحياة الإنسانية .

وهذا العلم بمعناه الواسع يعني أيضاً بدراسة الواقع اللغوي في أشكاله المتنوعه بوصفه صادر عن معان اجتماعية وثقافية مألوفة وغير مألوفة، ويشمل كل الميادين التي نعثر عليها مع علم الأعراف البشرية (Ethnology)، الذي يدرس اللغة لا لذاتها وانما بوصفها تعبيراً عن سلالة معينة، عن شعب، وعن حضارة، وكذلك تلك المحاولات التي يمكن أن تُلحق بعلم اللغة، ومنها طرق التكلّم، وموقف المتكلم والمخاطب، واللهجات المحلية، وصور الأنشطة المحكومة بقواعد استخدام اللغة، ومشكلات الاتصال اللغوي، والموضوعات التي تهتم بالتغيرات اللغوية على المستوى الجغرافي والاجتماعي والثقافي للغات المختلفة، أو داخل اللغات، وعلم اللهجات المشتمل على الجغرافية اللغوية، وتحديد مواطن اللهجات ضمن المجتمع الواحد مع وضع الأطالس اللغوية لها، ويمكننا أن نضع إلى جانب علم اللهجات البحوث المتعلقة باختلاف اللغات، أو قضايا التعدد اللغوي.

ويدخل ضمن علم اللغة الاجتماعي بمعناه الواسع ايضاً ميادين أخرى كتحليل الخطاب السياسي أو الأدبي أو الديني أو الاعلامي ... الخ، مع الاعتماد على (سوسيولوجيا) ظاهرة الكلام التي لا تتعرض للمعطيات اللسانية إلا كوسيلة اجتماعية.

ويمكن الاستناد إلى التصنيف الذي تقدّم به (هاليداي)لحصر مواطن

---

(٢١) انظر : الاثنوميثودولوجيا . ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة . محمد حافظ دياب مجلة فصول . المجلد الرابع – العدد الثالث القاهرة ١٩٨٤ ص ١٦٠ .

اهتمامات اللسانيات الاجتماعية، وهو كالآتي[٢٢]:

- الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي، وتعدد اللهجات.
- التخطيط والتنمية اللغوية.
- ظواهر التنوع اللغوي .
- علم اللهجات الاجتماعي (المتنوعات غير المعيارية).
- اللسانيات الاجتماعية والتربية.
- الدراسة الوصفية للأوضاع اللغوية(طريقة واسلوب الكلام).
- السجلات والفهارس الكلامية والانتقال من لغة إلى أخرى.
- العوامل الاجتماعية في التغير الصوتي والنحوي.
- اللسان والمجتمع والتواصل الحضاري.
- النظرية الوظيفية والنظام اللغوي .
- تطور اللغة عند الطفل.
- اللسانيات العرفية(الاثنو منهجية).
- دراسة النصوص.

أما علم اللغة الاجتماعي بمعناه الضيق[٢٣]، فإنّه يهتم بالخطوط العامة التي تميّز المجموعات الاجتماعية من حيث أنها تختلف وتدخل في تناقضات داخل المجموعة اللسانية العامة نفسها، والوقوف على القوانين التي تخضع لها الظاهرة اللغوية في حياتها وتطورها وما يعتورها من شؤون الحياة، ومبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية التي لها تأثير على اختيار الناس اللغة، وما تحمله هذه اللغة من طوابع الحياة التي يحياها المتكلمون، وطرائق الاستعمال اللغوي التي يكتسبها الانسان من المجتمع.

---

(٢٢) انظر : من النظرية اللسانية الى تنظير الواقع . الاستاذة ليلى المسعودي من بحوث الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات . تونس ١٩٨٥ ص ٥ – ٦ .

(٢٣) انـــظـــر : Essai d'une Therie des Langues Speciales dans une Societe . (Revue des Etudes) Etnographiques et Sociologiques . V Van Geme p. Juin - Juillet Paris . 1958 R. Jakobsor. Fundamentals of Language .The Itague :Mouton , 1956. اللغة والمجتمع : د. علي عبد الواحد وافي مصر ١٩٧١ البنائية واللسانيات. ص ٩٠ وما بعدها .

ولما كانت اللغة تنفذ إلى كلّ جوانب الحياة، فهي نشاط اجتماعي يقوم بما يسميه (سابير) بالتشارك الاجتماعي Communioc، وهي التي تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الحضارية والاجتماعية ،بل لعلها الوسيلة الوحيدة للإفصاح عن هذه العلاقات، وتلك القيم، فقد وجّه علماء اللغة الاجتماعيون جهودهم لدراسة هذا الجانب المهم في اللغة فاعتبروا اللغة جزءاً من الحضارة Culture، ونعني بالحضارة مجموع أنشطة الحياة من مأكل وملبس، ومأوى، وعقائد، وعادات، وأعمال وابتكارات وغير ذلك من ظواهر النشاط الانساني[٢٤] التي تنعكس على اللغة ومفرداتها، وتعابيرها الاصطلاحية.

ومما شجع على نشوء هذا العلم وتطوره قناعة تكوّنت لدى عدد كبير من الباحثين مؤداها «إنَّ للغـة استعمالات متنوعة ،فهي وسيلة تعبير اجتماعي وعلمي، وسياسي،واقتصادي،مما يحتم دراسة خصائص هذه الاستعمالات المختلفة، ومعرفة أبعاد التكيف اللغوي مع مختلف الأغراض والمواقف »[٢٥].

فلغة الشخص تحددها عوامل كثيرة منها المستوى التعليمي، والمستوى الاقتصادي، ومنها التقويم الذاتي، والرغبة الخاصة، والحالة الصحية، وغير ذلك مما يكوّن أسساً كافية لتحديد موضوع علم اللغة الاجتماعي، ومجالاته، ووسائل الانتفاع بعلوم المجتمع الاخرى في مناهجه.

وعلى الرغم من مناداة اللغويين باستقلال هذا الدرس إلا أنهم لا ينفون اعتماده على علوم أخرى كعلم الاجتماع،والجغرافية،وعلم النفس والانثربولوجيا[٢٦]، والإحصاء، والفيزياء، وغيرها.

---

(٢٤) The New Encyclopedia Britanica , V. 5p . 364- 365

(٢٥) اللغة العربية في اطارها الاجتماعي . مصطفى لطفي . بيروت ١٩٧٦ ص٤٤.

(٢٦) الانثروبولوجيا كما عرّفها العلماء في بادىء الامر هي علم دراسة الانسان. الا ان المعنى قد تطور وتشعّب بمرور الزمن ، واخذ يعني دراسة الطبيعة الفيزيولوجية والسيكلوجية للانسان. وأمكن تقسيم الدراسات الانثروبولوجية على اقسام عديدة فهناك الطبيعة ، والاجتماعية ، والفلسفة، وعلم الاثار ، والحضارة المادية .
أنظر :معجم علم الاجتماع . تحرير البروفيسور دينكن ميشيل تر.د . احسان محمد الحسن . بغداد ١٩٨٠ ص ٢٦ ،وانظر ايضاً: Ardener Edwin. Social Anthropology and Languge Tavistock Publications London , 1971

المبحث الثاني

تاريخ علم اللغة الاجتماعي

يعود اتصال البحث اللغوي بعلوم المجتمع إلى السؤال الذي طرحه الفلاسفة والمفكرون في القرن الثامن عشر عن العلاقة بين اللغة والشعب الذي يتكلم بها، ومن هؤلاء (يوهان فوتغيرد) و (هلدر) و (جينس). فقد رأى (هلدر) أنّ اللغة ذات شكل داخلي خاص وهي مُنظمة للعالم الخارجي للجماعة الناطقة، وإن مفهوم الجماعة اللغوية يتضمن عنده مفهوم الأمة[1].

أمّا (جينس) فقد نشر عام ١٧٩٤ كتابه الموسوم بـ (المقارنة بين اللغات مع تقويم فلسفي ونقدي لأربع عشرة لغة قديمة وحديثة) ليثبت أنّ طبيعة الإنسان الفكرية والأخلاقية تتجلى كاملة في اللغة على نحو ما. مثل رهافة الحس التي تظهر في اليونانية والفرنسية، والنزعة الفلسفية الواضحة في اللغة الالمانية ... الخ[2].

وفي هذا الاتجاه شاهدنا تعدد النظريات التاريخية والنفسية في نشأة اللغات، وتعود معظم تلك النظريات والمحاولات الى آراء الفلاسفة في المقام الأول، وعلى رأسهم الفيلسوف (كوندياك) سواء في بحثه الموسوم بـ (نشأة الاحاسيس) عام ١٧٥٤، أم في بحثه الموسوم بـ (اصل المعارف الانسانية) عام ١٧٤٦، أم في بحثه الموسوم بـ (المذاهب الفلسفية).

وتدهشنا اليوم بعض ومضات فكرية لكوندياك من نحو قوله: «لا يستطيع البشر تبادل الإشارات ما لم يكونوا مجتمعين »[3]و«إن اللغة هي أوضح مثل للعلاقات التي نكوّنها بصورة إرادية »[4] ولم يوجد بإزاء (كوندياك) مفكر يضاهيه في هذا الموضوع، وإن عثرنا وقتئذٍ لدى فلاسفة القرن الثامن عشر على آراء جديرة

---

(١) انظر : Encyclopedie Larousse, Jean - Baptiste la Linguistique par un Nombre deProfesseurs Universitites 1977

(٢) انظر : تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين . جورج مونين . تر : د . بدر الدين القاسم . دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ ص ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٥٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٥٤ .

بالاهتمام كآراء (ديدرو)حول اعتباطية الإشارة اللغوية على نحـو ما تـراه عنـد (سوسور)، وعنايته القصوى بتعليم الصم-البكم، والتهذيب الكلاسيكي الفرنسي الذي يأنف من استعمال المفردات الوضيعة، وبعض الآراء التي تصبّ في علم اللغة الاجتماعي على نحو ما سيعرض له هذا العلم فيما بعد.

إن هذه الآراء في مجملها قد امتد فعلها إلى القرن التاسع عشر وأثرت في رجل مثل (غليوم دي همبولت) Gullaume de Humbolat (١٧٦٧-١٨٣٥)، الذي دفع بالأيديولوجية الرومانسية التي انتشرت في ميادين الثقافة والفلسفة السياسية إلى حدودها القصوى، وكان الألمان في هذا القرن قد اندفعوا إلى أبحاث تاريخية في الماضي الجرماني رغبة منهم في إعلان شأن القيم القومية والإشادة بها، بما في ذلك اللغة الألمانية وتاريخها.

وكان من رأي مفكري الألمان آنذاك إن الشعب مصدر كل ثروة ثقافية بما فيها اللغة «وإن التطور الذي قطعته اللغة الألمانية كان يصاحب تطوراً آخر في المجتمع فدرسوهما معاً، وقد أيدوا الفكرة القائلة إنّ لكل لغة بنية خاصة بها، وكل لغة تعكس بصدق وأمانة نوعية التفكير عند الشعب الذي يعبر بها، ومن هنا قَوِيَتْ في منهجهم الرابطة بين اللغة والوطن فلكل وطن لغة تعبّر عنه، ولا بُدّ لدراسة تاريخ هذا الوطن من دراسة كل مقوماته ومن ضمنها اللغة »[٥].

وقد كانت اللغة عند (همبولت) «الوسيلة التي يتكوّن بها التفكير، أي أنها تعبّر عن الروح القومية، وكذلك تكوّن هذه الروح في كلّ خصائصها، وتشير إلى تلك النظرة الكونية الشاملة التي تنفرد بها جماعة من الجماعات، وليس تنوع اللغات إلا دليل على تنوع العقليات، ومنه نشأت أهمية التحليل الدقيق المفصّل لعضوية كل لغة لكي تتم الموازنة بين مزايا بنياتها ومزايا بنيات الـلغات الأخــرى»[٦].

ذلك أنّ تفوق البنية اللغوية برهان أكيد على تفوق الذهنية والعرق . هذه هي خلاصة الدراسة العرقية المقارنة التي قام بها (همبولت) وكان حين إنشائها ممزقاً بين حنينه إلى وحدة الفكر الانساني، وبين تنوع اللغات، محاولاً إثبات تفوق العنصر الجرماني من خلال تفوق لغته هذا التفوق المزعوم، مما حدا بالنقاد أن

---

(٥) البنائية في اللسانيات : ص ٧٥ .

(٦) نفسه : ص ١٩٨ .

يطلقوا على آراء (همبولت) وجماعته اسم (المدرسة اللغوية العنجهية)[٧] Jingoistic Lingustics.

وقد سلك (راموس راسك) (١٧٨٧–١٨٣٢) مسلك (همبولت)، إذ عكف على دراسة الماضي الاسكندنافي، وكان ينزع نزعة رومانسية على الطريقة الألمانية وللأسباب ذاتها التي دفعت معاصريه إلى مثل هذا العمل.

ومن المعروف لدينا أن الألمان مسبوقون بمثل دعواهم، فقد كان اليونانيون القدماء يرون أن لغتهم أفضل اللغات «لأن سائر اللغات على رأي جالينوس إنما تشبه إما نباح الكلاب وإما نقيق الضفادع»[٨] وما اللغة اللاتينية بالنسبة لمن لا يعرفها فيسمعها الموضع الذي ذكره (جالينوس). وقد كذّب اليهود حين زعموا أن اللغة العبرية هي اللغة التي أُوحي بها الى الانبياء، وإنها أفضل اللغات لأنها « لغة أول انسان خلقه الله» وغير ذلك من الادعاءات[٩] التي لا تستند إلى حقائق علمية مقبولة.

لقد كان من نتائج التيار الرومانسي الالماني في القرن التاسع عشر أنْ نشطت الدراسات اللغوية التي تعمل على تصنيف اللغات إلى عائلات بما يدل على تطبيق روح المنهج التطوري الذي لم يكن تطبيقه مقتصراً على مجالات الدرس اللغوي كما أسلفت، بل كان عاماً على جميع العلوم كما كان يشمل جميع التقاليد البشرية، بل والإنسان نفسه.

وبذلك كان الألمان رواد فقه اللغة المقارن بمفهومه العلمي الحديث. وقد اقترن شيوع الدراسات المقارنة مع اكتشاف اللغة السنسكريتية بين (١٧٨٧–١٨١٦) مما شكّل منعطفاً كبيراً بالنسبة إلى الدرس اللغوي عموماً، وأزال عنه ذلك التفكير الطويل المشوش. فالاتصال بين اوربا والهند قد أظهر بوضوح باهر قرابة اللاتينية والسنسكريتية، واللغات الجرمانية والسلافية والسلتية.وبذلك انقطع الافتتان باللغات ذات الأصل الإلهيأو الفلسفي، فقام عماد جديد للتفكير في شأن اللغات، وانْ بقي بدوره باديء الأمر لحل المشكل نفسه الذي أخذ من جهد القدماء كثيراً وهو : أصل

---

(٧) أمدني بهذه المعلومة مشكوراً الاستاذ الدكتور عبد الامير السفار .

(٨) انظر : محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية . اميل الخولي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص٦٤ .

(٩) انظر : الصهيونية واللغة . د . فاروق محمد جودي ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ .

الكلام . ومع هذا «فقد شُرِع إذاك في اقتباس المبادىء والمناهج التي حققت في العلوم الطبيعية، واعتبرت اللغات كيانات حيّة، تولد وتنمو وتموت»[١٠].

زيادة على هذا كلّه، فإنا نجد لدى (همبولت) ملاحظات يبرز خلالها ما يسمّى بـ (قطبيات اللغة) بمعنى أن اللغة «إنتاج فردي واجتماعي في آن واحد، وهي شكل ومضمون، وهي آلة وموضوع وهي نظام ثابت وصيرورة متطورة وهي ظاهرة موضوعية، وحقيقة ذاتية»[١١].

وقد كانت آراء (همبولت) هذه وغيرها محور نقاش وجدل بين لغوي ذلك العصر، فاستشهدوا بها، وفسّروها في ضوء نظريات لاحقة منها ما يؤيّد (همبولت)، ومنها ما يعارضه، من ذلك ما أثاره الايطالي (كروك) حول عبارة (همبولت) القائلة «إنّ اللغة ليست نتاجاً بل هي قدرة فاعلة، كي يبعث نظرة (فيكو)[١٢] Vico (١٦٦٨–١٧٤٤) التي تزعم أن اللغة إبداع فردي، وإن علم اللغة يتصل بعلم البديع، أي انه فصل من فصول علم الجمال، بما يساعد على تجنّب بعض القضايا التي اثارها التأويل الاجتماعي للغة[١٣].

ومنها ما أثاره (شلايشر) (١٨٢١–١٨٦٧) الذي يعدّ أوّل لغوي في القرن التاسع عشر عرض إلى جانب الأسلوب المقارن – بصورة أوضح من (همبولت) – علماً لغوياً عاماً منسجماً ومتكاملاً مقدّماً صيغة قطعية للنظرية القائلة بأنّ اللغة جهاز عضوي،أي إنها ليست ظاهرة اجتماعية بل هي حادث من حوادث الطبيعة[١٤]، أو جهاز غير عضوي ومن ثمّ لا يكون في رأيه علم اللغة علماً إنسانياً، إنما هو

---

(١٠) مفاتيح الالسنية : جورج مونين . عرّبه وذيّله بمعجم عربي – فرنسي : الطيب البكوش ، تونس ١٩٨١ ، ص٣٢ .

(١١) تاريخ علم اللغة : ص١٩٩.

(١٢) من اشهر الآراء التي قدّمها (فيكو) شرحه السبب الذي من أجله تنوّعت اللغات فكان عددها مساويا لعدد الشعوب ، فانه احتج بتنويع الاقاليم المناخية والأزمنة والاهواء والأعراف ، مما يدخل في مجال الدرس اللغوي الاجتماعي المعاصر .

(١٣) انظر : تاريخ علم اللغة : ١٩٦ – ١٩٨ .

(١٤) قضى شلايشر جزءاً من حياته يعمل عالماً للنبات قبل أن يحوّل إلى عالم لغوي .

علم طبيعي[١٥]، وعلوم الانسان كما يقول (هيجل)الذي تأثر به (شلايشر)، هي ميدان الحرية، في حين إن علوم الطبيعة هي ميدان الضرورة والتقيد. ومن هنا فإن علم اللغة خاضع لقوانين حتمية تساعد علم الصوت على استحضار بُنى اللغات البائدة، وعلى هذا النحو شعر (شلايشر) شعوراً واضحاً بضرورة فصل الدراسة الإنسانية القديمة المسماة بفقه اللغة عن الدراسة اللغوية الجديدة التي كان يريد أن يطلق عليها اسم علوم الحنجرة او الزردمة[١٦].

وعلى هذا الصعيد تبنى (شلايشر) مباشرة ما جاء به (داروين) في كتابه (أصل الأنواع الحيّة) عام (١٨٥٩)وأراد أن يستنبط من مذهب (داروين) كل النتائج الممكنة في ميدان اللغة، ثم إن هذا المذهب يؤيد، كما هو معروف القول إن اللغة كائن عضوي ينشأ على الصعيد التاريخي ينمو ويتطور، ثم ينحلّ، ويموت » [١٧] وإنّ علم اللغويات يمكن أن نعدّه جزءاً من العلوم الطبيعية إذا سلّمنا بما ينادي به بعض النحويين المحدثين الذين نظروا إلى اللغة نظرة حسّية موضوعية، وروّجوا لمبدأ القوانين الصوتية الجامدة التي لا تتطابق معها كل اللغات، تلك النظرة التي تعود بدورها إلى الفترة القديمة التي أرست القواعد اللازمة لرصد الاصوات رصداً متقناً منذ ما قبل أفلاطون حتى اللغوي اللاتيني (برسيان) Priscien «الذي قرنت آثاره مرةً بعد مرةٍ حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولن يعود بالامكان أنْ نلقي نظرة عابرة على تلك التقنيات «البدائية» التي يحدثّون بها إسهام الاغريق في علم الصوت[١٨]»كذلك يستحيل أنئذ أن نتجاهل علم الصوت عند العرب، أصوله وانتشاره في أوساط الثقافة العالمية إلى ما بعد القرن السادس عشر، وما أحدثه

---

(١٥) تاريخ علم اللغة : ص ٢٠٢ .

(١٦) نفسه : ص ٢٠٢– ٢٠٣ .

(١٧) نفسه : ص٢٠٦ .

(١٨) اسهم الاغريق في ترقية الوعي المتصل بالتقطيع الثاني للغة (وهو تقطيع صوتي بداه الفينيقيون . وقد عرض أرسطو للتحليل الصوتي في كتابه – الفن الشعري – كذلك أولى الاغريق عناية بوصف اللغات مما حملهم على إهمال اللغات الاجنبية إهمالاً يكاد يكون تاماً.

مــــن أثر فـــي الغـــرب من نــاحية التفكير الصــــــوتي »[١٩].

ومن المعروف أن الجدل الدائر عن إمكانية اعتبار علم اللغة علماً طبيعياً أو علماً اجتماعياً قديم، لكنه لم يظهر بوصفه مشكلةً إلا في القرن التاسع عشر بعد نشأة العلوم الطبيعية، وازدياد أهمية العلوم الاجتماعية، فقد كان الاغريق في مناقشاتهم الفلسفية يعتمدون على آراء في مثل هذا الصدد يمكن تفسيرها الآن على أنها تعارض وجهة النظر القائلة إنّ علم اللغويات أحد فروع العلوم الاجتماعية، كما هو الحال عند أفلاطون، ومن جانب آخر نجد تحيزاً واضحاً نحو الرأي القائل إنّ اللغة تقليد اجتماعي، وإن لكلّ مسمّى – إنْ كان شيئاً او عملاً – اسماً لمجرد أن الناس قد اتفقوا على ان هذا الاسم رمز للشيء المسمّى، وقد تبنى (أرسطو) هذا المفهوم عندما عالج اللغة على أنها رابطة اجتماعية. وتتفق غالبية علماء اللغويات الوصفيين اليوم على هذا المفهوم، وإن اللغويات تتبع العلوم الاجتماعية في أكثر الاحيان إذ أن تطورها ونشأتها، تعتمدان على نشاط الافراد والجماعات الذي يخضع لكل أنواع المؤثرات الاجتماعية.

والواقع إن الجدل حول اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية أو ظاهرة اجتماعية يُعدّ « لغواً بلا جدوى، فاللغة تنتمي الى كل من العلمين طرفي النزاع، وعلى الباحث أن يختار الجانب الذي يستهويه من جوانب اللغة، ويركز عليه اهتمامه وجهده، مع اعتبار أنّ كلاً من الجانبين – الطبيعي والاجتماعي - لهما الأهمية نفسها في دراسة اللغات، ولا يهتم بالفصل بين اعتبار اللغة جزءاً من العلوم الاجتماعية أو من العلوم الطبيعية إلا المشرفون على التعليم عند وضع برامجهم، إذ يكون هذا العمل مبنياً على أسباب تربوية، وإدارية بحته »[٢٠].

وزيادة على ما في الخلافات بين اللغويين إبان القرن التاسع عشر من مرارة وعنف وجدال، إلا أنها أتت بفوائد كثيرة، منها تأكيد الحاجة إلى الدراسات الدقيقة للظواهر اللغوية، وتركيز الاهتمام بالبحث في اللهجات المحلية، والاختلافات

---

(١٩) تاريخ علم اللغة : ص ٢٠٦.

(٢٠) لغات البشر أصولها طبيعتها تطورها. ماريو پاي . تر.:د . صلاح العربي ، القاهرة ١٩٧٠، ص٨٢ (٢١) انظر : نحو مدخل علمي لدراسة اللهجات العربية المعاصرة . د . حسن شقير عبد الجواد من بحوث الندوة العالمية الثالثة للسانيات ، تونس ١٩٨٥ . ص٢ . ولغات البشر : ص١٠ .

الكثيرة بينها، كما يمكن القول إنّ هذه الخلافات قد أدّت - بطريق غير مباشر - إلى الاهتمام بدراسة التوزيع الجغرافي للسمات اللغوية وبالتالي رسم الحدود والخرائط كما حدث في ألمانيا عام (١٨٧٦)، على يد (جورج فينكر) George Wenker، وفي فرنسا على يد (جول جيرون) Jules Gillieron، وفي أمريكا عام (١٩٣٠) وما بعده على يد(هاتز كـوارث) Hatez Kwarth، وفي بريـطانيـا بيـن (١٩٥٠-١٩٧٨) على يد (هارولد اورتن) Harold ortin، واهتم المستشرقون ايضاً برصد اللهجات العربية العامية في مناطق مختلفة من العالم العربي لأسباب مختلفة ... ثم حاول بعضهم رسم الخرائط اللغوية (٢١)كما فعل (كانينو) Kanino مثلاً في دراسته لهجات تدمر وحوران.

ومن هنا يمكن القول إنّ الدرس اللغوي اليوم مدين إلى القرن التاسع عشر لما استكمله هذا الدرس عبر هذا القرن من آثار ذلك العصر، ومدين إلى الرومانسية الألمانية على وجه الخصوص، وداعيتها الأشهر (همبولت) وما قدمه إلى علم اللغة في زمانه من مفاهيم رائعة للدراسة اللغوية المعاصرة، تلقفها نوابغ القرن العشرين، ليصعدوا بها درجات أخرى من الرقيّ والنضج، فظهرت قضايا لغوية جديدة، أو انتقلت هذه القضايا إلى مقدمة الساحة، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: غلبة طابع البحث في اللغويات العامة والوصفية، ودراسة العوامل التي تؤثر في وقت واحد في اللغات، ووضّح أيضاً كيف أن علم اللغة المتأثر بالدراسات النفسية والاجتماعية النـاشئة هـو الذي حلّ محلّ علم اللغة الذي تأثر بعلوم الحياة والتاريخ [٢٢].

كما برز تأمل متجدّد في الكلام بوصفه مؤسسة اجتماعية، وغير ذلك من الاستقصاءات الدقيقة المحددة، والموجهة توجيهاً واقعياً ساعدت بدورها على تعجيل حلول ساعة النظريات الشاملة الكبرى، والمدارس اللغوية المتعددة الأطراف والأفكار والمناهج، ويُعد كتاب (ف. دي سـوسور) (١٨٥٧-١٩١٣) المـوسـوم بـ (منهج علم اللغويات العامة Cours de Lingäistique General، رائد طرق البحث في اللغويات إبان القرن العشرين، واللغة في مفهوم (دي سوسور) أساساً ظاهـرة

---

(٢٢) فصّل القول في هذا (فون جيمب) في بحثه الموسوم بـ(محاولة في نظرية اللغات في المجتمع) انظره في :

Revue des Etudes Ethnographiques et Socilogiq. Juin - Juillet , Paris 1908

اجتماعية ينبغي دراستها في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية، وإنها « دارة تشمل المسموع، والملفوظ، والمتصدر، وهي تحرك قسماً نفسياً، وآخر وظيفياً، إنها تستمد قاعدتها من ذاتها .... وجميع المؤثرات في اللغة ترجع إلى المجتمع والظواهر الاجتماعية[٢٣]. ولا يختلف هذا المفهوم اختلافاً كبيراً عما نادى به (همبولت) من قبل، الا أن (سوسور) قد ذهب في بحثه إلى أبعد مما ذهب إليه (همبولت)، وقاده هذا التمثل الاجتماعي لِلّغة إلى تأكيد حقيقتين [٢٤]:

الأولى: إصراره على أن هناك فرقاً واضحاً بين اللغة والكلام، فاللغة نظام تشترك فيه مجموعة من الأفراد، وإنها من طبيعة الاجتماع الانساني في المكان والزمان المعينين، تخضع لهذا الاجتماع وحده في حين ان الكلام مجموعة من الأصوات يقوم متحدث واحد بصياغتها، وإنه عمل فردي خاضع لمؤثرات شخصية، بمعنى إن اللغة عامة والكلام فردي، واللغة تحدد بالهدف الذي ترمي اليه وهو قيامها بدور التواصل معتمدة على أساليب مختلفة تتحدد بأنظمة متميزة إلا انها متقاربة، وللبرهنة على هذه الفرضية يذكر الباحثون قضية الترجمة من لغة إلى أخرى، التي تسمح بالتعبير العام الذي تتفق حوله اللغات، بينما الكلام قضية فردية، فنحن عندما نترجم من لغة إلى أخرى لا نترجم الكلام بل نترجم اللغة[٢٥]. فالعربية، مثلاً، يمكنها أن تترجم إلى أية لغة شئنا، ولكن لا يترجم كلام فرد من الأفراد، لأن اللغة قانون عام اتفاقي قائم على أعراف دأب الناس على استعمالها منذ القديم فأصبحت لغة، والكلام يختلف من فرد إلى فرد، يتحدد باستعمال الجهاز الصوتي، وفيزيولوجية الأفراد في التعبير عن مكونات نفوسهم، فهو إذن خاص، ولذلك فنحن نترجم اللغة إلى كلام لكن العكس غير صحيح، قال (هلمسليف): « عملياً إن لغة التداول اليومي هي الكلام، وكل أنواع الكلام الأخرى يمكن أن تترجم إليه، وكذلك

---

(٢٣) اللغة والأسلوب . عدنان بن ذريل ، دمشق ١٩٨٠ ، ص٤٧ .

(٢٤) انظر : علم اللغة العام . سوسور ، ص ٣٣ و W. Baskin. English translation Course in: General Linguistics, New York, 1959
ومفاتيح الالسنية : ص٣٤ ، ولغات البشر : ص١٠ .

(٢٥) علم اللغة العام ، سوسور ، ص ٣٢ وما بعدها والبنائية في اللسانيات : ص ٢٤٢ .

كل اللغات التي لها بنيات لغوية متشابهة »[٢٦].

والثانية: تأكيد (سوسور) مفهوم النظام، فاللغة نظام تشترك فيه المجموعة الناطقة، ومن هنا منح (سوسور) اللغة دقة جعلتها ترادف تقريباً (قانون)، (للدوال / الرموز)، فللغة نظام خاص يتصرف بموجب قوانين تحرّك حياة الدوال اللغوية، ويسمح بالتعبير وإرسال ما تحتاجه المجموعة الناطقة في شؤونها وأنشطتها الاجتماعية وبذلك فإن (سوسور)«يشير إلى أن اللغة هي أهم شيء في نظام الرموز، وبإعطائه الاسبقية لِلّغة يجعل علم اللغة متميزاً إلى حد ما عن علم (السيمية) او (السيميائيات)[٢٧].

وقد أكد (مارتيني) رأي (سوسور) هذا، وأصر على أن اللغة الانسانية لا يمكن أن يماثلها نظام تواصلي آخر، فعلى الرغم من الجهود التي بذلت لدراسة لغة الحيوانات، فإنها لم تصل في نهاية المطاف إلاّ إلى خلق فرع جديد في ميدان علم (السيمية) أو (السيميائيات) ولم تتمكن من إدماجها فرعاً من فروع علم اللغة العام.

استمر تلاميذ (سوسور) وأتباعه من امثال (ماييه) Meillet و (بالي) Bally و (فندريس) Vendreyes وغيرهم في دراسة علم اللغويات على وفق منهج وصفي لا تاريخي مهتمين بذلك في دراسة الصوتيات، والاشتقاق، والتراكيب، أكثر من اهتمامهم بالبحث عن أصل الكلمات ومعانيها، إذ يبدأ الاهتمام باللغات الأدبية المكتوبة يبرز، وتبرز معه معطيات فرع جديد من فروع الدراسات اللغوية، وهو علم الجغرافية اللغوية، الذي بدأ يؤتي ثماره عندما ظهرت الأطالس اللغوية العديدة التي

(٢٦) نفسه : ص٢٤٢ .

(٢٧) الكلمة مستعارة من اليونان Sema بمعنى العلامة أو الرمز أو الايجار.ويقال فيها Semanticsاو Semasiology او Sematic . ويهتم السيمائيون بدراسة العلاقة بين حروف الكلمة ودلالتها من أجل حل الاشكالات التي تحيط بوضع الكلمة، وإنهم يدرسون أيضاً حياة العلاقات أو الإشارات أو الرموز داخل المجتمع دون تمييز بين ماهو لغوي عن غيره ، فيدرسون التقاليد باعتبارها علامات وكل الاشارات ... الخ . ومن هنا عدّ بعض الباحثين علم السيمية جزءاً من علم النفس الاجتماعي، بينما اكدّ آخرون امتزاجه وتداخله مع علم اللغة . وهو الصحيح عندنا .
انظر : I. A. Rechards and C. K. Ogden The Meaninf of Meaning. - London 1946
و .السيمية: المرحوم عباس محمد العقاد . مجلة المجمع اللغوي في القاهرة ١٩٥٩ ، جـ ٩/ص١٤ وما بعدها.

تعطي صورة تكاد أن تكون شاملة لتوزيع اللهجات المختلفة التي « نفّذت على أسس بحوث ميدانية دقيقة لا على أساس عموميات غامضة »[٢٨].

وظهرت أيضاً نظرية الصوتيات التي تفسّر اللغة وظيفياً على أساس التركيب الصوتي لها، وتتعرض لسلسلة الصوتيات المتناقضة في كل لغة، وتنتهي إلى دراسة اللغة على وفق منظور علمي صحيح روّجت له حلقة براغ وأتباعها، إذ أن اللغة تنشأ وتتطور وحدة متكاملة لا سلسلة من التطورات الفردية التي لا رابط بينها.

«وقد تولى (جاكوبسون) في إطار حلقة براغ تنمية الاتجاه البنائي في دراسة الصوتيات، مشيراً إلى أنه لا بدّ أن يقوم على منهج متكامل غير منعزل إذ أن كل حدث صوتي يعالج على أنه وحدة جزئية تنتظم مع وحدات أخرى في مستويات مختلفة، ومن هنا فإن مبدأ الصوتيات التاريخية الأول هو أن كل تعديل لا بد من تحليله في إطار النظام الداخلي الذي تم فيه، فلا يمكن تصور أي تغيير صوتي مع إغفال دوره في النظام اللغوي »[٢٩]. ومن هنا أيضاً يمكن وضع خصائص لغة ما – لا على أساس الدور الذي تقوم به الحبال الصوتية او سقف الحلق – وإنما على أساس التقابلات بين الأصوات التي تميز الكلمات بعضها من بعض، فكل صوت في لغة ما يدرس على أنه مجموعة من الملامح التي تميزه عن بقية أصوات اللغة وتضعه في مكانه من جداول القيم الخلافية في علاقاته بها، وبهذا تصبح بنية الأصوات هي محور الدراسة لا طريقة إنتاجها بصفة خاصة.

وظهرت أيضاً المدرسة الأمريكية أو مدرسة (الانثروبولوجيين) ومن أشهر رجال هذه المدرسة (أدوارد سابير) E. Sapir (١٨٨٤–١٩٤٩) و (بلومفيلد)

---

(٢٨) لغات البشر : ص١١.

(٢٩) نظرية البنائية في النقد الأدبي . د. صلاح فضل ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٩١ .

Bloomfield (١٨٨٧-١٩٤٩) وغيرهما كثيرون[٣٠].

ولذلك رفض التعامل مع المعطيات اللغوية التي لا تخضع للملاحظة المباشرة. وقد بنى تفكيره هذا على نظريات مفادها أن اللغة سلوك مادي وهي لهذا سلوك يجب أن يخضع للقياس المادي وكأنه قد تأثر في ذلك بالعلماء النفسيين السلوكيين من أمثال J. B. Watson مبتدع علم النفس السلوكي، ونتيجة ذلك أصبح الحدث اللساني عند بلومفيلد عبارة عن سلوك يتمثل في رد فعل على مثير خارجي.

وقد كان (سابير) اختصاصياً كبيراً في اللغات الهندية الأوربية، وقد نشر مؤلفات هامة في علم اللغة، وأشهر كتبه (اللغة) عام (١٩٢١) الذي وضع فيه نظرية تحاول التدليل على أن نظرة الانسان إلى العالم الخارجي ترتبط بلغته، وقد أتم تلميذه (بنجامين لي فورف) بعده هذه النظرية، واصبحت تعرف بـ (فرضية سابير - فورف)[٣١] (Sapir-Whorf Hypothesis).

ومن أفكار هذه الفرضية أن اللغة هي التي تفرض على المجموعة البشرية رؤيتها للعالم وأنها - أي اللغة - تؤثر في عادات المتحدثين بها « فاللغة التي اعتاد الانسان التحدث بها تؤثر تأثيراً مباشراً في طريقة تفكيره وسلوكه »[٣٢].

وان الفروق اللغوية تعود إلى البنية العقلية المختلفة لدى الأفراد والجماعات، فقد لاحظ (سابير) في إحدى قبائل امريكا وفي مدينة (كاليفورنيا) ان الرجال والنساء يستعملون أشكالاً نحوية ومعجمية متميزة، بما يتفق وعقليات هذه

---

(٣٠) منهم : ف . بواس Boas (١٨٥٨- ١٩٤٢) صاحب المناهج الوصفية للغات ، الذي قدّم فرضيات تتعلق بالعلاقات بين اللغة والمجموع او السلالة التي استعملت او تستعمل هذه اللغة ، وقام بجهود كبيرة في تسجيل الاشكال اللغوية للغات الهنود الحمر التي قاربت على الانقراض .

انظر F. Boas Hand Book of American Indian Languages1907 - 1911

ومنهم ايضاً : هاريس Hairis . وفريز Fries . وهوكتHoclcet .

(٣١) انظر البنائية في اللسانيات : ١٠٠-١٠١ .

(٣٢) لغات البشر : ١٢ . انظر L. Hlelmslev and H.J Uldalle. Outline of Glossematics. Copennagen 1957. note 4

المجموعات[٣٣].

أما (بلومفيلد) فقد نشر عام (١٩٣٣) كتاباً موسوماً بـ (اللغة) طرح فيه أسس لسانيات تقوم على المنطق السلوكي المتمثل في كون اللغة قائمة على الدوافع وردود الأفعال، وهذا المنطق جعل (بلومفيلد) لا يعتبر في اللغة إلاّ مظهرها الحسي، ولعل أبرز ما يعنينا من معطيات المدرسة الأمريكية ظهور ما يسمّى بـ (مبدأ الشيوع اللغوي) الذي يقرر أصحابه «إنّ اللغة الصحيحة هي التي يتحدثها الناس، لا اللغة التي يعتقد شخص آخر أنه يتحتم عليهم أن يتحدثوها، فشيوع الاستعمال له قدسية تتضاءل بجانبها قوانين النحويين، وإنّ كلّ تجديد وتطوير في اللغة يجب تشجيعه إلى اقصى درجة، وانّ لغة العامة واللهجات المحلية لها الأهمية العملية نفسها التي تتمتع بها اللغة الفصحى، وعلى هذا الأساس ينبغي اعتبار اللغات على مستوى واحد بصرف النظر عن انتشارها وعما أسهم به المتحدثون بها من أعمال في سبيل تقدم الحضارة البشرية»[٣٤]. وغير ذلك من النتائج الجانبية لهذا المفهوم الذي لا يتفق في كثير من أبعاده مع المنطق العلمي الذي يفترض الفصل بين النشاط الفردي، أعني : الكلام، وبين النشاط الاجتماعي،أعني،اللغة.

فاللغة هي التي تحمل النتاج الحضاري للأمة، وتعكس كثيراً من عاداتها وأعرافها، وتقاليدها، وهي الأقدر على البقاء لما تملكه من نظام يمكن من خلاله رصد أو تقويم أي انحراف لغوي، مما يبقي على نقاء اللغة، ويوسّع دائرتها، ويجعلها قابلة لأن تمنح معطيات الجماعة الناطقة بها إلى جماعات بشرية أخرى، وأن تنقل إليها نتاج الآخرين، وعلى هذا الأساس فإن دعوة علم اللغة الحديث الى دراسة اللغة المحكية يجب ألا تفسّر على أنها دعوة لتكريس تلك اللغة لغةً أدبية، بل هدفه التعرف إلى مختلف خصائصها وتراكيبها، كظواهر لغوية قائمة، وليس في هذا الاتجاه العلمي أي تجاوب مع الدعوات إلى اعتناق لغة العامة أو جعلها بديلاً عن اللغة الفصحى . ولا يتعدّى الأمر أكثر من دراسة تلك الوسائل التواصلية دراسة منهجية بالمستوى نفسه الذي تدرس به اللغة الأدبية، ولهذا «يقع دعاة العامة في خطأ كبير حين يتذرعون ويستشهدون بعلم اللغة ودعوته إلى دراسة العامية، فهذا

---

(٣٣) انظر : لغات البشر ص٥٦. واللغة والمجتمع . د. وافي ، ص١٨ .

(٣٤) لغات البشر : ص١٢.

العلم إنّما يدعو الى دراسة لغات محكية أو لهجات دونما اشارة – ولو بسيطة – إلى ضرورة إحلال هذه العاميات أو اللهجات محل الفصحى، التي لها مجالاتها في الكتابة والأدب وغير ذلك من الحالات التي فيها تدوّن اللغة »[٣٥].

وفي القرن العشرين أيضاً ظهرت المدرسة اللغوية الماركسية[٣٦]،التي تتبع تعاليم (نيكولاي مار) الذي قدّم تحليلاً تعرض فيه الى أنّ اللغة بنية اجتماعية فوقية، ومن هنا فإنه يرفض الحديث عن التطور اللغوي بعيداً عن القفزات الجدلية للتغيرات اللغوية، فنتائج هذه القفزات اللغوية والنظريات المتعلقة باللغة، والتطور اللغوي، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار خطاً متوازياً للتتابع في التكوين الاجتماعي والاقتصادي، وما يلابس هذا التكوين الاجتماعي والاقتصادي من متغيرات تؤثر تأثيراً حاسماً وسريعاً في اللغة، فبعد تفجير الجماعة الناطقة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً يمكن في رأيه ان نضع ترتيباً جديداً للغة . ومن هنا فإن التغيرات التي تقع في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي تقتضي أن يزول البناء اللغوي القديم أو يتغير تغيراً جذرياً. فاللغة، على هذا الأساس، ظاهرة اجتماعية طبقية »[٣٧].

وقد نقض (ستالين) بعد ذلك آراء (مار)، ورأى[٣٨] أن اللغة ليست نتاج فترة زمنية محددة، وإنما هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع، والبناء السفلي لعدة قرون، فهي ليست من صنع طبقة معينة بل هي صنع كل المجتمع، كلّ طبقاته، إنها نتاج جهود مئات الأجيال، وقد وجدت ليس لسدّ حاجات طبقة خاصة واحدة، وانما لسد حاجات كل المجتمع، بكل طبقاته. ولهذا السبب وُضعت لغة وحيدة للمجتمع، عامة لكل أفراده، لغة مشتركة لكل الشعب، ودورها الوظيفي. إنها اداة للتواصل بين

---

(٣٥) اللغة العربية في اطارها الاجتماعي : ص٣٥ .

(٣٦) اسسها (رومان جاكبسون) سنة (١٩١٥) ، وقد ادّى جاكبسون هذا دوراً كبيراً في بلورة الفكر اللساني في موسكو .

(٣٧) لغات البشر : بتصرف ، ص١٢ .

(٣٨) انظر : الماركسية وقضايا علم اللغة . ستالين . تر . : حنا عبود دمشق ١٩٥٠ ، ص ٩ وما بعدها .

أبناء الأمة الواحدة، أو الشعب الواحد لا أداة في خدمة طبقة على حساب الطبقات الأخرى، وهذا في الحقيقة ما يفسر لنا لماذا يمكن أن تخدم لغة من اللغات، بشكل متساوٍ كلاً من النظام المتحضر القديم، والنظام الناهض الجديد، دون أن تأخذ بعين الاعتبار وضعهم الطبقي، ويكفي أن تميّز وتساند هذه الفئة الاجتماعية على حساب الفئات الاجتماعية الاخرى و حتى تفقد صفتها في كونها وسيلة للتعامل بين سكان المجتمع الواحد، وتصبح لغة خاصة لفئة معينة من المجتمع، وتأخذ بالانحطاط، وتحكم على نفسها بالزوال.

ويضرب (ستالين) مثلا لتأكيد رأيه إذ يرى أن المجتمع الروسي واللغة الروسية قد عرفا اوائل القرن العشرين نظاماً جديداً في الحياة، استبدلت في ضوئه المؤسسات السياسية والحقوقية وغيرهما من المؤسسات بمؤسسات جديدة، بيد أنه على الرغم من ذلك ظلت اللغة الروسية، من حيث الأساس، كما كانت قبل ثورة اكتوبر، ويمكن القول الى حدّ أنّ معجم اللغة الروسية قد تغيّر، بمعنى انه اغتنى بعدد ملحوظ من المفردات والتعابير الجديدة التي ظهرت متطابقة مع النظام الجديد والثقافة والعلائق الاجتماعية الجديدة، ومتطابقة أيضاً مع تطور العلم، وتعدد أوجه نشاطه، وقد وضّح ذلك في تغيير معاني كثير من المفردات، واكتسابها دلالات جديدة، وحذف مفردات أخرى من المعجم وغير ذلك من مظاهر التغير . أما فيما يتعلق بالارومة الاساسية للمفردات والنظام القواعدي للغة الروسية وهما يؤلفان أساس اللغة فقد ظلاّ بعد زوال البنائين الاجتماعي والسياسي القديمين، بعيدين عن الزوال، وعن أن يستبدلا بأرومة جديدة او أن يخضعا لأية تغيرات حاسمة بل بقيا أساساً للغة الروسية الحديثة.

أما ما يخص التطور اللاحق من لغة العشيرة إلى لغة القبائل، ومن لغات القبائل إلى لغات القوميات، ومن لغات القوميات الى اللغات الوطنية، ففي كل مكان، وفي كل مراحل التطور، كانت اللغة بوصفها أداة للتواصل بين سكان المجتمع لغة واحدة مشتركة لذلك المجتمع تخدم أفراده على قدم المساواة بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي، ويخبرنا التاريخ أن لغات هذه القبائل والقوميات لم تكن لغات طبقية، بل لغات عامة لكل القبيلة، أو لكل القومية، ويفهمها كلّ السكان، ومن الطبيعي أن يرافق هذه اللغات، جنباً إلى جنب لهجات ولغات إقليمية، ورطانات وعاميات، بيد أنها مع هذا كله تبقى خاضعة وتابعة للغة الواحدة المشتركة للقبيلة

أو القومية .

ولا يمكن، على هذا الأساس، لأي انسان أن ينكر وجود لغة مشتركة لكل الشعب، وينكر ضرورة هذا الوجود بالاستناد إلى حجج عابثة واهية. والناظر لتاريخ اللغة العربية عبر امتداد زمانها الطويل، يجد أنها كانت واحدة وما زالت واحدة، على الرغم من تعدد اللهجات، والعاميات التي تعيش على هامشها، ثم تزول أو تنحسر، لأنها لا تملك مقومات اللغة المشتركة التي يفهمها كل الشعب العربي في كل أمصاره وأقطاره. ومن هنا فمن الصواب عندنا ما تراه المدرسة اللغوية الروسية من أن اللغة بوصفها وسيلة التواصل الانساني، كانت وما زالت هي الوسيلة المثلى لكل أعضاء المجتمع الناطق بها. «وان وجود اللهجات والالسن الخاصة لا ينفي – بل يثبت – وجود لغة مشتركة لكل الشعب، وما اللهجات والألسن الأخرى إلا فروع من اللغة تابعة لها »[٣٩].

ومن الخطأ الذي يقترفه بعض الباحثين هو عدم تمييزهم بين اللغة والحضارة، فلا يدركون أن الحضارة تتغير في المضمون مع كل مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع، بينما تبقى اللغة من حيث الأساس هي نفسها خلال مراحل عديدة تخدم على السواء كلاً من الحضارتين القديمة والجديدة.

ومما يهمنا من مدارس القرن العشرين اللغوية حلقة براغ[٤٠]، ويعنينا من هذه الحلقة أو المدرسة نظرية أصحابها المعروفة بـ (نظرية التقابل اللغوي) Contrastive Language القائلة:«إنّ اللغات يؤثر بعضها في بعض عن طريق الاتصال الجغرافي والتاريخي، مما يجعلها تتطور معاً بطرق متشابهة[٤١]» وسنرى في موضع لاحق اقتراب هذه النظرية من الحقيقة العلمية. ولا يمكن لنا ونحن نؤرّخ لنشأة علم اللغة الاجتماعي وتطوره إلاّ نذكر العالم الأنثروبولوجي البولندي (برونزلوف مالينوفسكي) Bronislaw Malinowaki (١٨٨٤–١٩٤٢) فلهذا الرجل فضل كبير في لفت الأنظار عام (١٩٣٠) إلى مفهوم جديد في اللغة وهو ضرورة البحث عن نظرية تجمع اللغة والمجتمع نظرية (لغوية اثنوغرافية) – كما يصطلح

---

(٣٩) الماركسية وقضايا علم اللغة : ص٢٧ .

(٤٠) اسسها عام ١٩٢٦ (جاكبسون) بمساعدة (تروبتسكوي) .

(٤١) لغات البشر : ص١٢ .

عليها الأعاجم –فقد ادرك (مالينوفسكي) عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي اصطلح عليها بالمجتمعات (البدائية) Premitive أن دراسته هذه لن تصحَّ دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع، وقرر بعد قيامه بهذه الدراسات في تلك المجتمعات « ان اللغة لم تكن وسيلة فقط للتفاهم والتواصل، فهي حلقة في سلسلة النشاط الانساني المنتظم، وإنها جزء من السلوك الانساني، وهي ضرب من العمل، وليست اداة عاكسة للفكر، وهو يرى أن العمل الانساني هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية »[٤٢].

وتبرز نظريته في الصلة بين العمل واللغة أكثر حين يرى « أن مواقف العمل هي التي تعمل على تنويع اللغة، وهو يسجّل في دراساته مختلف قبائل استراليا وجزر الهند الغربية أنّ للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزراعيين، والألفاظ تدور في سهولة وخفة مع العمل اليسير، وتعقد بـتعقد العمل»[٤٣].

وفي ميدان العوائق اللغوية الاجتماعية، وهو ميدان مهم من ميادين علم اللغة الاجتماعي، ظهر العالم الاجتماعي واللساني الانجليزي (بازيل برنشتاين) الذي أدار أكثر بحوثه في (الإخفاق المدرسي وأسبابه) ورأى أن التلاميذ المنحدرين من الأوساط الشعبية يتكبدون عائقاً خاصاً يعود إلى لغتهم، فالنمط التعبيري الممارس في المدرسة لا يتلاءم مع النمط التعبيري الذي يسيطر في العائلات المحرومة من الثقافة، ورأى (برنشتاين) وجود طريقتين رئيسيتين للكلام وضّحهما بالتجربة التي عرض فيها صوراً متحركة على مجموعة من أطفال المدارس مختلفي الطبقات الاجتماعية، فوجد أن بعضهم يحكي بصوتٍ عارفٍ بتلك الرسوم المتحركة، أما انسان بالغ يتابع بدوره حكاية تلك الصور في الكتاب، وان بعضهم لا يعبّر إلا عن عدد قليل مما تشير وتتصف به تلك الرسوم من معاني وأفكار ودلالات، وذلك بسبب تصورهم ان المخاطب يعرف ما يقولون، وهذه المحاولة التي لا تشير إلا إلى مجموعة قليلة من المعاني التي تحكيها الصور تسمّى بـ (القانون الناقص).

أما الأطفال الآخرون الذين يصفون المضمون الكامل لها، ولا يتركون شاردة

---

(٤٢) اللغة والمجتمع . رأي ومنهج . د . محمود السعران ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص١١ . دراسات في اللغة : د . ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦١ ، ص١٩٣ .

(٤٣) المصدران السابقان ، ص١٢ –١٣ و ١٩٣ .

أو واردة فيها وكأنما كان المخاطب لا يعرف شيئاً عن مضمون ما تعبّر عنه تلك الرسوم فقد سمى (برنشتاين) عملهم هذا بـ (القانون المهيأ).

ويظن (برنشتاين) إن الاطفال المنحدرين من الاوساط المحرومة ثقافياً ومادياً ليس لهم سوى استعمال (القانون الناقص)، بينما الأطفال الذين ينتمون إلى الطبقات العالية فيستعملون القانونين بسهولة.

ولا يؤكّد (برنشتاين) أنّ كل طبقة اجتماعية تملك لغة خاصة فحسب وإنما تتنوع العلامة اللغوية أحياناً حسب العائلة، وخاصة فيما تعطيه من اهتمام او لا تعطيه في تربية الأطفال. ويرى في هذا المقام أن التأثر متبادل بين شكل الخطاب المتعلم، والكلام المستعمل وسيلة أساسية من وسائل الفرد في استنباط القواعد الاجتماعية، ولما كانت هذه القواعد تتنوع من وسط إلى أخر نجد تمايزاً كبيراً يقع بين الأطفال حتى قبل دخولهم المدرسة.

وفي الطبقات الراقية يكون الخطاب في غاية الأهمية، إذ أن الطفل يعتاد بسهولة على معرفة معاني الكلمات، وإعادة صياغة التراكيب الخاطئة.

وابتداءً من عام (١٩٦٤)، اعطيت هذه المسلمة اللغوية في الولايات المتحدة الامريكية برنامجاً تربوياً موجهاً خاصة إلى الأطفال السود، مما أكّد تخلّف هؤلاء الاطفال عن أقرانهم لغوياً [٤٤].

وهكذا نجد أن دراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية، واتصال علم اللغة بعلوم كثيرة كالجغرافية،وعلم السلالات،وعلم النفس والإحصاء، والفيزياء، وغيرها، قد أدّى إلى نشأة فروع لغوية جديدة لعل أحدثها وأوسعها هو علم اللغة الاجتماعي.

ومن المفيد أن نذكر هنا انه في منتصف القرن الماضي عرفت مصطلحات عديدة منها على سبيل المثال مصطلحات[٤٥] .

– علم اللغة الانثروبولوجي Antropological Linguistics .

---

(٤٤) انظر : الاسس النفسية للتكامل الاجتماعي . دراسة ارتقائية تحليلية . د . محمد خير الحلواني . الموقف الادبي ٨٦ ، دمشق حزيران .

(٤٥) انظر : اصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية . د . محمود فهمي حجازي ، بيروت ١٩٧٢، ص١٥١–١٨٠ .

كثيرة، ومنها على سبيل المثال، إغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة، ثم يتطلع هذا العلم من وراء ذلك إلى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد أوسع، ويحاول أن يبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها، ويتمثل هذا البعد الأوسع في النظر إلى العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمالنا اللغة، وأبرزها التشكيل الاجتماعي، فإن المتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم، ومركزه، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه أرَسمي هو أم غير ذلك تؤثر – كما سنرى – في استعمالنا اللغة تأثيراً معيناً.

ومن الاعتبارات العملية نذكر ايضاً، المشكلات اللغوية في المجتمعات النامية إذ تعيش أكثر هذه المجتمعات على الصعيد الخارجي داخل تعقيدات العصر الزاخر بالأحداث، والتحديات الاستعمارية، والصراعات الفكرية التي تحاول أن تطمس شخصية الشعوب الناهضة وايقاف مسيرتها نحو الرقي والاستقلال الفكري والسياسي، وذلك بوأد لغاتها وصولاً إلى مسخ تراثها وتقاليدها، باعتبار أنّ اللغة محور حياة أصحابها اجتماعياً، وفكرياً، ووجدانياً.

أما على الصعيد الداخلي، فإن هذه المجتمعات تعيش أحد مظهرين لغويين، هما : إما ازدواجية لغوية (Diaglossia) .

وإما ثنائية لغوية (Bilingualism) .

أما الازدواجية اللغوية فإنها قائمة بين اللغة الأم، أعني اللغة القومية وبين رموز خطاب طارىء، أو مصنوع، أو دخيل، ومع علمنا بأن وجود أكثر من (لهجة) أو (لغة) أو (أسلوب) في الأداء اللغوي للأمة أو الشعب المعنيين هي مسألة طبيعية عندما تكون هذه النوعيات أو (اللهجات والأساليب) تمثّل ظاهرة نفسية متصلة ومترابطةفي كيان لغوي واحد كماهو الحال في اللغة الدارجة او العامية في العربية أو الانكليزية مثلاِ واللغة الأدبية أو ما يسمى بالقياسية (Standard)، وإن ظاهرة الازدواجية ظاهرة طبيعية جاءت نتيجة لموقف اجتماعي خاص هو غاية في التعقيد أعني به ظاهرة التطور اللغـــوي (Evolution)، وإن لهذه الازدواجية اللغوية مردوداتها الايجابية المتمثّلة بالمحافظة على نوعية عليا موحَّدة وموحِّدة داخل المجتمع اللغوي والمحافظة على تراث حضاري مشترك مفهوم بدرجة لا بأس بها، يجمع الأجيال المتعاقبة، وإن لها أيضاً مردودات سلبية تتمثل في العبء الذهني الزائد لنظامين أو أنظمة لغوية متباعدة داخل اللغة الواحدة زيادة على البطؤ في عملية التفكير لدى الأفراد والجماعات بسبب كون العمل الفكري الجاد للأمة كلها

إنما يجري، ويجب أن يجري – باللغة الفصحى التي تمثل ظاهرة نفسية أقل عمقاً من العامية، أقول على الرغم من علمنا بهذا كلّه فإنا نرى ضرورة حسم الصراع اللغوي هذا لصالح اللغة القومية.

والعمل الجاد على تضييق الهوة بين رموز الخطاب داخل المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة، وذلك بتقريب العاميات واللهجات إلى أبعد الحدود من اللغة المشتركة، ولعل وسائل الاعلام في المجتمع المعين جديرة بهذا الفعل البناء.

أما (الثنائية اللغوية)(٤) فهي ظاهرة ذات أبعاد متعددة كُلٌّ بعد منها متغير، وترتبط درجة التغير بالمكان الذي يوجد فيه الشخص الثنائي اللغة، وبمصدر الثنائية اللغوية، وبتفوق اللغات من حيث المرتبة، وبوظيفة اللغات الاجتماعية، وتنعكس تغيرات هذه الأبعاد على الفرد واللغة والمجتمع معاً.

وبغض النظر عن أسباب هذه الثنائية اللغوية(٥)، فإننا نرى ضرورة أن تعمل الشعوب والأمم على الاستقلال اللغوي كما هي تعمل على الاستقلال السياسي والاقتصادي، لأننا لا يمكن أن نتصور شخصية قومية لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب له مقوماته ومعطياته الحضارية وله إمكانية التفوق العلمي والأدبي في ظل ثنائية لغوية، باعتبار أنّ التعدد اللغوي يتعارض والنهضة الحضارية على الرغم من أنّ أمر النهوض الحضاري لأمة من الأمم لا يتعلق باللغة الأم نفسها من حيث كونها لغة، وإنما يتعلّق الأمر بأهل تلك اللغة، ومدى فعلهم الحضاري ونفوذهم العلمي، والأدبي، والسياسي، ومن هنا لا خطر على أمة عنيت بلغتها القومية، لأن هذه العناية هي مفتاح الاستقلال السياسي والحضاري، والمنفذ المفضي إلى الحرية، والتفريط في مثل هذه الحقيقة يعني ضرباً من الانحلال والضياع، وخلق الشخصية القلقة المسحوقة التي يمكن أنْ ترهنَ نفسها عند كلّ غريب، وتسلك ما

---

(٤) يقصد بثنائية اللغة Bilinguisme ، وجود لغتين على مستوى واحد عند الأفراد أو عند مجتمع معين ، ويبدو أنّ هناك خلطاً لدى بعـــض الكتاب بين مايسمى بثنائيـــة الـــلغة والـ (diglossia) الذي يجب أن يترجم بـ (الازدواج اللغوي)، اذ يُستعمل المصطلحان مترادفين، وذلك غير صحيح فمشكلة ثنائية اللغة هي غير ازدواجية اللغة، وإن كان كلاهما داخلاً ضمن معالجات علم اللغة الاجتماعي .

(٥) انظر تفاصيل هذه الاسباب ونتائجها في : الالسنية (علم اللغة الحديث) : ص١٦٥ وما بعدها .

يُشار عليها من سبيل دون وعي أو حضور.

زيادة على ذلك فإن الثنائية اللغوية مسؤولة عن الجمود الحضاري للمناطق التي توجد فيها، ويرى علماء النفس أنّ الثنائية اللغوية المبكرة تثير بعض الاضطرابات اللغوية لدى الأفراد، ويزيد هؤلاء قولهم أن الثنائية اللغوية قد تُنسي الفرد نهائياً لغته الأم كما هو الحال في أغلب العائلات المهاجرة[٦].

ولهذا كله يعمل علماء اللغة عموماً، وعلماء اللغة الاجتماعيون على وجه الخصوص من أجل تأكيد هذه الحقائق،ووضع الحلول الكفيلة للمشكلات اللغوية في المجتمعات النامية،بما يعزز من مكانة اللغة القومية الواحدة،بالاستعانة بالمؤسسات التعليمية والثقافية على اختلافها وبوسائل الاعلام المرئية والمسموعة وغيرها.

وتنبع أهمية علم اللغة الاجتماعي من دوره في حلّ كثير من مشكلات التعليم، والعلاقات الاجتماعية في المجتمعات المتقدمة، لما للغة من دور فاعل في الإفصاح عن العلاقات الاجتماعية والثقافية للمجتمع، بل لعلّها الوسيلة الوحيدة للإفصاح عن هذه القيم وتلك العلاقات زيادة على كونها القناة التي يتّعلم بها الأفراد معارفهم ويبنون بواسطتها شخصياتهم، ويحققون نجاحاتهم العلمية والعملية.

ولهذا يصرّ علماء اللغة الاجتماعيون على دراسة الظواهر اللغوية ضمن إطار اجتماعي كليّ. ولقد أجريت دراسات على مناطق اجتماعية تعيش (ثنائية لغوية) انتهت إلى اكتشاف العوامل التي تؤثر على تحوّل الشخص من لغة إلى لغة أخرى، وقداعتمدت تلك الدراسات على وسائل استبيان وإحصاء، من اجل الوصول إلى العوامل الاجتماعية الكلية التي لها تأثير على اختيار الناس لغةً ما، ومن ثم الوصول الى ايجاد (نظرية) تصلح لدراسة أنواع الأحداث الكلامية[٧].

وتبرز أهمية علم الاجتماع فيما تبرز في دوره الفاعل في دراسة وسائل الاتصال المختلفة، على أساس أنّ الاتصال هو الوسيلة الهامة التي تنقل بها الحضارة من جيل إلى جيل، وإنّ أية حضارة لا تفصح عن نفسها إلا بطرق الاتصال فيها، ومن ثم فإن دراسة هذه الطرق في مجتمع ما توقفنا على ابعاد

---

(٦) انظر : اللغة والمجتمع : د . وافي ص١٣٣ ، والألسنية (علم اللغة الحديث) : ص١٦٧.

(٧) انظر :

-Social Anthropology and Language: p. 110

- Essai d'nue Theorie des Language : p. 32

كيانه الحضاري، بما يؤكدّ مقولة بعض العلماء «إن اللغة هي الحضارة، وإن الحضارة هي اللغة»[٩].

فالحضارة تكون والحال هـذه بنية (Structure)وان الاتصال هو العمليات (Processes) التي تعيش فيها هذه البنية . فاللغة تكشف قيم الحضارة، وتدل على أنماط العلاقات الانسانية، وتحمل أيضاً طوابع الحياة التي يحياها الناطقون.

ويظهر ذلك – فيما يظهر – بين نوعية لغوية وأخرى.

وسنكشف عبر الفصول اللاحقة ما لهذا العلم من أهمية كبرى في الكشف عن العلاقات الاجتماعية بين اللغة كإنتاج حضاري وبين المجتمع نفسه، وكذلك وظيفته في البحث عن الفوارق اللغوية بسبب الحواجز الجغرافية، وصعوبات التنقل التي تؤدي إلى عزل الجماعات بعضها عن بعض وإلى تباين لغوي.

ولا تقتصر مهمة هذا العلم على تلك النواحي فحسب، وإنما تتعداها إلى البحث عن أهم الفروع اللغوية الأخرى التي تَمُتُّ بصلة وطيدة إلى علم اللغة واللسانيات بما يؤكدّ حيوية هذا العلم وأثره في رقي علم اللسانيات بشكل عام.

إن علم اللغة الاجتماعي اليوم هو عصب الدراسات اللغوية وصُلْبها وإن الدراسات اللغوية المستقبلية ستتخذ كما يأمل بعض الباحثين المعاصرين « في معظمها طابعاً لغوياً اجتماعياً، وقد كتب (بالي) Baly السويسري سنة (١٩١٣) قائلاً :«إنّ مشكلة علم اللغة المستقبلية ستكون الدراسة التجريبية لوظيفة الكلام الاجتماعية »[١٠].

فقد أصبحت دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة اليوم مسألة هامة تتناسب مع النموّ الفجائي للغة في مجالها وقوتها[١١].

إن الفصول اللاحقة ستحدد ملامح هذا العلم في الدرس اللغوي عند العرب، وتبرز معطيات اللغويين العرب في كلّ ما يهتم به هذا العلم وما استطاع أصحابه اليوم من تنظيره وتأصيله.

---

(٩) - Social Anthropology and Language : p. 140
M. A. k. Halliday , Grammar , Society and Noun , London . H. K. Lewis University College , London 1967 , p. 5

(١٠) مقدمة لدراسة فقه اللغة : ص٢٨ – ٢٩ .

(١١) اللغة في المجتمع : م. م. لويس ، تر. : د . تمام حسّان ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص٢٨١.

الفصل الثاني

اللغـــة

نشأتها، ووظيفتها، وطبيعتها الاجتماعية

المبحث الأول

نشأتها ووظيفتها

من المعروف أنّ لأكثر اللغويين، قدماء ومحدثين رأياً في مسألة البحث في نشأة اللغة، يتلخص في أنّ مثل هذا البحث غيرُ مجد، باعتباره حدثاً من أحداث ما قبل التاريخ، واذا كان الانسان لم يجمع في يده الآن أطراف التاريخ جميعها، فأولى به أن يُفرغ جهده فيما ينفعه ويجد له من الدلائل ما يفسّره، فأما محاولة الضرب في المجهول، كما هو الحال في البحث عن نشأة اللغة الاولى فلن تصل بنا الى شيء سوى التخمين والافتراض والنتائج التي لا تصيب الحقيقة كما يسلم بها الجميع . وهو ما ينبغي أن تتنزه عنه البحوث اللغوية التي يفترض فيها أن تتشبث بالموضوعية، وتتجه إلى وصف الظواهر الواقعية في أغلب الأحيان[1]. ولهذا يرى أصحاب هذه النظرة ان قضية نشأة اللغة فيما قبل التاريخ قضية تهم علم الانسان (الانثروبولوجيا) أو (علم الاجتماع)، أو علم الأرض (الجيولوجيا) اكثر مما تهمّ اللغويين.

ولكننا نرى أن من المفيد لبيان اهمية اللغة، وقدم مشكلتها وارتباطها بالانسان، بوصفها حادثة عنه، نرددَ ذلك السؤال الأبدي التقليدي : كيف نطق الانسان الأول؟

ذلك السؤال الذي تضاربت في الاجابة عنه الآراء وتعددت المذاهب، ما بين قائل إن اللغة (إلهام رباني) أو أنها (مواضعة واصطلاح اجتماعي) أو أنها (غريزة كلامية) او (محاكاة لأصوات الطبيعة)[2].

إنّ وقوفنا عند هذه الآراء « امر لا يخلو من فائدة، كما انه ضرورة منهجية لا ينبغي تجاهلها» لمن أراد أن يبين مدى ارتباط اللغة بالانسان، وفعلها في المجتمع الناطق بها.

ولقد كان الاغريق أول من تناول جوهر اللغة بالبحث والدراسة، وبيّنوا الفروق

---

(١) انظر : دراسات في فقه اللغة : د . صبحي الصالح . بيروت ١٩٧٠ ص٢٢–٢٣ .

(٢) انظر : نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والأجانب . د . هادي نهر مجلة الجامعة المستنصرية العدد الرابع ١٣٩٩ –١٩٧٩ ص٧ وما بعدها .

بين جوهرها، ومظهرها الخارجي الذي يمكن ملاحظته، فحين كتب (أفلاطون) عام (٣٦٦ ق.م.) محاولته التي سماها Le Cratyle (قراطيلوس)، صارت بمثابة تلخيص لأهم الآراء الأولى الباحثة عن علاقة اللفظ بالمعنى، ولقد اختار (افلاطون) التسمية نسبة لأحد تلاميذه (هيراقليطس) وهو (كراتيل)، الذي يرى أن لا وجود لقانون طبيعي دائم، فكل شيء متغير. وفي المحاورة يزعم (كراتيل) أن الاسماء تستمد من طبيعة الاشياء، فهناك في الطبيعة اسم صحيح لكل كائن في الحياة، واللفظ الذي يطلق على الماهية كان لا يصدر الا بعد اتفاق، ففي الطبيعة ثمة طريق للتدليل على المسميات وذلك هو الطريق الصحيح لكل الناس[٣].

أما محاورة (هرموجين – أحد تلاميذ (سقراط) – فإنه يرى أن الاسماء علامات تنشأ عن المواضعة، وينفي أن يكون في طبائع الأشياء ما يحتم اختيار اسم دون غيره، ويضرب المثل بقدرة السيد على تغيير اسم عبده إلى اسم جديد، ومع ذلك لا تفقد الدلالات التي في ذهن السيد شيئاً من وضوحها، ويدخل (سقراط) ليوفق بين المتحاورين مقرراً : إن مجموعة الأسماء كانت مواضعة عامة، أوحدثت بمحض الصدفة، كما أن التكرار، وطول الممارسة هما محدثا الألفة في ذهن الانسان والالفاظ، حتى لتختلط الأسماء أحياناً بالأشياء الخالدة[٤].

وقد تبنى (أرسطو) مبدأ المواضعة عندما عالج اللغة على أنها رابطة اجتماعية وأن لها معنى اصطلاحياً ناجماً عن اتفاق أو تراض بين البشر.

ويتفق أغلب علماء اللغويات الوصفيين اليوم على هذا المفهوم للغة بوصفها تقليداً اجتماعياً اعتباطياً، وعلى رأس هؤلاء (سوسور)، فهو وإنْ قرّر في احدى مقولاته «إنّ موضوع علم اللغة الصحيح هو اللغة في ذاتها، ومن اجل ذاتها »[٥] فقد أكدّ من جانب آخر « إنّ اللغة اساساً حقيقة اجتماعية» ينبغي دراستها في ضوء علاقتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية »[٦] فاللغة ليست ضرورة للحياة فحسب،

---

(٣) في علم اللغة العام : د . عبد الصبور شاهين . ص ٣ بيروت ١٤٠٠ – ١٩٨٠ ص٨٢ .

(٤) اللغة بين العقل والمغامرة ص ٤٢ ، لغات البشر : ص١٧ .

(٥) الانثوميثولوجيا : ص١٥٥ .

(٦) انظر : علم اللغة العام سوسور ص٢٤ ، وتاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين : ص٩١ ، ولغات البشر : ص٢ .

وانما هي ضرورة للاجتماع لأنها نتاج الجماعات، ومقتضيات العمران، تنشأ في أحضان المجتمع يوم يحسُّ الناس بالحاجة إلى التفاهم والتواصل فيما بينهم « فاللغة – وهي الواقع الاجتماعي – بمعناه الأوفى، تنتج من الاحتكاك الاجتماعي، ولهذا صارت واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات، وقد دانت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعي »[٧] وقد لخّص العالم (اولبرت) وظائف اللغة[٨] بالحقائق التالية :

أولاً : إنّها تجعل للمعارف والأفكار البشرية قيماً اجتماعية.

وثانياً: إنها تحفظ التراث الثقافي، والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل.

وثالثاً: إنّها بوصفها وسيلة لتعلّم الفرد تعينه على تكييف سلوكه وطبعه حتى يتلاءم هذا السلوك وتقاليد المجتمع وأعرافه وسلوكياته في الحياة.

ورابعاً: إنّها تزود الفرد بأدوات التفكير . وما وصل المجتمع البشري البصير إلى ما هو عليه من تحضّر وتقدّم بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته.

وقد كان للعرب في هذا المجال رأي ينّم عن وعي وادراك عميقين للعلاقة الكامنة بين اللغة والمجتمع، فقد عرّف (ابن جني) (ت:٣٩٢ هـ) اللغة بأنها «اصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم »[٩] .

وهذا التعريف الجامع الشامل الموجز يسبق فيه (ابن جني) ما جاء به غيره بمئات السنين، لأنه يعرض فكرة الأصوات اللغوية، سواء كانت نظرتنا إليها أنها غريزية أم مكتسبة، وسواء ألمحنا إنها رموز أم أجزاء من رموز . كما أنّ (ابن جني) يعرض في تعريفه الموجز هذا وظيفة اللغة في المجتمع حين تعبّر عن آراء كل قوم واغراضهم وشؤونهم الحياتية «وذلك (حدّ) يقع تحت النظر المنطقي الذي

---

(٧) اللغة . فندريس . ص٣٥ .

(٨) عنينا هنا بالوظائف التي تباشر الحياة الاجتماعية ، وهناك وظائف أخرى غير التي ذكرها (اولبرت) منها ما يباشر حياة الانسان كالوظائف التعبيرية (أو العاطفية عند بعض الكتاب) والوظائف الجمالية (او الانشائية) ، ومنها وظائف مانحن بصدده ، نسمّاها بعض الكتاب بالوظائف (وَراء ألسنية) ، انظر تفاصيل نلك في : مفاتيح الألسنية : ص ٦٩ وما بعدها ، وانظر ماذكره (اولبرت) في : اللغة في اطارها الإجتماعي ، مصطفى لطفي بيروت ١٩٧٦ ص١٢ .

(٩) الخصائص : ابن جني ، حققه . محمد علي النجار ط٢ بيروت ج١ / ٣٣ .

يفترض (وضعاً) مسبقاً او منطقياً في كلّ نظر لغوي، وهو أيضاً لا يقع تحت إلحاح ضيق فيشدّ حدّه إلى لغة معينة، ولكنّه إطلاق أصيل يذهب إليه، ويجعل من حدّه وعاءً يتّسع لكثير مما أضافه اللغويون من بعد» [١٠].

فالقوم عند (ابن جني) يعني المجتمع، وخاصة أن لفظة المجتمع لم تكن مستعملة في هذا المعنى الذي نعنيه الآن، وانما كان العرب يستعملون القوم للدلالة على المجتمع كما نفهمه في العصر الحديث [١١].

وإشارة (ابن جني) هذه زيادة على أنها تحدّد اتجاهاً علمياً أقرب إلى الواقع اللغوي يؤثر في منهج (ابن جني) في تناول الظواهر اللغوية على مستوياتها المختلفة فإن أي متوسّم بالاهتمام بالدرس اللغوي يقف على أهمية مقولة (ابن جني) في مثل هذا المقام، لأنها تدلّ على أنّ علماء العربية قد لحظوا ملحظاً ضرورياً، وفهموا قانوناً اساساً من قوانين حياة اللغة، ونعني به أنّ اللغة في جوهرها شكل من أشكال السلوك الاجتماعي، ذلك أنها لا تكون إلاّ حيث يكون المجتمع، ومن ثم يمكن فهمها بوصفها ظاهرة اجتماعية مع ما يمكن أنْ يترتب على ذلك من منهج.

وقد قدّم (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) (١٥٠ هـ - ٢٥٦ هـ) في هذا المجال حقائق من علم اللغة الاجتماعي جديرة بالإثبات، حقائق ما يزال الباحثون الاوروبيون يقلّبون احتمالاتها على جميع الوجوه المكنة بعد الجاحظ بأكثر من الف عام . فقد بيّن (الجاحظ) ان ما نسمّيه الكلام عند الإنسان لا يتوقف على مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح او تقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة، فذكر حيوانات شتّى أصواتها تشبه صوت الانسان على نحو يقلّ أو يكثر حتى وصل في النهاية إلى الببغاء ثم السنانير، وفي حديثه عن هذه الأخيرة لا يتردد في إعطاء توجيه اساسه التجربة المباشرة والاستقصاء والإحصاء، يقول « وزعم صاحب المنطق - يعني (ارسطو) - أنّ كل طائر عريض اللسان، فالافصاح بحروف الكلام منه اوجه، ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير ... فاذا صرت للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى احببت

---

(١٠) اللغة بين العقل والمغامرة ص٢٧ .

(١١) انظر : فقه اللغة في الكتب العربية . د. عبده الراجحي بيروت ١٣٩٢ - ١٩٧٩ . ص٧١. وفي اللسان مادة (قوم) : القوم : الجماعة من الرجال والنساء جميعاً ، وقوم كلّ رجل شيعته وعشيرته.

أن تعرف ذلك فتسمّع تجاوب السنانير، وتوّعد بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احص ما تسمعه، وتتبعه، وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما أن كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات، ثم الفتها صارت لغة صالحة الموضوع، متوسطة الحال، واللغات انما تشتد، وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلّته، وعلى قدر مخارجها وخفتها، وسلسها، وتعقدها في أنفسها، كفرق ما بين الزنجي والخوزي. إن الرجل يتنخس في بيع الزنج، وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويحاورهم فلا يتعلّق منهم بطائل » والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك» و « على قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها، والتقصير عنها، ولولا حاجة الناس إلى المعاني، وإلى التعاون والترافد لما احتاجوا إلى الأسماء »[١٢].

فالجاحظ يشترط أن يكون وراء النطق ما يسمّيه (بالحاجات) وهي البواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، وكذلك ما يسمّيه (بالعقول)، وهي القدرات المفكرة المدبّرة التي تستطيع الملاحظة والاستنباط ، وتعمل بدأب على كشف مجاهل الكون، وأخيراً ما يسمّيه (بالاستطاعات)، وهي الإرادة التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة أو الحالة الشعورية القوية المؤقتة فحسب، ولكن كلّما رأى ذلك مناسباً له مرغوباً منه فيه .

ولا عجب – من ثمّة – أن نقرّر في ضوء الحقائق العلمية التي يقررها (الجاحظ) أنه «يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي أعطانا أياها الامريكي (أدوارد سابير في وقتنا المعاصر. فـ (الجاحظ) يرى أن اللغة ليست مخارج الحروف فقط، وإنما هي القدرة الإنسانية الإرادية المفكرة المعبرة في مجتمع، وهو تقريباً ما يستخلص من تعريف (سابير) القائل: «إنّ الافكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية على وجه التغليب والتعميم تصدرها أعضاء النطق بصورة إرادية وذلك باندفاع الهواء خلالها من الداخل إلى

---

(١٢) الحيوان . ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تح . : عبد السلام هارون . بيروت ١٣٨٨ – ١٩٦٩، جـ ٥ ص ٢٨٩ و ٢٠١ .

وانظر : اللسان والانسان مدخل إلى معرفة اللغة . د . حسن ظاظا ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٤٥.

الخارج »[١٣].

ويذكرنا مفهوم الكلام عند (الجاحظ) ايضاً بقول (ياسبرسن) الذي يذكر فيه إن «مهمة الالفاظ هي إشباع الرغبة الاجتماعية عند الإنسان بهذه الوسيلة »[١٤].

بل إن (الجاحظ) يقدّم ملاحظات دقيقة في المقارنة بين الفصائل المختلفة من اللغات فيرى «أنّ لغات البشر تتفاوت صعوبة وسهولة لا في ذاتها فقط، وانّما بالنسبة للغريب الذي يريد أن يتعلمها على الخصوص، فيقول: إن الالفاظ تصعب عليه كلّما ازداد جهله بمعناها الدقيق واستعمالها، وكذلك يزيد من صعوبة اللغة الأجنبية كثرة ألفاظها، وهي أخيراً تتفاوت في الصعوبة بحسب إمكان نطق حروفها بسهولة نطقاً صحيحاً، وضرب مثلاً لذلك بالفرق بين سرعة تعلّم تجار الرقيق والنخاسين لغة الزنوج لسهولة متناولها، بينما يقضون الوقت الطويل مع الخوز فلا يستطيعون تعلّم لغتهم، وينتهي أخيراً بإقرار مبدأ عام ما يزال هو المبدأ السائد في تعليل الظاهرة اللغوية حتى الآن، وهو إنّها ظاهرة اجتماعية فبحسب حاجة الانسان إلى اللغة يكون اكتسابه لهذه اللغة، وهو لا يحتاج إليها إلاّ إذا كان محتاجاً إلى الاتصال بالمجتمع الذي يتحدث بها، وهذا ما ينصّ عليه بقوله : « والجملة أن من أعون الاسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك ». ويزيد الجاحظ الأمر وضوحاً فيربط سبب وجود الكلام بسبب وجود الحاجة اليه فيقول : "الحاجة إلى بيان اللسان حاجة والدة وراهنة ثابته "[١٥] ولهذا اشترط (الجاحظ) على الترجمان أن « يكون بيانه في نفس الترجمة في نفس علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها »[١٦]، ولا بد له أنْ « يعرف أبنية الكلام وعادات القوم، وأســـــباب تـفاهـمهم » [١٧].

وقد وضحت العلاقة بين اللغة والمجتمع، وفعلها فيه أبلغ الوضوح عند العالم العربي (سيف الدين الآمدي) (ت:٦٣١ هـ) بقوله: «ولما كان كلّ واحد لا يستقلّ

---

(١٣) E. Sapir. Language. New York. Harcourt. Brace and Company , 1921 p. 7.

(١٤) اللغة بين العقل والمغامرة : ص ١٤٦.

(١٥) الحيوان : ٥/٢٩٠ و ١/٤٨ ، على التوالي .

(١٦) نفسه : ١/٧٦ .

(١٧) نفسه : ١/٧٨ .

بتحصيل معارفه بنفسه وحده دون معين ومساعد له من نوعه دعت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصّل بها إلى معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المُعينة له في تحقيق غرضه ... » ولذلك استخدم الانسان « ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خُصّ بها نوع الانسان دون سائر أنواع الحيوان عناية من الله تعالى به، ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية حدثت الدلائل الكلامية، والعبارات اللغوية »[١٨].

وتتضح من خلال قول (الآمدي) هذا جملة من الحقائق العلمية التي تقرّها اليوم أحدث الدراسات اللغوية، يمكن اجمالها بالآتي[١٩]:

أولاً: إنّ اللغة دلائل يتوصل بها كل واحد إلى معرفة ما في ضمير الآخر. وكان قد أكّد هذه الحقيقة من قبل العالم العربي (فخر الدين الرازي) (ت:٦٠٦هـ) فرأى أنّ «السبب في وضع الألفاظ أن الإنسان الواحد وحده لا يستقلّ بجميع حاجاته بل لا بُدّ من التعاون، ولا تعاون إلاّ بالتعارف، ولا تعارف إلاّ باسباب، كحركات أو إشارات أو نقوش، أو الفاظ توضع بإزاء المقاصد، وأيسرها، وأفيدها وأعمها الالفاظ.

أما أنها أيسر فلأن الحروف كيفيات تعرض لأصوات غامضة للهواء الخارج بالنفس الضروري، والمحدود من قبل الطبيعة دون تكلّف اختياري، وإما انها أفيد فلأنها موجودة عند الحاجة معدومة عند عدمها، وإما انّها أعمها، فليس يمكن أن يكون لكلّ شيء نقش كذات الله،أو آلية اشارة كالغائبات ويمكن أن يكون لكل شيء لفظ، فلما كانت الألفاظ أيسر، وأفيد، وأعّم صارت موضوعة بإزاء المعاني »[٢٠].

ومهمة اللغة التي ذكرها (الآمدي)، وأكدّها (الرازي) حقيقة علمية يقول بها علماء اللغة المحدثون وفي طليعتهم علماء اللغة الاجتماعيون، فاللغة ليست واقعاً ذهنياً مجرداً لا رابط يربطه بالواقع الاجتماعي، فللكلمة قوتها الخاصة في إداء الأعمال وإنجازها، وهي – أعني الكلمة – إن فقدت فعلها في الحياة الاجتماعية فلا

---

(١٨) الاحكام في اصول الاحكام : سيف الدين الامدي . مطبعة المعارف مصر ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ . ١٦/١-١٧ .

(١٩) انظر : اللغة بين العقل والمغامرة : ص ١٤٧ .

(٢٠) المزهر في علوم اللغة وانواعها ، للسيوطي شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلق عليه : محمد احمد جاد المولى ، وجماعة عيسى البابي الحلبي ، ٣٨/١ .

يمكن لعمل انساني أن ينجز، أو أن يُؤدّى على النحو الذي تكون فيه تأدية العمل فاعلة في حركة الإنسان داخل المجتمع الذي يعيش .

ومن هنا فقد اتفقت المدرسة الاجتماعية مع المدرسة العقلية في أنّ الكلمة (أصغر نواقل المعنى) فلا خلاف في الدلالة ذاتها، بل في الحدود الدنيا والعليا لهذه الدلالة . يقول (ياسبرسن) – أحد رواد المدرسة اللغوية الاجتماعية – « إنّه من المستحيل أن نصل إلى فهم تام لطبيعة اللغة إذا حصرنا اهتمامنا في الوظيفة العقلية للغة بوصفها وسيلة لنقل الأفكار وتوصيلها إلى الغير قول غير سديد، بل هو قول ينافي الحقيقة، ذلك لأن استعمال اللغة للتعبير عن الأفكار ونقلها وتوصيلها إنما ينطبق على رجال الفكر والفلسفة وأمثالهم في اللحظات التي يكونون فيها مشغولين بأعمالهم العلمية التي تحتاج إلى تفكير عميق » [٢١].

ثانياً: إن وظيفة اللغة كما يراها (الآمدي) وظيفة اجتماعية، ولهذه الوظيفة نصيب أكبر من الدراسات اللغوية اليوم.

ثالثاً: امتياز الانسان بهذه الوسيلة، وقد سبق القول إنّ اللغويين الاجتماعيين يؤكدون أن الإنسان لسان، ولا إنسانية بدون لغة . والوجود الإنساني كما يقرر (ابن حزم) مرتبط بالكلام فلا « سبيل إلى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام »[٢٢].

وذهب (ابن مسكويه) (ت:٤٢١ هـ) في تعليل الحاجة إلى الكلام مذهباً اجتماعياً ولسانياً، ويردّها إلى أصلين :

أحدهما: التعايش، ويقول فيه : «إنّ السبب الذي احتيج من أجله الكلام هو أن الإنسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه في تتمة بقائه مدّته المعلومة وزمانه المقدّر المقسوم، احتاج الى استدعاء ضروراته في مادة بقائه من غيره ووجب بشريطة العدل أن يعطي غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة »[٢٣].

وثانيهما: التواصل، ويقول فيه : « ألم يكن بُدّ من أن يفزع إلى حركات بأصوات دالة على هذه المعاني بالاصطلاح ليستدعيها بعض الناس من بعض،

---

(٢١) دور الكلمة في اللغة:ستيفن اولمان. تر :د . كمال بشر . القاهرة ١٩٧٥ ص٢٣ ، «بتصرف».

(٢٢) الاحكام في اصول الاحكام . ٢٩/١ .

(٢٣) الهوامل والشوامل . للتوحيدي وابن مسكويه ص/٦ .

وليعاون بعضهم بعضاً فيتّم البقاء الانساني، وتكمل فيهم الحياة البشرية »[٢٤] يؤكدون أنّ الإنسان لسان، ولا إنسانية بدون لغة.

وفي حديث (أبي الحسن علي بن اسماعيل) المعروف بـ (ابن سيده) (ت: ٤٥٨ هـ) عن اللغة ما يؤكّد ارتباطها بالمجتمع الذي تدفعه حاجة التواصل، واسترفاد المعاونة من غيره على اعتماد اللغة في تصريف مقيّمات عيشه التي لا يكتفي بنفسه عليها دون اجتماع مع الآخرين.

يقول (ابن سيده) في مقدمة معجمه الشهير (المخصص): « إنّ الله عزّ وجلّ كما كرّم هذا النوع الموسوم بالإنسان وشرّفه بما أتاه من فضيلة النطق على سائر أصناف الحيوان، وجعل له اسماً يُميزه، وفضلاً يُبينُه على جميع الأنواع فيحُوزُه، أحوَجَه إلى الكشف عمّا يتصورّ في النفوس من المعاني القائمة فيها المدركة بالفكرة ففتق الألسنة بضروب من اللفظ المحسوس، ليكون رسماً لما تُصوِّرَ وهَجَس من ذلك في النفوس فعلمنا بذلك أنّ اللغة اضطرارية وإن كانت موضوعات ألفاظها اختيارية»[٢٥].

فَوَضْعُ الإنسان الالفاظ على رأي (ابن سيده) اختياري، وإنْ كانت الحاجة إلى ذلك اضطرارية لأن الانسان كائن اجتماعي لا بدّ له بحكم هذا الانتماء ان يسمّي الأشياء ويرمز لها «لتتماز باسمائها ».

وتلك نظرة عميقة في فهم علاقة التفكير باللغة،في موقفها من الحضارة عامة . وعن طريق امتلاك الأسماء والكلمات، نمتلك الأشياء، نمتلك مفهومها عن طريق ملكية منطوقها، ومن يمتلك اللفظ يمتلك الشيء.

وإذا كانت النظرة السحرية القديمة تتركز حول فعل هذه المقولة، فإنّ النظرة التي تسعى اليوم إلى عدم إهمال الجانب الأسطوري من اللغة،تدور في نفس الفلك : لا معرفة بلا لغة، ولا إدراك دون لفظ ما دمنا ننشد الوضوح والإبانة[٢٦].

---

(٢٤) نفسه : ص ٧ .

(٢٥) المخصص ابو الحسن علي بن اسماعيل (ابن سيده) ، دار الفكر – بيروت جـ ٢/١-٣ .

(٢٦) اللغة بين العقل والمغامرة . ص ٢٨ .

المبحث الثاني

طبيعة اللغة

لقد بيّنا في المبحث الأول من هذا الفصل إن اللغة حاجة اجتماعية، والقول بذلك يثير جملة من المسائل لعلّ أقربها إلى ما نحن فيه مما يندرج في صلب الدراسات اللغوية، الاجتماعية، مسألتان كثيراً ما أثارهما اللغويون عموماً واللغويون الاجتماعيون على وجه الخصوص هما :

- اللغة بين الغريزة والاكتساب.
- والعلاقة بين اللفظ ودلالته من وجهة نظر لغوية اجتماعية .

هاتان المسألتان اللتان تكشفان كثيراً من ماهية اللغة وطبيعتها، ولذا نحاول في هذا المبحث التماس هاتين المسألتين، واستدعاء دور اللغويين والمفكرين العرب في هذا المجال.

أ- اللغة بين الغريزة والاكتساب

لما كانت اللغة حاجة اجتماعية، فإنها غير مرتبطة بالفرد، بل هي مجموع من الأدلة يتواضع عليها المستعملون، وهو ما كان يسمّيه علماؤنا (بالوضع)[1]، ويقابله (الاستعمال) أو (الاصطلاح والتواطوء)، وفي هذا يقول (محمد بن الحسن الاسترابادي) (ت: ٦٨٨ هـ)، « والمقصود من قولهم : وضع اللفظ:جعله أولاً لمعنى من المعاني مع قصد أن يصير متواطئاً عليه بين قوم .... ولا يقال لكل لفظة بدرت من شخص لمعنى : إنّها موضوعةله من دون اقتران قصد التواطوء بها »[2].

أما استعمال الوضع أو كيفية أدائه في الخطاب فهذا راجع إلى الفرد، بمعنى إن اللغة ليست كالكلام كما بيّنا سابقاً، إنها مادة مشتركة لا يمكن نسبتها الى شخص بعينه، ولا يمكن أن تتفاوت من جراء ذلك مكوناتها قيمة وحسناً، في

---

(١) في المزهر ص٣٨ : « الوضع عبارة عن تخصيص الشيء بالشيء، بحيث اذا اطلق الاول فهم الثاني » .

(٢) شرح الرضى على الكافيه ، الرضي الاسترابادي . ٢/١ .

حين أنّ الكلام منسوب دائماً إلى متكلم فرد، وصادر عن قائل، وطريقة إفادته ليست نتيجة الاصطلاح، وانما هي رهينة المتكلم، ومتماشية مع مقاصده، وبلاغته ليست ناجمة عن أوضاع اللغة فهي « عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة »[٣] فاللغة إذن « مجموعة من العلاقات » كما يقول المحدثون اليوم، أو كما يراها قدماؤنا (نظماً) أي، تعليق لفظ بلفظ [٤].

إن استعمال (الوضع)، أو كيفية أدائه في الخطاب وارتباطها بالفرد تجيز أن لا يشترك في الأداء شخصان اثنان في طريقة الأداء نفسها، وما كان يسميه علماؤنا ونحاتنا العرب باللغات « ما هو إلا كيفيات اختصت بها قبيلة أو بعض أفراد الأمة دون غيرهم في أداء بعض الأوضاع اللغوية، فالفرد يتصرف عند استعمال اللسان داخل الحدود التي رسمها الوضع »[٥].

وعلى أساس من هذا الفهم لمصطلح اللغويين العرب (الوضع) يمكن أن نفهم بداهة أن اللغة ليست ظاهرة غريزية، وانما هي مكتسبة كما ذكر (سابير)، وقد وعى علماؤنا هذه الحقيقة من قبل (سابير) بمئات السنين، حين تحدّثوا عما سمّـــوه بـ (السليقة اللغوية)، قاصدين بها اكتساب المرء لغة المجتمع الذي يعيش فيه.

يقول (ابو الحسن احمد بن فارس) (ت: ٣٩٥): « تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات وتؤخذ تلقناً من مُلَقّن، وتؤخذ سماعاً من الرواة والثقاة ذوي الصدق والامانة »[٦] فهذا الكلام الواضح الباهر يؤكد حقيقة علمية يكاد المحدثون يتفقون بشأنها فاللغة ظاهرة اجتماعية مكتسبة يشبه اكتسابها أية عادة اجتماعية أخرى.

وكان (ابن جنّي) يرى أن « العرب وان كانوا منتشرين، وخَلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين، ولا متضاغطين، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم يجرون مجرى

---

(٣) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، ص٢٦٧ .

(٤) انظر : دلائل الإعجاز : ص٤١٦ ، ومساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة . د . عبد القادر المهيري ، حوليات الجامعة التونسية . العدد ١٩٧٤/١١ ص١٠٨ .

(٥) فقه اللغة في الكتب العربية ، ص ٧١ .

(٦) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها . ابن فارس ، حققه وقدم له مصطفى الشويمي بيروت ١٣٨٢ – ١٩٦٣ ص ٦٢ .

الجماعة في دار واحدة، فبعضهم يلاحظ صاحبه، ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مُهِمّ أمره، فهذا هذا »[٧].

وبهذه المراعاة والملاحظة يتم اكتساب اللغة، ورصد ما يعرض لها من الاختلال والفساد والخطل، لأن اللغة «ملكة صناعية» على حدّ تعبير (ابن خلدون)[٨] (ت: ٨٠٨ هـ)، فقلما يمكن للمرء أن يكتسب المعرفة في صناعة من الصناعات، ويتعلمها . فكذلك اللغات، قد تُؤخذ « بالمِنَّة والطباع، بما لا نلاحظ على طول المباحثة والسماع »[٩] او قد تؤخذ عن المجتمع بالتعليم أو الاختلاط.

ويُخضع (ابن خلدون) اكتساب اللغة وحصول الملكة اللغوية وبقائها في المجتمع الناطق بها جيلاً بعد جيل، وجودتها أو فسادها واستحداث غيرها إلى جملة من المؤثرات يكشف عنها قوله: «إن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها، وقصورها بحسب تمام الملكة، أو نقصانها، وليس النظر إلى المفردات، وإنما هو النظر إلى التراكيب، فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغة المتكلم...»[١٠] والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبه في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات ومعانيها فيلقنها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم يتجدد في كل لحظة ومن كلّ يتكلّم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكه وصفة راسخة ويكون كأحدهم.

هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل. إلى جيل، وتعلّمها العجم والأطفال، وهذا معنى ما تقوله من أنّ المعرب بالطبع أي بالملكة التي اخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم، ثم أنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها ان الناشيء من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى

---

(٧) الخصائص : ٢/١٥ – ١٦ .

(٨) تاريخ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ١٣٩١ – ١٩٧١ ، جـ ٤٨٧/١.

(٩) تاريخ ابن خلدون : ٤٧٨/١ .

(١٠) نفسه : ٤٨٧/١ .

غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبّر بها عن مقصودة لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى"[11].

تلك نظرة (ابن خلدون) إلى اللغة، وقد حاول فيها استخلاص نوع من الصلة الجدلية بين المجتمع واللغة يمكن ان نحدد أبعادها بالآتي :

أولاً: إن اللغة ملكة صناعية، ومعنى الملكة هنا أنها الصفة الراسخة التي تكتسب بها النفس البشرية العادات والتقاليد والصناعات، وكل مظاهر الاجتماع الإنساني التي تحيط بها.

وثانياً : أثبت (ابن خلدون)أن الملكة اللغوية انما تُعَيَّن وتُكتسب بمفاعيل المعاشرة والمخالطة والممارسة،فالانسان يتكلم لغته الأصلية بسماع الآخرين .

وثالثاً : إن هذه الملكة إنما تستقر وتثبت بالعادة وتكرار الفعل.

ورابعاً : إن اعادة الأفعال تمنح خصائص جديدة، وكذلك فإن تنوع روافد الاختلاط والمعاشرة قد يفسد الملكة، ويوجهها توجيهاً جديداً ناقصاً عن الملكة الأولى، بمعنى « إن الانطباعات التي تتوافر لنا عندما نسمع الآخرين هي التي تجعلنا نعدّل عاداتنا اللغوية »[12].

وخامساً: إن الملكة التامة لا تحصل بالنظر إلى المفردات، وإنما تحصل بالنظر إلى التراكيب، بمعنى أن معرفة النظام اللغوي المعين هي التي تحدّد إمكانية معرفة الإنسان لتلك اللغة، وتمكنه منه، ومن الواضح أنّ أهم خاصية من خصائص اللغة هو نظامها، لأنه يحكم سلوك الأفراد الذين يستخدمون اللغة إزاءها فاللغة تقوم على أساس نوع من العقد القائم بين أعضاء الجماعة، والفرد في حاجة إلى تعلمها وتوظيفها في نشاطه الاجتماعي، ولا يمكن للإنسان أن يتعلم اللغة بتعلّم مفرداتها فقط، من دون تعلّم ما يمثّلها تمثيلاً صحيحاً وهو النظام، سواء كان نظاماً لأصواتها أم لصرفها، أم لنحوها.

---

(١١) نفسه : ٤٨٧/١ . ومن المعروف أنّ ابن خلدون كان يسمي (اللغة الفصحى) باسم (لسان العرب) او (اللسان العربي) او (لغة مضر) وأما (العامية) فكان يعّبر عنها بـ (لغة الأمصار) او (لغة الجيل) انظر : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . ساطع الحصري . بغداد ١٩٦١ ص ٤٦٠ .

(١٢) نظرية البنائية في النقد الادبي ، ص٢٥ .

وسادساً: إن الطفل يكتسب اللغة بالتدريج مبتدأ من المفردات ودلالاتها، فالتراكيب وأحكامها.

وهذا كله يؤكّد لنا أنّ نظرية (ابن خلدون) في الملكة اللغوية خصوصاً، والملكات عموماً تستند إلى ملاحظة مبدأ نفسي عام هو أن كل فعل – مادياً كان أم معنوياً، فكرياً كان أم بدنياً – لا بُدّ من أن يترك أثراً في النفس، فإذا تكرّر الفعل، تكرّر أثره في النفس، وتولّد من ذلك صفة، ثم رسخت تلك الصفة، فكوّنت ملكة، والملكة التي تحدث على هذا المنوال من جراء تكرّر الفعل تنمو شيئاً فشيئاً تبعاً لهذا التكرار كأنها تتغذى به[١٣].

واعتبار (ابن خلدون) اللغات بمثابة « ملكات في اللسان» وانها لا تتكون – بوجه عام – إلاّ بالممارسة والتكرار، هو الذي دفعه الى أن يبني نظريته في «طريقة تعلم اللسان المضري» – يعني اللغة الفصحى – على هذا الأساس بما يؤكد فعل المجتمع في اكتساب اللغة، فيقرر أنّ «وجه التعليم لمن يبتغي ملكة اللسان المضري، ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم ... حتى يتنزل – لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور – منزلة من نشأ بينهم ولُقّن العبارة عن المقاصد منهم ». ثم ينصرف بعد ذلك إلى التعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم، وتأليف كلماتهم، وما وعاه وحفظه من أساليبهم، وترتيب ألفاظهم، فتحل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال، ويزداد رسوخاً وقوة »، « ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع، والتفهم الحسن لمنازع العرب، وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها، وبين مقتضيات الاحوال »[١٤].

ب : اللفظ والدلالة من وجهة نظر لغوية اجتماعية

من المسائل التي يطرحها علم اللغة على بساط البحث هي ميزة اللفظ المعين في الدلالة على المعنى أو المسمّى المعين، فالألفاظ التي يطلقها الإنسان على الأشياء

---

(١٣) دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص٤٢٤ .

(١٤) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٩/١ .

لم تكن أصواتاً محضة، وإنما هي اصوات منظمة دالة « وهذه الأصوات التي تصدر عنا ليست هدفاً لذاتها، وإنما هي وسيلة نتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تجول بأذهاننا»[١٥]، ومن هنا وجدنا أن كل دراسة لغوية لا بُد أن يكون « موضوعها الأول والأخير هو المعنى، وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى »[١٦].

ويبدو أن (الدلالة) كانت قديماً مصطلحاً وصفياً لاستغراق اللفظ والإحاطة به ،[١٧] وإن البحث حول صلة اللفظ بدلالته قد ارتبط تاريخياً بالبحث الذي عالج فكرة نشأة اللغة، وذلك حين سعى البحثان لكشف النقاب عن أولية انطلاق الشفاه بأصوات معينة لتأدية معان محدودة، أو عن أوليه تسرّب المعاني إلى النفس بمجرد سماع أصوات، ثم التواضع عليها، وعُدّت – فيما بعد – من لبـنات اللغة [١٨]. هذا من جهة .

ومن جهة ثانية نجد إن الحديث عن نشأة اللغة قد جرّ مباحث الدلالة إلى تقريرات عقلية غلبت على الجانب الوصفي للغة.

وقد اختلف مفهوم الدلالة على وفق تصور الباحثين فيها، فكان للبلاغيين مفهوم خاص، يختلف عن مفهوم اللغويين، بمـا يوضحـه (يحيى بن حمزة العلوي) (ت:٧٤٩ هـ) بقوله: «إن علم اللغة، وعلم الفصاحة وإن كان متعلقهما الالفاظ المفردة لكنهما يفترقان في الدلالة، فإن نظر اللغوي مقصور على معرفة ما يدل عليه اللفظ بالوضع، وصاحب علم البيان ينظر في الألفاظ المفردة من جهة جزالتها وسلامتها

---

(١٥) طرق تنمية الألفاظ في اللغة . د . ابراهيم انيس ، القاهرة ١٩٧٦ ص٥ ، انظر : جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب . د . ماهر مهدي هلال . بغداد ١٩٨٠ ص ٢٨٥ .

(١٦) اللغة العربية . معناها ومبناها . د . تمام حسان ، مصر ١٩٧٣ ص٩ .

(١٧) في اللسان مادة (دل) : « دله على الشيء . سدده اليه . والاسم : الدَّلالة والدِّلالة بالكسر والفتح » . وفي المعجم الوسيط : « دل عليه واليه دلالة ارشده ، والدلالة: الارشاد ، وما يقتضيه اللفظ عند اطلاقه » .

(١٨) اللغة بين العقل والمغامرة : ص٣٢ .

من التعقيد، ويراعتها من البشاعة »[١٩].

وقد أخذت منذ زمن بعيد مسألة اللفظ ودلالته مجالاً رحباً من مباحث اللغويين خاصة والمفكرين عموماً، فقد استرعت هذه المسألة انتباه قدماء اليونانيين « وبدا من سحر الألفاظ في أذهانهم، وسيطرتها على تفكيرهم أنْ ربطوا بينها وبين دلالاتها ربطاً وثيقاً، وجعلوها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك، فلا تؤدي الدلالة إلاّ به، ولا تخطر الصورة في الذهن إلاّ حين النطق بلفظ معين، ومن أجل هذا أطلق هؤلاء المفكرون على الصلتين اللفظ ومدلوله الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية »[٢٠].

واذ نحاول تتبع بحوث الفلاسفة والمفكرين القدماء في علاقة اللفظ بدلالته نرى الاتجاهات تتشعب إلى شعبتين أساسيتين : فبينما قال فريق إن الارتباط طبيعي، رأى فريق آخر أن تلك الصلة مصطنعة، يفرضها الانسان بارادته، وبحكم طول ملابسة اللفظ للدلالة ينمو ما يشبه التلازم ولكن في قدرة الإنسان أن يمزق تلك الصلة ليفرض رموزاً لغوية جديدة للدلالة نفسه[٢١].

وعندما نتساءل : هل اللغة ظاهرة طبيعية أم اجتماعية ؟ فإنما نتساءل هنا عن وظيفة اللغة لا عن نشأتها، فاللغة مسألة تتعلق بالتقاليـد، أو بعبارة أصح هي (عقد اجتماعي)، وقد وضّح هذا المفهوم وبيّنه حديثاً (سوسور) حين يقول «يعتبر الرمز اللغوي عشوائياً ودائماً في وقت واحد، فهو عشوائي لعدم وجود صلة مباشرة بين الاسم وكنه الشيء المسمّى، ودائم بمعنى إن الجماعة التي تتحدث هذه اللغة تستعمل نفس اللفظ، أو العبارة للدلالة على نفس الشيء أو الفكرة التي يتحدثون عنها مع التجاوز عن بعض الاختلافات البسيطة في نطق الألفاظ، وعرض الافكار، لا تؤثِّر بشكل فَعَّال يمنع المتخاطبين من فهم المقصود باللفظ او العبارة. وما لم تتحقق هذه الشروط فانها تفقد معناها، أو بمعنى أصحّ تفقد وظيفتها كلغة »[٢٢]

ولعل أهم ما يتّم تعريف (سوسور) للرمز اللغوي هو عشوائية او اعتباطية هذا الرمز، ونحن لا نستطيع أن نتصور عكس ما رآه (سوسور) فوجود صلة

---

(١٩) الطراز . يحيى بن حمزه العلوي ، مطبعة المقتطف ، مصر ١٣٣٢ . ١٩١٤ . ص١/١٧ .

(٢٠) دلاله الألفاظ . د . ابراهيم انيس ط٣ مصر ١٩٧٢ ص٦٢ .

(٢١) انظر : اللغة بين العقل والمغامرة . ص٤٢ .

(٢٢) انظر : علم اللغة العام (سوسور) ص٨٤ وما بعدها ولغات البشر : ص٢١.

حقيقية بين اللفظ وكنه الشيء المسمى يعني ضرورة وجودلغة واحدة لشعوب العالم جميعها، ما دام لكل شيء رمزاً واحداً يعبّر تعبيراً كاملاً عن كنه ذلك الشيء، وقد عرفنا ذلك، ومن هنا تعددت اللغات، وكثرت الالفاظ واختلفت والمسمّى واحد، ذلك على وفق ما تصطلح عليه الجماعة الناطقة في الزمان والمكان المعينين.

ومثلما اختلف الأجانب في بيان العلاقة بين اللفظ ودلالته، اختلف المفكرون واللغويون العرب القدماء، فقد قال فريق منهم « إنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع، والا لكان تخصيص الاسم المعين المسمّى المعين، ترجيحاً من غير مرجح »[٢٣] وقد دلّل (ابن جني) على هذه الصلة الطبيعية في بناء اللفظ ودلالته بقوله: «وانما جُعلت الالفاظ أدلة على إثبات معانيها لا على سلبها» وقال: «ألا تراك حين تسمع «ضرب» قد عرفت حدثه وزمانه ثم تنظر فيما بعد فتقول: هذا فعل، ولا بُدّ له من فاعل، فتبحث حينئذٍ الى أن تعلم الفاعل، من هو، وما حاله من موضع آخر لا من مسموع الضرب. وأن دلالة الضرب لفظية مسموعة، وانصراف الذهن للبحث عن الفاعل هو دلالة معنوية، والدلالة اللفظية في الكلام أقوى من الدلالة المعنوية »[٢٤].

ويقول: «ومن ذلك قولهم للسلّم مَرقاة، وللدرجة: مرقاة، فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقي، وكسر الميم يدل على إنها مما ينقل، ويعتمد عليه، كالمطرقة، والمئزر، والمِنجل، وفتحة ميم مرقاة تدل على انه مستقر في موضعه كالمنارة، والمثابة ... فنفس (ر ق ى) يفيد معنى الارتقاء، وكسر الميم وفتحتها تدلان على ما قدمناه من معنى الثبوت، والانتقال، وكذلك: قطع، وكسر، فنفس اللفظ ها هنا يفيد معنى الحديث، وصورته »[٢٥].

وقد ذهب (ابن سنان الخفاجي) (ت : ٤٦٦ هـ) مذهب (ابن جني) في أن دلالة الصوت دلالة ذاتية لأنه « لا يجوز وجود الصوت إلا في محل ... ولا يختلف باختلاف حال محله فيتولد من الصوت في الطست خلاف ما يتولد في الحجر، فالصوت حادث من أثر المصاكة الموضعية لذات الشيء المحدث له، وكذلك أصوات

---

(٢٣) يمثل هذا الراي (عباد بن سلمان) انظر : المزهر : ١/١٦ .

(٢٤) الخصائص : ٢/١٠٠ .

(٢٥) الخصائص : ٢/١٠٠ – ١٠١ ، وانظر ايضاً ١/١٨ ، ٦٥-٦٦ ، و : ٢/١٦٢ – ١٦٣ .

الألفاظ فهي سانجة غفلة تحدث لها في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيها عن امتدادها فتخرج الحروف ومنها الألفاظ دالة على جهات الكلام كحروف الشيء وجهاته[٢٦].

وقد أنكر فريق عربي آخر مقالة (ابن جني) ومن تابعه في مناسبة اللفظ لدلالته ورأى انه لو ثبت ذلك « لاهتدى كلّ انسان إلى كل لغة، ولما صحّ وضع اللفظ للضدّين، كالجون للأبيض وللأسود »[٢٧].

ولعل (ابن سيده) خير من يمثّل هذا الاتجاه، فقد مرّ القول إنه من أوائل اللغويين العرب الأوائل الذين أكّدوا أنّ اللغة واقعاً اجتماعياً (اضطرارياً) وأن ألفاظها (اختيارية)، وبهذا حطّم (ابن سيده) فكرة الارتباط الطبيعي بين الاسم والمسمّى، أو بين الدال والمدلول عليه، إنها عملية اختيارية تلك التي يتّم بها اختيار الدال، أو هي عملية تحكمية إن شئنا ذلك، والاختيار لا يقوم به فرد، وانما هو من قبول الجماعة، هكذا تلقتها، وهكذا تُسلّمها إلى من بعدها . وحينما تتعرض الالفاظ لتغيرات صوتية فلن يكون من اليسير ردّ هذه التغيرات إلى محدثيها، بل ولا إلى عصر حدوثها، اللهمّ إلا إن اخذنا بمبدأ التقريب والتجاوز عن المنطق العلمي الدقيق[٢٨].

ومن المفاهيم الهامة في هذا المجال ما ذهب إليه (الجرجاني) (ت:٤٧١هـ) في دلائله من أن اللغة « تجري مجرى العلامات والسمات» فالألفاظ « دالة على المعاني» فهي إذن من قبيل السمات والعلامات[٢٩]. وهذه الاعتبارات عن الكلمة أو العلامة لا تخلو من طرافة على لسان (الجرجاني) لدلالتها على رغبة في تجاوز ظواهر الأشياء كما انها وآراء (ابن سيده) تذكرنا – إنْ لم تلتق التقاء مباشراً – بعضَ المفاهيم التي أوضحها (سوسور) رائد اللسانيات الحديثة، واعتبرت أركاناً قارّة في

---

(٢٦) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي ، مصر ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ ، ص١١ .

(٢٧) المزهر في علوم اللغة : ص٤٧ .

(٢٨) انظر : اللغة بين العقل والمغامرة : ص١٧٣ .

(٢٩) انظر : اسرار البلاغة : الامام عبد القاهر الجرجاني ، طبعة استنبول ص٣٤٧ ، ودلائل الاعجاز : ص٤٢٦ ، ٢٧٩ ، ومساهمة في التعريف باراء عبد القاهر : ص١٠٣ .

الدراسات اللغوية منذ نصف قـرن، فاللغة تُتناول على أنهـا مجموعـة علامات (Signes)، جزافية او اختيارية على حدّ تعبير (ابن سيده)، بمعنى أننا ما دمنا نفهم الدليل عل أنه ربط بين الدال والمدلول، او اتحاد بينهما فيمكن بكل بساطة القول إن الدليل اعتباطي، ويجب ألاّ تخدعنا هذه الاعتباطية أو (الاختيارية)، فنراها تعني حرية الاختيار لدى المتكلم « إن الاعتباط هنا يعني أنّ العلاقة غير معللة بين وَجْهَيْ الدليل – أي بين الدال والمدلول – حيث انّها لا توجد بينهما أية علاقة طبيعية في الواقع »(٣٠).

فالدال هو الترجمة الصوتية لتصوّر ما، والمدلول هو المستشار الذهني لهذا الدال، ومن هنا تتضح الوحدة البنائية العميقة في الإشارة اللغوية بين الدال والمدلول، وقد شبّه (سوسور) هذه الوحدة بالورقة وجهها الأول هو الصوت، والثاني هو الفكر، ومثلما لا نستطيع أن نفصل وجهي الورقة فاننا لا نستطيع أن نعزل في اللغة بين الصوت والفكر، وانما «نجري نوعاً من التجريد البحث للعنصرين النفسي والصوتي، وما يقوله (سوسور) ينطبق في الدرجة الأولى على الرمز اللغوي، ويمكن أن نفهم في ضوئه الجانب الاعتباطي في اللغة، فهو ليس الرمز في حدّ ذاته، وانما انطباقه على هذا العنصر او ذاك من الواقع، فالعلاقة الوحيدة المتعسفة الطارئة في اللغة هي علاقة الرمز بالشيء »(٣١).

وربما يكون (الشريف الجرجاني) (ت: ٨١٦ هـ) اكثر قرباً مما جاء به (سوسور) بل إنه مطابق وسابق ايضاً، إذ يذكر أن «المعنى: ما يُقصد بشيء . والمعاني هي الصور الذهنية من حيث إنه وضع بازائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل من حيث أنّها تقصد باللفظ سميت معنى »(٣٢).

أما الدلالة فهي عنده «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول . وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في:عبارة النصّ، وإشارة النصّ، ودلالة النصّ، واقتضاء النصّ ... فإن كان الحكم مفهوماً من اللفظ فهو الدلالة ... فدلالة النص

---

(٣٠) البنائية في اللسانيات : ص١٥٠ .

(٣١) نظرية البنائية في النقد الادبي ، ص٢٩ .

(٣٢) التعريفات . الشريف الجرجاني ، القاهرة . ١٣٥٧ – ١٩٣٢ ص١٩٦ .

عبارة عما ثبت بمعنى النصّ لغة لا اجتهاداً، فقوله « لغة » أي يعرفه كل من يعرف هذا اللسان، بمجرد سماع اللفظ من غير تأمّل »[٣٣].

وقد صرف اللغويون العرب القدماء جهوداً كبيرة معطاة أي تصبح مغطاة في دراسة أنواع الدلالات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والاجتماعية . يعنينا منها هنا (الدلالة الاجتماعية) التي قصدوا بها الدلالة الزائدة على الدلالات المستفادة من جرس الكلمة أو بنيتها الصرفية، أو نظام تركيبها:اذ نجد ان كل كلمة بعد ان تُبنى على أحد الأوزان الصرفية، وتأخذ مادتها ومعناها الأصلي، تستعمل في مواطن من الكلام، ويخصّها الاستعمال بمعانٍ أخص من المعنى العام الذي تدل عليه مادتها، ويتعدد الاستعمال على مرّ العصور وفي مختلف المناسبات والبيئات يتم للكلمة اكثر من معنى، ويجتمع لها أكثر من دلالة ... ولهذا كان للسياق قيمة في تحديد المعاني وفهم الكلام[٣٤].

والسياق أو ما أطلق عليه قديماً (المقام) يضم كلاً من « المتكلم ، والسامع والظروف والعلاقات الاجتماعية، والأحداث الواردة في الماضي والحاضر »[٣٥]. وغير ذلك من مشمولات عملية التواصل من مواقف وحالات، وأغراض، وكلها - كما سنرى - تختلف من خطاب إلى آخر.

وقد كان الإمام (عبد القاهر الجرجاني) (ت:٤٧١ هـ) سبّاقاً إلى تحديد خطورة السياق وفعله في بيان الدلالة المطلوبة، حين ربط كل كلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله[٣٦]، وعنده أنه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات، وإنما لكل موقف ومقتضى حال تركيب يتلاءم معه. يقول:«اعلم إنّ ها هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه صورة من يعرف من جانب، وينكر من آخر، وهو إنّ الالفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها نفسها، ولكن

---

(٣٣) التعريفات . ص٩٣ . وقوله : يلزم ، لاينسع إلا للمعنى اللزوم ، كالذي في كتابة مثلاً اما الاصل في المعنى فهو « العرف » الذي يكون المعنى بحسبه، مرتبطاً ارتباطاً اعتباطياً ، وليس لازماً لزوماً عقلياً . انظر : نظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة . ص١٩ .

(٣٤) انظر : فقه اللغة وخصائص العربية . د . محمد المبارك ، بيروت ١٩٦٤ ص ١٨٣ .

(٣٥) اللغة . معناها ومبناها . ص٣٥٢ .

(٣٦) انظر : دلائل الاعجاز ، ص ١٤٣ .

لأن يضمّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم »[٣٧].

فالجرجاني يكشف بهذا قبل (سوسور) إن اللغة مجموعة علاقات، فالكلام عند (الجرجاني) «نظم » قبل كل شيء، أي تعليق (وضمّ) لفظ إلى لفظ.

على الرغم من أنّ مفهوم العلاقة (Rapport) في نظر علم اللغة الحديث لا تعني علاقة الكلمات بعضها ببعض في نطاق التركيب فحسب، بل هي «تشمل أيضاً علاقة الكلمات بعضها ببعض في معناها اللغوي، وتقابل الاصوات وقيمة العلاقة اللغوية القائمة على مفهوم الفرق ...»[٢٨].

والمعنى عند (عبد القاهر الجرجاني) أبعاداً ثلاثة[٢٩].

أولــهـا : معاني اللفظة المفردة أو ما يطلق عليه اليوم بـ (المعنى المعجمي).

وثانيهـا : طرق التعليق بين الكلم وربطها، وهي المعاني النحوية التي تفرز عبر أحكام تنظيم الجملة المعينة.

وثالثهـا : الإبانة عما في النفس أو البيان، أو تمام الدلالة، وهو ما يسمّى بـ(المعنى الدلالي)الذي يعتمد على المعنى المقالي – أي الوظيفي (الصوتي والصرفي والنحوي)، والمعنى الاجتماعي، وهو شرط لاكتمال المعنى الدلالي وفهمه .

وإذا كان (فيرث) و (مالينوفسكي) قد أعطيا نظرية السياق وأثرها في المعنى بعداً اعمق، وأوسع، وجعلا منها نظرية وظيفية شاملة في علم اللغة الاجتماعي كما سنرى، فإنا نرى أنّ اللغويين العرب قد أدركوا أهمية السياق، ونصّوا على دوره الحاسم في العملية اللغوية، ولعل انتباه اللغويين العرب القدماء إلى السياق أو (المقام) – على حدّ تعبيرهم (المعنى المقامي أو الاجتماعي)، واهتمامهم به، هو الذي دفعهم إلى قسمة اضرب الخبر في الكلام مناسبة للمقام، وحال المخاطب – وهي

---

(٣٧) دلائل الاعجاز : ص٤٩٥ .

(٣٨) انظر : مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر : ص٨٧ .

(٣٩) انظر:دلائل الإعجاز:ص٤٩٥. واللغة معناها ومبناها:ص٣٣٩، ٣٤٢.ونظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة، ص٢٨ .واللغة والتطور:د. عبد الرحمن أيوب القاهرة ١٩٦٩. ص٦٣ ، ٦٥ وما بعدها .

ناحية اجتماعية – ثلاثة اقسام هي[٤٠] :

١- خبر ابتدائي .

٢- خبر طلبي .

٣- خبر انكاري .

وهو الذي حدا بهم أيضاً إلى أن يصنِّفوا كتب المعاني، كما فعل (الأصمعي)، و(أبو عبيدة)، و(أبو زيد الأنصاري) و (ابن الاعرابي)، وغيرهم إذ وضعوا عشرات الكتب في خلق الانسان، والخيل، والنبات، والحلي، والوحوش، والطير، والسلاح والغرائز والجرائم وغيرها[٤١]أو وضع بعض النحاة كتباً في معاني الحروف كما هي الحال في كتب اللامات[٤٢].

وسيتضح لنا في موضع لاحق انتباه القدماء إلى أسباب تغير الدلالة سواء على مستوى الكلمة المفردة أم على مستوى التركيب، وذلك في بحثهم المعاني المجازية الكلمات، وضروب الاستعارات والكنايات والتشبيهات، وغيرها من الاساليب البلاغية عند العرب.

ويُعدّ (معمر بن المثنى المعروف بأبي عبيدة) (ت: ٢٠٩ هـ) صاحب كتاب (مجاز القرآن) و(أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري) (ت: ٥٣٨ هـ) صاحب (أساس البلاغة) رائدين في مجال التأليف في تاريخ تطور الدلالات اللغوية، دون الوقوف عند حدود الألفاظ المفردة، بل تجاوزاها إلى التركيب، بما يوضّح قوانين فصل الخطاب، والكلام الفصيح،بإفراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح . وقد احتوى (أساس البلاغة) على عنصرين أساسيين في الدرس الدلالي.

---

(٤٠) انظر : نظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة . ص٣٠ .

(٤١) انظرفي هذه المؤلفات : نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والنحو . د . امجد الطرابلسي ، دمشق ١٣٩٢ – ١٩٧٢ . ص٥٤ ، ٥٥ .

(٤٢) في الفهرست لابن النديم اسماء كتب مؤلفة في لامات (القرآن) الكريم ، وفي اللامات ومعانيها في اللغة عموماً . ومن هذه الكتب نذكر : اللامات لابن فارس ، واللامات للزجاجي، واللامات للهروي .

انظر : الفهرست لابن النديم ، ص٦٠.١١٨ .واللامات بين الهروي والنحاة : يحيى علوان حسون . مجلة آدابُ المستنصرية العدد العاشر ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤ ، ص٢٨١ وما بعدها .

أولهمـــا : أثر الاستعمال في حياة الكلمة، وتعيين دلالتها، وتحديد معناها.

وثانيهما: الوقوف على شيء من ايحاء الكلمة في النفس، وظل فحواها في الذهن، ووقعها في المخيلة، وهذا ما لا تقدّمه لنا المعاجم اللغوية، لأن الدلالة المعجمية المجردة ليست هي كلّ دلالة الكلمة، وليست هي الدلالة الأدبية التي تحمل عنصر التأثير النفسي للكلمة بما تثيره من أحاسيس وما تلفت إليه من آفاق.

وحين قال البلاغيون العرب «إنّ لكل مقام مقالاً» و «لكل كلمة مع صاحبتها مقاماً» وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم، تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار الثقافات على حدّ سواء. ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير Context of Situation– اي المقام أو سياق الحال– لم يكن يعلم أنه مسبوق إلى هذا المصطلح بألف سنة فما فوقها.

إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجّلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام)، ولكن كـتـبهم هـذه لـم تجـد الدعايـة على المستوى العالمي ما وجده مصطلح (مالينوفسكي)، من تلك الدعاية، بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة[٤٣]. ولتعمّد أغلب الباحثين الغربيين إهمال الدرس اللغوي عند العرب لارتباط هذا الدرس بالنص القرآني، وبالقيم الحضارية للعرب، وذلك مما لا يرغب هؤلاء الولوج فيه، مما أساء إلى الدرس اللغوي عموماً، وساعد على تأخّره.

وأرى أن العالم الغربي لو التفت إلى معطيات العرب في دراستهم اللغوية، ووظّفها لخدمة الدرس اللغوي لأفاد فائدتين هامتين :

أولهما: تمنح الدرس اللغوي العالمي فيضاً من العطاء والتقدم بما يسبق به موقعه الحالي.

وثانيهما: تكشف الحقائق العلمية التي أقرها العرب القدماء، بما ينصف الدرس اللغوي عند العرب، ويوقف الباحثين على عديد من المسائل اللغوية التي كان للعرب فيها قصب السبق.

---

(٤٣) انظر : اللغة معناها ومبناها . ص٣٧٢ .

الفصل الثالث

جمع اللغة وتطورها
وصراعها مع اللغات الأخرى

المبحث الأول

جمع اللغة

من المعروف أنّ اللغة بطبيعتها تستحيل على الاستقراء الشامل، وقد أدرك هذه الحقيقة القدماء يوم عكفوا على النظر في اللغةوما انتهى إليهم منها إذ قالوا إنّ « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا امثلة، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[1].

ونصّ بعضهم على أنّه « لا يمكن أن يحاط بجميع ما لفظت به القبائل، اذ كان غاية ليست بالمدركة »[2].

ولهذا أصبح من المتعذّر على الباحثين قدماء ومحدثين معرفة شيء محقق عن طفولة اللغة العربية الأولى[3]، وليس لنا سند لها سوى ما أنتجته قرائح ابنائها من نثر قوي، وشعر رَصين، فهذان الأثران ينبئان عن لغة بلغت غاية الكمال والثراء، ولا يكشفان شيئاً عن طفولتها أو شبابها،وكل الذي نعرفه أنّ العربية قد تدرجت في

---

(١) القول لابي عمرو بن العلاء (ت . ١٥٤ هـ) ، انظر في : طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام تر.: محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٥ .

(٢) عبث الوليد : أبو العلاء المعري ، دمشق ١٩٣٦ ، ص٢٣٣ .

(٣) لم تتفق كلمة الباحثين في أول من نطق العربية ، فيرى فريق أنّ هذه اللغة تلقاها القحطانيون عن بقايا القبائل البائدة ، وقد توسعّوا فيها حسب مطالب الحياة ، وأخذها عنهم العدنانيون – وهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم – الذي نزل مع ابيه مكة سنة (١٧٠٠ق . م) لجوارهم لفرع قحطاني هو (جرهم) ويرى فريق آخر أنْ لاصلة بين العدنانية والقحطانية ، بل أن بعض هؤلاء من يحكم على القحطانية بأنها غير عربية ، ولكلّ فريق حججه التي تسند أقواله .

ومهما يكن من أمر تاريخ العربية ، فإن كثيراً مما يهم الباحث اللغوي غير معروف الآن ، مما لايساعد على معرفة كثير من خصائص العربية في نشأتها الاولى وعبر تطورها. وقد تحدث المهتمون بالساميات عن أقرب اللغات السامية الباقية اليوم إلى السامية الام حديثاً يشير إلى أن العربية أقرب تلك اللغات لاحتفاظها بكثير من عناصر السامية الاولى .

انظر : اللغات السامية تخطيط عام . تيودور نولدكه . تر.: د . رمضان عبد التواب ، القاهرة ١٣٦٨ هـ ، ص١٣ وما بعدها .

– أشتات ومجتمعات في اللغة والأدب ، العقاد ، ط٢ ، ص١٥ وما بعدها .

– فقه اللغة . ابراهيم محمد نجا ، مصر ١٣٧٤ هـ ١٩٥٦م ، ص٩ وما بعدها .

– دراسات في فقه اللغة . د . صبحي الصالح ، ط٣ ، ص٥٩ .

مدارج شتى حتى بلغت اوجها، إلاّ إنّ الناطقين بها-وهم من أبناء الصحراء المنبثين بين فيافيها، والمتفرقين في انحائها-كانوا قبائل عديدة، فأدّى بهم هذا التفرق في أنحاء الجزيرة إلى اختلاف البيئات، وصاحبه اتجاه الالسن إلى الاختلاف بين القبائل في النطق، وساعد على ذلك أنّ الأمة العربية كانت آنذاك امة اميّة تعتمد ذاكرتها- وكثيراً ما تخون الذاكرةالمعتمد عليها، ولا تسعفه بالحقيقة - ويمرور الأيام، وتباعد البيئات، وتفرع القبائل ازداد الاختلاف في نطق الأصوات حتى وصل إلى الألفاظ، بنياتها، ودلالاتها، فكان ذلك ايذاناً بتفرع العربية إلى لهجات كثيرة، فلما أريد لهذه اللغة أن تجمعُ، وأن تُدوّن الفاظها، وأنماط تراكيبها، وأساليبها، تنبه القائمون بذلك إلى هذه الحقيقة وهالهم تعدد الوان الرداء اللغوي للعربية، فأتيحت أمامهم فرصة المراجعة والتنقير والبحث للوقوف على اسلم الطرق واكثرها فعلاً في محاولة جادة لجمع شتات اللغة، وبناء معجمها، وتقعيد نظامها سالكين من أجل ذلك طريقاً يتّفق إلى حدّ بعيدٍ مع ما تقرره النظريات اللغوية الحديثة بهذا الشأن، ويمكن بيان أبعاد المنهج الذي سلكوه وهم يتأملون لغتهم بالآتي :

اولاً : اعتماد المنطوق

عوّل اللغويون العرب على المنطوق من اللغة، وعدّوا ذلك أصلاً في عملهم «فلم يجيزوا الاعتماد على النص المكتوب، وإنما استندوا إلى المشافهة والتلقّي، وحذّروا العالم من الاعتماد على النص المدوّن، وحذّروا ايضاً المتعلّم من تلقّي العلم على من يفعل ذلك . و « ليس لأحد إذا أجمع اهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه، أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن مصحفي »[4].

فالمسموع من اللغة هو بالنسبة إلى جميع الناس أكثر مما يحصى، ولا يمكن أن يقاس عليه المقروء، وقد الحّ علماؤنا الأقدمون على أهمية المشافهة، فما اللغة إلاّ أصوات مسموعة، قبل أن تكون مكتوبة وإن الخطّ تابع للفظ « ومن هنا جاء في كتبهم من التحليلات لظواهر التأدية ما يؤكد أهمية السماع والمشافهة، ورصد

---

(٤) المزهر في اللغة، ١/١٠٤ .

الظاهرة اللغوية عن كثب »[٥]، حتى عيب على الكسائي (ت:١٨٩هـ) « أنه لم يقم بالبدو أربعين يوماً »[٦]، بمعنى انه لم يقم بالتلاقي والاختلاط والمعايشة المباشرة مع من يريد أن يسجّل لغتهم ليتمكن من الأخذ الدقيق عنهم.

وهم بهذه الطريقة لا يختلفون كثيراً عن المنهج الحديث في دراسة اللغة الذي يعتمد على الكلام المنطوق دون المكتوب.

ولعل أهم ما يأخذون عليه في هذه الناحية هو ظنهم أنّ اللغة شيء وراثي يتناقله الأبناء عن الآباء، وترضعه الأمهات للأطفال، ولذا سيطرت عليهم فكرة ارتباط الفصاحة بالجنس ارتباطاً وثيقاً، وأنكروا على الفارسي أو اليوناني وغيرهما إمكان اتقان اللغة العربية كما يتقنها أهلوها من العرب، مهما بذل هؤلاء في تعلّمها، وثابروا على المران عليها، وتلقّوها منذ الصغر، ومهما كان حظهم من الثقافة العربية، ولهذا رفض اللغويون العرب الأخذ عن (ابن المقفع) مثلاً لأصله الفارسي، على الرغم من فصاحته، في حين كانوا لا يتورعون من الاستشهاد بكلام الاطفال والمجانين. قال (السيوطي):« قال ابن دريد في اماليه، اخبرنا عبد الرحمن عن عمه الاصمعي،قال:سمعت صبية بحِمى ضَرِيّة (بين البصرة والكوفة) يتزاجرون، فوقفت وصدّوني عن حاجتي، واقبلت اكتب ما أسمع، إذ أقبل شيخ، فقال : أتكتب كلام هؤلاء الاقزام الأدفاع ؟ »[٧] وقال: « وكذلك لم أرهم توقوا اشعار المجانين من العرب، بل رووها، واحتجوا بها»[٨].

ويعاب عليهم في هذا المجال أيضاً، خلطهم بين مستويين من اللغة لا يصحّ الخلط بينهما، وهما مستوى اللغة الادبية النموذجية المتمثلة في القرآن الكريم، والحديث والسفر والخطب والأمثال، ومستوى اللهجات العامية المتمثلة في القراءات القرآنية، ولغة الخطاب، كما أنهم لم يكونوا على حق في ربطهم الفصاحة بالبداوة لأن اللغة بنت الحاجة والاستعمال، وهي لا تنشأ في فراغ، وانّما لتعبّر عن تجارب

---

(٥) اثر اللسانيات في النهوض بمستوى اللغة ، عبد الرحمن الحاج صالح ، الرياض ، ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧م ، ص١٠٨ .

(٦) مجالس العلماء ، الزجاجي ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الكويت ١٩٦٢ ، ص١٧١ .

(٧) في اللسان (دفع) دفع الشيء : جهّد ، وجاع ، واشتهى وطمع والرجل : خضع ، وذل ولؤم.

(٨) المزهر ، ١٤٠/١ ، وانظر : البحث اللغوي عند العرب . د . أحمد مختار عمر، مصر ١٩٧١ ، ص٣٨ .

وحاجات وثقافات معينة، ولا شك أنّ تجارب البدوي وحاجاته تختلف عن تجارب الحضري وحاجاته، ولذلك ليس من المعقول أن تفي إحدى اللغتين عن الأخرى، وليس من الحق أنْ نعدّ لغة البدوي أرقى من لغة الحضري، رغم انها لا تفي بحاجاته(٩).

ثانياً : التحديد الزماني والمكاني

لما كانت اللغة نظاماً اجتماعياً، كالدين والحكومة، يخضع لتأثير الزمان والمكان فقد عني الباحثون العرب القدماء بهذين المؤثرين، وهم يستقرئون اللغة، بما يمنح الدرس اللغوي عندهم سمة وصفية مرموقة.

ومسألة الزمن لا تؤثر هنا إلا بمقدار تلازمها مع الاطار الاجتماعي والحضاري للبيئة العربيةحتى انه « لو فرضنا اليوم أنّ في بعض القفار النائية عن العمارة قوماً من العرب لا يخالطون غيرهم، وكانوا قد أخذوا اللغة عن مثلهم، وكذلك الى حين ابتداء الوضع لوجب أن يكون قولهم حجة كأقوال المتقدمين وإن كانوا محدثين »(١٠).

فحرص اللغويين العرب على احكام الحدود الزمانية والمكانية التي يجب أن تحيط بلغة الاحتجاج هو الذي قادهم إلى اعتبار الزمن حدثاً فاصلاً بين الفصيح وغيره حيث تتوالى بعد هذا الزمان المعين، وبعد الحيز المكاني المحدد الانفصامات التي نفذت الى جسد اللغة طاعنة ايّاه بما لم يألفه العربي من قبل، من ضروب اللحن والخطأ، يوم كانت اللغة كأصحابها منغلقة على ذاتها ممعنة في الانغلاق حفاظاً على وجودها.

وقد حدد اللغويون الحيز الزماني بمنتصف القرن الثاني للهجرة بالنسبة للحضر، واواخر القرن الرابع بالنسبة للبادية، فهذا الزمان هو الذي لم يتسرب خلاله إلى اللغة شيء من اللحن، أو العجمة، إنّه حيّز (الصحة اللغوية) إن جاز هذا التعبير، الحيز القابل لأنْ تُستقرأ اللغة في ضوئه وتنظّر. وما بعده تتفكك نواة الأمة الصلبة–اقصد:اللغة –على المستويات الصوتية والبنائية والتركيبية، مما مهّد

(٩) انظر : البحث اللغوي عند العرب ، ص٣٧ .

(١٠) سر الفصاحة ، ص ٢٧٦ ، انظر : تجليات الحداثة في التراث العربي ، محمد عبد المطلب ، مجلة فصول ٣ ، ١٩٨٤ ، ص٦٥ .

لظهور اللهجات العامية في مقابل الفصحى، واللهجات كما سنرى «بدايات قديمة في تاريخنا لدى الشعب المستعرب، بدايات تكبتها الفصحى، وتقلّصها فتتوارى، إلا أنها استحالت مع الانحسار نهايات، امتدت وانتشرت، فأصبح لكلّ قطر، لكل جنس، لكلّ مدينة، لكل قرية، ولكلّ حي من أحياء المدينة الواحدة لهجتها أو لهجته »[١١]، ومثلما حُدِّد الزمان، حُدِّد المكان، واشترط في المصدر البشري الذي تؤخذ عنه اللغة شروط معينة، أهمها صحة اللسان العربي، وسلامته اللغوية، وبُعده عن كل المنافذ الاجنبية، وقرر اللغويون الأوائل وهم بصدد استقراء اللغة ان هناك اماكن هي وقف على الفصحى، ولذلك حرصوا على أن يأخذوا منها، فقاموا بتحديد هذه الأماكن، ومن سكنها من القبائل، وعيّنوا لنا ما يمكن الأخذ عنهم، والاحتجاج لهم، وما لا يمكن، معللين ذلك كله، فقد ذكروا أن قريشاً « كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس »[١٢]. وسبب ذلك عندهم «أنّ العرب كانت تحضر الموسم في كلّ عام، وتحجّ البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلّموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الالفاظ »[١٣].

« وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم، وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب»[١٤].

فإذا زدنا على هذا ما لقريش من مكانة بين القبائل العربية الأخرى بفعل نفوذها الديني، والتجاري، والسياسي، عرفنا الأسباب الكامنة وراء تكوين اللغة الادبية النموذجية التي توحدت قبل الاسلام، وأصبحت اللغة القومية المشتركةالتي تمثّل القبائل جميعاً، وهي اللغة الفصيحة (لغة قريش) التي ارتفعت عن كلّ انحراف لغوي، وعلى أيّ مستوى من مستوياتها مما أصاب أغلب لهجات القبائل الاخرى،

---

(١١) قضايا الأدب وضرورة إنتاجه ، أنطوان مقدسي ، تونس ١٩٧٨ ، ص٧٤ .

(١٢) المزهر : ٢١١/١ .

(١٣) نفسه : ٢١١/١ .

(١٤) نفسه : ٢١٠/١ .

فقد ارتفعت لغة قريش عن « عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن، وتضجّع قيس، وعجرفية ضبَّة، وتلتلة بهراء»(١٥). وغير ذلك مما اصاب اللهجات العربية الاخرى(١٦).

« والذين عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس، وتميم، وأسد، فإنّ هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أتكل في الغريب وفي الإعراب والتصرف، ثم هـذيل، وبعـض كنـانة، وبعـض الـطائيين، ولـم يؤخذ عن غـيرهم من سائر قـبائلهم»(١٧).

فلم يؤخذ عن حضري قطّ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فلم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسّان، واياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم من النصارى يقرءون بالعبرانية، ولا من تغلب والنمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد قيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز، لأن الذين نقلوا العربية صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم

---

(١٥) الخصائص : ١١/٢ . وانظر : الاقتراح ، السيوطي . حيدر أباد الدكن ، ص٢٢ والمزهر : ٢١١/١ .

والعنعنة ؛ إبدال همزة (أن) عيناً ، إذا وقعت أول الكلمة ، وأصحابها هم تميم ومن جاورهم من اسد ، وقيس ، والكشكشة : إبدال كاف المؤنث شيناً في الوقف ليتميز المذكر من المؤنث في هذه الحالة ، فيقولون : علِش ، ومنش ، ولها صورة أخرى ، وهي زيادة الشين بعد الكاف المؤنث ، لتظهر الكسرة عليها عند الوقف ، ويعرف المخاطب على حال حقيقته ، فيقولون: عليكش.، هي منسوبة لربيعة ومضر. والكسكسة : إبدال كاف المؤنث سيناً فيقولون : ابوس دامس ، ونُقل أنها زيادة سين بعد كاف المؤنث، فيقولون: عليكس وهي منسوبة لربيعة ومضر ، نسبها الحريري لبكر، ونسبها بعض العلماء لهوازن والتضجّع : هو لغة الخفض والدعة، والتضجيع في النطق هو التاني فيه والعجرفية : الجفوة في الكلام ، والتقعر فيه ، او السرعة فيه. والتلتلة : كسر تاء تفعلون ، تِقولون ، تِعلمون ، تِشهدون ، وغيرها .

(١٦) انظر : فقه اللغة . ابراهيم محمد نجا ، ص٣١-٣٤ .

(١٧) المزهر : ٢١١/١ .

وفسدت ألسنتهم »[١٨].

والتحديد المكاني لم ينفصل حتى عن المعايير النقدية، وخاصة فيما يتصل باللغة التي تبدو الخواص الجمعية فيها! أكثر وضوحاً . ففي ضوئها يحكم على النتاج الفني بالرفض أو القبول، والتحديد المكاني هذا قد جعل هناك تصوراً لنوع من الجماعية للنتاج الادبي، (فابن سلام) يخصّ (شعراء القرى العربية) بحديث مستقل في طبقاته، وهنّ خمس : المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة والبحرين، مما يشير الى أن تقسيم الشعراء على طبقات ليس إلا تأكيد لهذه الجماعية، وتبعاً لذلك تأخذ الخواص الفنية جماعية، « فاشعار قريش فيها لين يشكّل بعض الإشكال » و (كثيّر) شاعر حجازي، ومكانته غير منكورة عند أهله، لكنه كان منقوص الحظ عند غيرهم . قدم على (عبد الملك) فأنشده و (الاخطل) عنده . فقال له (عبد الملك): كيف ترى يا أبا مالك؟ قال:أرى شعراً حجازياً مقروراً لو ضغطه برد الشام لاضمحلّ »، ومن هذا المنطلق نسفه كان(أبو عمرو بن العلاء)يعيب جريراً والفرزدق بطول مقامهما في الحضر، كما أبطل الرواة الاحتجاج ببعض الشعراء لكونهم في الحضر[١٩] .

ولعل السبب الأساسي عند مَن تصدّوا لجمع اللغة في الأخذ من هنا، وعدم الأخذ من هناك، هو أن الذين أخذ عنهم قد اتخذوا لأنفسهم قياساً يتصرفون في ضوئه باللغة حين يحتاجون الزيادة فيها للتعبير عن حاجاتهم، قياساً لا يخالف ما كان سبق، لا في أصواته، ولا في تراكيبه، ولا في إعرابه، فاللغة عند هؤلاء إرث يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متّبَع، لا يخالف الثاني الأول، ولا الثالث الثاني.

وليس كذلك مَن لم يؤخذ عنهم من الحضر، فقد كان هؤلاء يتظاهرون بينهم بأنّهم قد تركوا، وخالفوا كلام من ينتسب إلى اللغة العربية الفصيحة، غير أنّ كلام أهل الحضر مضاهٍ لكلام فصحاء العرب في حروفهم وتأليفهم إلا أنهم أخلّوا من

---

(١٨) مقدمة ديوان الادب . الفارابي أبو نصر محمد بن محمد (ت . ٣٢٩ هـ) تحقيق وتقديم . د . أحمد مختار عمر، مجلة معهد المخطوطات العربية –المجلد الرابع،الجزء الثاني،القاهرة ١٩٦١، ص١٣١.وانظر: الحروف: الفارابي: تحـ.:د. محسن مهدي . بيروت ص ١٤٦ – ١٤٧ ، والمزهر: ٢١٢/١ .

(١٩) انظر : طبقات الشعراء ، ابن سلام . ص٨٧ ، وتجليات الحداثة في التراث العربي ، محمد عبد المطلب ، ص٦٨ .

إعراب الكلام الفصيح ...»[٢٠].

ولهذا كان الأصمعي قد جلس إلى أبي عمرو عشر حجج فلم يسمعه يحتج ببيت إسلامي.

وقد عاب (أبو عمرو بن العلاء) (جريراً) (والفرزدق) بطول مقامهما في الحضر وأبطل الرواة والاحتجاج بشعر (الكميت) و (الطرماح) لأنهما كانا حضريين . وكان (الأصمعي) أيضاً يقول : « وليس الكميت بن زيد بحجة، لأن الكميت كان من أهل الكوفة، فتعلّم الغريب، وروى الشعر، وكان معلماً فلا يكون مثل أهل البدو، وإنْ لم يكن من أهل الحضر »[٢١].

وانه « جرمقاني من جراميق الشام لا يحتج بشعره »[٢٢].

وروى (ابن نوفل) « قال : سمعت ابي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عما وضعت مما سمته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كلّه ؟ فقال: لا. فقلت: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات»[٢٣].

ومن هنا يمكن القول إنّ اللغة العربية المشتركة، لغة العرب جميعاً قد صبّت فيها لهجات العرب من مختلف بيئاتهم، ثم عمل المجتمع العربي في عمومه، وبكل قبائله وأمصاره على تطوير هذه اللغة، فلم يكن نموّها في قبيلة بعينها، أو بيئة واحدة . وانّما تقبّلت في نموها عناصر من جميع لهجات القبائل، وهي في الأساس لهجات تقترب إلى حدّ بعيد من الفصحى، وهذا ما يفسّر لنا أمرين مهمين :

أولهما : «سبب قرب اللغة الفصحى من كل لهجة [٢٤]. على الرغم من كون الفصحى أرقى صورة للعربية.

---

(٢٠) الخصائص : ٢/ ٢٩٠ .

(٢١) الموشح للمرزباني، المطبعة السلفية ، ١٣٤٣هـ ، ص١٩٢ .

(٢٢) الوساطة . القاضي الفاضل . تحـ . محمد ابو الفضل ، وعلي محمد البجاوي ، البابي الحلبي ، ص١٠ .

(٢٣) طبقات النحويين واللغويين الزبيدي . تحـ: محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص٢٢.

(٢٤) اللغة بين الوصفية والمعيارية ، ص ٦١-٦٢ . وانظر : الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة د . هاشم الطعان ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ١٣٧.

وثانيهما:إن هذه اللغة الفصحى ليست لغة مصنوعة كما يرى بعض الباحثين[٢٥]. ولم يكتف رواة اللغة وجامعوها، ومدوّنوها بتحديد المساحة التي عنها ينقلون ويسمعون، وإنما حرصوا على معرفة ألفاظ وعبارات من نقلوا عنهم، ورصد أذواقهم، ومقاييسهم الجمالية لا على مستوى الأفراد، وإنما على مستوى الجماعات، وفي أغراض معينة من الشعر التي كثيراً ما تتصل بحياةالعربي آنذاك، فكانوا يسألون الاعراب عن أجمل ما قيل في الغزل عندهم أو في الفخر أو الهجاء أو غير ذلك مما يشيع بينهم، ولم يكتف علماء اللغة ونقاد الادب بالتعرف على أذواق الأعراب فحسب، وإنما تناولوا الجزئيات التي تضمّها بعض الأغراض، بل قد يلجأ اللغوي إلى الأعراب محاولاً التعرف على ما يبدو له من مستغلق القول، فهذا (ابو عمرو) يقول عن بيت (لامرىء القيس):

نطعنهم سُلْكَى ومخلوجةً　　　كَرَّكَ لامين على نابـــــل

« كنت اسأل منذ ثلاثين سنةعن هذا البيت فلم اجد أحداً يعلمه حتى رأيت أعرابياً بالبادية فسألته عنه ففسّره لي »[٢٦].

وعلى الرغم من أنّ المنهج الذي اعتمده اللغويون العرب في جمع اللغة وتسجيلها يشير إلى عدم اهتمام اللغويين في القرن الثاني للهجرة – وهو الزمان الذي بدأ فيه جمع اللغة وتسجيلها – بالتنوع اللغوي في الجزيرة العربية، وقصروا اهتمامهم على تقرير فصاحة لغة القبيلة المعينة، أو عدم فصاحتها، فشغلتهم قضية الفصاحة هذه عن باقي القضايا الكثيرة التي يمكن طرحها في العمل اللغوي الميداني، ويشير أيضاً الى عدم محاولة اولئك اللغويين جمع الظواهر اللغوية من أجل بحثها بحثاً شاملاً، يُنسب لكل قبيلة كلّ ما عندها من ظواهر لغوية في حدود زمانية ومكانية معينة . وإنما قصروا همهم على تسجيل بعض الظواهر التي لفتت أنظارهم عند بعض القبائل، كذلك لم يهتموا باللهجات العربية الكثيرة، بعد أن قاسوها بمقياس اللغة الفصحى، وعدّوها فساداً لغوياً لا يجوز الأخذ به .

وبذلك لم يكن العمل اللغوي هذا تسجيلاً لجوانب الحياة اللغوية عند أبناء

---

(٢٥)　من هؤلاء (فوللرز) و (باول كالة) انظر : فصول في فقه العربية د. رمضان عبد التواب ، ص٣٣٤ .

(٢٦)　انظر : شرح ديوان امرىء القيس . أبو بكر بن عاصم البطليوسي . مصر ١٣٠٧ ، ص١٣٤ ، وانظر : النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري ، ص٣٣ وما بعدها .

العربية بكل مشاربها وألوانها التي يفترض أن يطمح إليها الدارسون والباحثون بل كان محاولة « للبحث عن الصيغ الفصيحة، والكلمات الفصيحة عند القبائل العربية التي يقترب استخدامها للغة من المستوى اللغوي المنشود ... وظلّ اللغويون في القرون التالية يقصرون عملهم على المادة اللغوية التي اعترف علماء القرن الثاني الهجري بفصاحتها، وبذلك حددت حركة جمع اللغة في هذا القرن في إطار النظرية العامّة للعمل اللغوي في القرون التالية، وظلت التعبيرات الشائعة في كتب اللغة مثل (لغة الحجاز) أو (لغة أهل الحجاز) أو (لغة تميم) أو (لغة هذيل) لا تعني الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل عموماً بل تعني الاستخدام اللغوي عند هذه القبائل في القرن الثاني الهجري وبذلك لا تختلف الظواهر التي عالجها (السيرافي) مثلاً في القرن الرابع الهجري، عن الظواهر التي ناقشها (السيوطي) في القرن التاسع الهجري، فهما يناقشان مثل باقي اللغويين العرب ما سجّله الباحثون في القرن الثاني الهجري، وعندما يذكر (ابن منظور) (ت: ٧١١ هـ) و (الزبيدي) (ت: ١٢٠٥ هـ) في لسان العرب وتاج العروس مجموعة من الملاحظات حول دلالات الألفاظ، فإنهما لم يسجّلا هذه الملاحظات عن الاستخدام اللغوي في القرن السابع أو القرن الثاني عشر للهجرة، بل نقلاها عن كتب تعود بدورها إلى كتب قام أكثرها على أساس ما جمعه اللغويون في القرن الثاني الهجري، وبذلك تعدّ حركة جمع اللغة في القرن الثاني الهجري أساس المادة اللغوية ونظرية اللغة عند أصحاب المعاجم العربية التالية »[٢٧].

ومع هذا فإنا لا نعدم بعض اللغويين في القرن الثاني الهجري أو في غيره، ممن حاولوا أن يخرجوا عن الطوق الذي فرضه غيرهم رافضين كثيراً من الصفات والاحكام الواجبة والجائزة، والممنوعة، والحسنة، والقبيحة، وغير ذلك مما أطلق على بعض الظواهر اللغوية عند من لهج بها من العرب، وعمل هؤلاء مما يفرضه واقع اللغة، ولا يرى ضرورة لمخالفته في كثير من الأحيان ما دام ذلك يمثّل واقعاً لغوياً مستخدماً، فكم تعلق أصحاب اللغة باستعمال أو حكم هـو في عرف اللغويين

(٢٧) انظر : شرح ديوان امرىء القيس . أبو بكر بن عاصم البطليوسي . مصر ١٣٠٧ ، ص١٣٤ ، وانظر : النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري ، ص٣٣ وما بعدها .انظر : شرح ديوان امرىء القيس . أبو بكر بن عاصم البطليوسي . مصر ١٣٠٧ ، ص١٣٤ ، وانظر : النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري ، ص٣٣ وما بعدها .

ممـنـوع ؟ ولكم تركوا استعمالاً أو حكماً آخر هو عند اللغويين صواب يجب اتباعه ولقد قال العرب قديماً « خطأمشهور خير من صواب مهجور »[٢٨].

وهذا يعني أنّ الوجوب في الأحكام ليس واجباً، فإنّ الحكم الخاطيء أو الممنوع بسبب ذلك الخطأ إذا شاع واشتهر، أصبح واجباً، وبذلك يصبح ذلك الواجب –الصواب– ممنوعاً لأنه هُجر وطرح من لدن المتكلمين. وكأنّي (بالكسائي) (ت: ١٨٩ هـ) قد فطن إلى ذلك إذ يقول: « فسألت (عيسى بن عمر) عن: همك ما اهمك. قال: فذهب يقول: يجوز كذا وكذا ويجوز كذا، قال: فقلت: عافاك الله، انما اريد كلام العرب، ولم تجيء بكلام العرب »[٢٩].

وكان (أبو حيان الاندلسي) (ت: ٧٤٥ هـ) يقول: « قال سيبويه: وسألت الخليل عن قوله: كيف تصنع أصنع. قال: مستكرهة، وليس من حروف الجزاء، ومخرجها عن الجزاء لأن معناه، على أي حال تكن اكن، والصحيح أنّ الجزم بها لا يجوز لأنه احداث لغة ... فلا يجوز الجزم إلا بسماع، وينبغي ايضاً ألا يجوز المجازاة من حيث المعنى إلا أن يثبت ذلك من لسان العرب بحيث تصير قانوناً كلياً يبني على مثله القواعد، ولا ينبغي أن تلتفت إلى مثل النحاة بقولهم : كيف تصنع أصنع، وكيف تجلس أجلس، وإنْ كان لا ينبو عنه الطبع، حتى يثبت دالّ من كلام العرب، فكم من كلام يقبله الطبع، وليس من كلام العرب»[٣٠].

ولكن أمثال (الكسائي)، و (أبي حيان)، وغيرهما لم يكونوا بالكثرة التي تؤثر في منهج اللغويين، وخاصة ابتداء من أواخر القرن الثالث الهجري . فلم يكتف غيرهما بالتسميات والنعوت التي أُطلقت على ما خالف سبيلهم في الأخذ والتسجيل والتعقيد، بل راحوا يستدلون على ما وجب من أحكام او جاز، أو امتنع أو ما كان منها حسناً أو قبيحاً، دون أن يضعوا للقبيح والحسن، والشاذ، والنادر، والاكثر، والكثير، والاقل، والقليل، معالم يعرف بها، ولا خصائص إذا توافرت في الحكم كان حسناً، وإذا انتفت منه كان قبيحاً، مما أدخل الدرس اللغوي في بلبلة، واضطراب ترفضه اللغة، لكون مسألة الحسن والقبح من مشمولات الاخلاقيات

---

(٢٨) انظر : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تاريخه ، أعماله ، محمد رشاد الحمزاوي ، ص٤١٣ .

(٢٩) مدرسة الكوفة . د . مهدي المخزومي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص١١٦ .

(٣٠) الرواية والاستشهاد باللغة . د . محمد عيد ، ص١٨٧ ، نقلاً عن التذليل والتكميل في شرح التسهيل لابي حيان الأندلسي .

والدين، ثم انهما مما ينبنى على التحكم، إذا اعتبرناهما مما يدخل في نطاق الذوق، والذوق لا يمكن بأية حال أن يحكّم في دراسة اللغة دراسة موضوعية.

إنّ اللغويين العرب حين قصروا (الصحة اللغوية) على قوم معينين وقصروها على زمن معين، وبيئة معينة، فنشأ في مخيلتهم ما يمكن أن يعبّر عنه بـ (دكتاتورية الزمان والمكان)على حدّ تعبير الدكتور ابراهيم انيس[٣١]، نجد ان لهذه (الدكتاتورية) جانبين.

اولهما: ايجابي تفرضه طبيعة المنهج الوصفي التي تقتضي تحديد الزمان والمكان في الدراسة المعينة .

وثانيهما : سلبي، لأنه لم يضع الفصحى في مستوى واحد من اللهجات الاخرى حين اخضع اللغة للدرس.

وعلى الرغم من أن سيبويه (ت ١٨٥. هـ) قد فطن إلى الفروق اللغويه بين اللهجات[٣٢]، إلا اننا نرى أن عدم وضع الفصحى في صف اللهجات قد فوّت علينا كثيراً مما نطقت به القبائل التي لم يعتد اللغويون بلهجاتها، في حين أن لهجات القبائل العربية على اختلافها يمكن أن تعدّ صحيحة، فصيحة وكلّ واحدة منها يصح الأخذ بها والقياس عليها[٣٣]، على الرغم من أن أكثرها أكثر شيوعاً، وأوسع نفوذاً، وأجمل وقعاً، ولكن هذا لا يوجب أن يُقصر عليه وحده، ولا يحول دون الاستشهاد بغيره، والاحتجاج به.

وانّ العربي قد يستخدم لهجة غير لهجة قبيلته، أو ألفاظاً غير ألفاظها، ويستغني بها عن لغته، او لا يستغني، وانه قد ينفرد بالابتكار والتجديد[٣٤]، وقد يكون ما تفرد به راجعاً للغة عربية قديمة وصلت إليه، ولم تصل إلى الناس[٣٥].

---

(٣١) من أسرار العربية . د. إبراهيم أنيس ، ط ٥ ، مصر ١٩٧٥ ، ص٣٦ .

(٣٢) انظر : الكتاب ، طبعة بولاق ، ٢٨/١ ، ٧٣ ، ١٨٧ ، و٤٠/٢ ، ٤٧ ، ٦٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٨٦ ، ٤٢٤ . وانظر : المزهر : ٢٧٥/٢ .

(٣٣) انظر : الخصائص، ٤١٠/١ . (باب اختلاف اللغات وكلها حجّة) .

(٣٤) انظر : الخصائص، ٤٢٤/١ ، وفيه : «ان العربي إذا قويت فصاحته وسمت لغته تصرّف وارتجل ، مالم يسبقه احد قبله به ؛ فقد حكى عن رؤبة وابيه انهما كانا يرتجلان الفاظاً لم يسمعاها ، ولاسُبقا اليهما » .

(٣٥) اللغة والنحو بين القديم والجديد ، الاستاذ عباس حسن ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ ، ص٤٠ .

وإنّ قصر اللغويين الاخذ عن قبائل معينة قد ترتّب عليه جمع اشتات مختلفة من خصائص اللغة المختلفة، واللهجات في تلك القبائل، مع أنّ لكل منها خصائص تنسجم مع عناصرها الأخرى، ولا يمكن أنْ يُفترض هذا الانسجام إذا اختلطت بغيرها، فاذا زيد على هذا المدى الزمني الطويل الذي لم يدرس بهذا الوصف بل درس على انّه مدى واحد، ومرحلة واحدة، واخذ في الاعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار، وانّ لكل مرحلة منها خصائص مستقلة قد تكون جديدة تماماً، او متجددةعما سبقها يكشف لنا عمل اللغويين هذا في موقف لا يتفق مع صفة اللغة الاجتماعية، وترتب عليه هذه التركة المثقلة بالأقيسة المتعددة المتضاربة وإلى التمارين غير العملية، وإلى نوازع القسر والوجوب والفرض في مسائل اللغة، ويكشف لنا أيضاً عن سرّ ثورات بعض اللغويين التي لم يكتب لها النجاح[٣٦]، وإلى تعارض واضح بين الطبع اللغوي، وبين القيود اللغوية التي أراد اللغويون فرضها على المتكلم، والمحاورة بين (الفرزدق) و (عبد الله بن إسحق الحضرمي) خير دليل على ذلك، فقد خاطب (الفرزدق) (عبد الملك بن مروان) بقصيدة منها :

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا او مجلّفُ

فقال (الحضرمي) : علام رفعت : مجلّف.

فقال (الفرزدق) «على ما يسوءك وينوءك،علينا أنْ نقول وعليكم أنْ تتأولوا»[٣٧].

وهكذا وجدنا خلطاً بين المستوى النحوي – وهو قواعد صارمة– والمستوى اللغوي – وهو كائن متحرك متأثر – وظهر على صحيفة اللغة كثير مما نُعت بالكثير او القليل، او النادر، او الشاذ، او القبيح، وغيرها من النعوت التي لم يستطع اللغويون تفسير المراد منها بدقة، وكل ما يمكن فهمه في ضوئها انها تدعو الى صورة مثالية للغة، لا يمكن أن نلحظ خلالها حركة اللغة، او رصد تطورها في ضوء الواقع والتاريخ، ما دامت الحياة الجمعية في تبدل وتغير، بما يلزم اللغة أن تساير هذه الحياة فتبدّلها وتغيرها، وتعدد شؤونها، وتنوع اتجاهات حاجاتها، فيتسع من اللغة متنها وتزيد مفرداتها بالوضع او الاشتقاق او الاقتباس، وتسمو أساليبها،

---

(٣٦) من ذلك ثورة ابن مضاء القرطبي في كتابه : الرد على النحاة . حققه وقدم له . د . شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٤٧ .

وانظر : أصول النحو العربي . د . محمد عيد ، مصر ١٩٧٣ ، ص١٢٣.

(٣٧) نزهة الألباء لابي البركات بن محمد بن الانباري ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٧٠ ، ص٢٧–٢٨ .

وتتباين فنون القول فيها.

«إنّ الصورة المثالية القديمة التي كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر، ولا يقول بها، فقد أصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة، فاللغة المثالية هي تلك التي تصدر عن روح العصر، وتتمشى مع حاجاته ومطالبه على أخصر صورة، وأوضح مظهر»[٣٨].

ورحم الله صاحب شرح (درة الغواص) الذي قال: «لو اقتصرنا في الألفاظ على ما استعمله العرب العاربة والمستعربة حجّرنا الواسع وعسر التكلم بالعربية على من بعدهم»[٣٩].

إنْ مسألة الصواب والخطأ في اللغة مسألة نسبية، فالصواب صواب بالنسبة إلى ظروف معينة تمرّ بها اللغة اجتماعياً، وتاريخياً، وبالنسبة إلى النموذج الذي يقاس إليه، ومستوى هذا النموذج، سواء اكان من اللغة الادبية أم من لغة التأليف، والكتب، بالنسبة إلى مستوى اللغة ذاتها، فصحى كانت أم عامية. وهكذا تتحكم النسبية في المشكلة التي شغلت جانباً كبيراً من مناقشات العلماء والادباء خلال القرون[٤٠].

(٣٨) في اللغة والأدب. د. ابراهيم بيومي مدكور، دار المعارف، مصر ١٩٧١.

(٣٩) شرح درّة الغواص في أوهام الخواص (للحريري)، لاحمد شهاب الدين الخفاجي، الطبعة الاولى، الجوانب – قسطنطينية ١٢٩٩ هـ، ص٧٠.

(٤٠) في علم اللغة العام. د. عبد الصبور شاهين، ط ٣ بيروت ١٤٠٠ هـ –١٩٨٠م، ص٢٤٠.

وكأنني بالعالم العربي الجليل (ابن جني) قد أدرك هذه الحقيقة فلم يرفض مبدأ وجود توحّد لغوي عربي بفعل اتصال القبائل العربية بعضها ببعض وإنْ تباعدت هذه القبائل مكانياً وبهذا الاتصال سمع العربي لغة غيره فيراعيها ويعتمدها، أو يلغيها ويّطرح حكمها[41].

ولهذا ساوى(ابن جني) بين اللغات، وكان الفيصل عنده هو الاستعمال، فكل ما جاء عن العرب صواب[42]، لأن اللغة ملك مشترك للمجتمع، ونشاط اجتماعي فمن البداهة أن يتّسع باب القياس اللغوي وتُستقرأ اللغة ويقرر واقعها دون وجوب أو جواز أو إلزام، وليس من حقّ أحد أن يحكم على ظاهرة لغوية بالصواب أو الخطأ دون أن يبني حكمه في ضوء حكم السلطة العليا، أعني (العرف الاجتماعي) القائم بين من ينطقونها، « وأقصى ما يمكن أن نطالبَ به اللغويين هو القواعد المتفقه مع الاستعمال وليست القواعد التي تتحكم في سلوك اللغة »[43].

ومع هذا كلّه فإنا نبقى نؤكد أنّ المنهج الذي اعتمده اللغويون العرب في جمع اللغة واستقرائها،لايخلو من خصائص موضوعية بارزة يقرّها علم اللغة الاجتماعي المعاصر، وتُدلّ على حقيقتها وعلميتها كلّ الدراسات والبحوث التي أقيمت في هذا المجال، ومن أبرز هذه الخصائص ما يمكن بيانه بالآتي :

أولاً : إنّ وضع الحدود بين اللهجات وقبائلها، وإنْ لم يأخذ صورة علمية صارمة تهتم بإيجاد خرائط مفصلة عن وجود الظواهر اللغوية المعينة وانتشارها، بما يساعد في النهاية على تكوين (الاطلس اللغوي) الخاص بلهجة أو مجموعة من اللهجات، أو بلغة أو مجموعة من اللغات، كما الحال اليوم إلا أنّ فضل اللغويين العرب القدماء يشير إلى وجود فكرة (الجغرافية اللغوية) لديهم، على الرغم من كون هذه الاعراب في البوادي، ونسبوا كلّ ما سمعوه إلى قائله، أو إلى قبيلته، وحين وضعوا المسموع والمروي في مقابل ما يروونه من المستوى نفسه عن بدوي آخر، من قبيلة اخرى، وحين ميّزوا في رواياتهم بين بعض القبائل التي يصفونها بالفصاحة، وهي قبائل شمالي الجزيرة، ووسطها، وشرقها، في مقابل الحدود والتخوم التي يرون

---

(٤١) انظر الخصائص : ١٥/٢ . وهامش رقم (٧).

(٤٢) انظر الخصائص (باب فيما يرد عن العربي مخالفاً لما عليه الجمهور) جـ ٣٨٥/١ .

(٤٣) الرواية والاستشهاد باللغة ، ص٦٩ .

أن لغاتها (تأشبت) أي : فسدت، بتأثير القبائل المجاورة، فقبائل اليمن متأثرة بلغة الحبشة، وقبائل لخم وجذام متأثرة بمصر وباللغة القبطية وقبائل الغساسنة أو المناذرة متأثرةبمجاوريها من الفرس والرومان.

وقد أصبح اليوم كما هو معروف من أهداف الدراسات اللغوية الحديثة، وفي ظل علم جديد سمّاه (سوسور) بـ (علم اللغة الجغرافي)[٤٤] Linguistique Geographique، بيان أوجه العلاقةبين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها، بما يشبه صنيع اللغويين العرب القدماء ومحاولتهم وضع الحدود بين اللهجات والناطقين بها، على الرغم من أن (سوسور) ومن تابعه قد قدّموا «دراسات عميقة عن تنوع اللغات واختلافاتها الجغرافية، وتعايش لغات عديدة في مكان واحد، وعن قضايا اللغة الأدبية واللهجات المحلية، وعوامل الاختلاف الجغرافي، وأثر الزمن في هذا الاختلاف، وتأثيره كذلك على الرقعةالجغرافية، وغير ذلك مما لم يُسبق اليه بكمّه، وكيفه، ومعطياته العلمية[٤٥]».

ثانياً : إنّ العامل الحضاري عند اللغويين العرب القدماء هو الحدّ الفاصل بين السلامة اللغوية وعدمها، وهو كذلك الأساس في الأخذ والتسجيل أو عدم الأخذ، فكلما كان المصدر البشري للغة منعزلاً عن المؤثرات الحضارية، والتأثر بلغات أخرى نتيجة للاحتكاك الاجتماعي[٤٦] . كان هو المؤشر على سلامة المصدر اللغوي ونقائه من شوائب الفساد اللغوي، وقد حدّد اللغويون القفار التي يصح عنها الأخذ والمناطق التي لا يصح عنها ذلك وأساس هذا التحديد هو البعد عن المؤثرات الحضرية حيث القفار النائية عن العمارة، وسبق أنْ سقنا رأي (ابن سنان الخفاجي) (ت: ٩١١ هـ) بقوله « لو علم أنّ اهل المدينة باقون على فصاحتهم لم يعرض للغتهم شيء من الفساد، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر، وكذلك لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من الخلل والفساد لوجب رفض لغتها »[٤٧] .

(٤٤) انظر : علم اللغة العام ، سوسور . ص١٤ ، وما بعدها .

(٤٥) انظر : في علم اللغة العام . د . عبد الصبور شاهين ، ص ١٥٠-١٥١ .

(٤٦) انظر : هامش رقم (١٠) ص٩٣ .

(٤٧) الاقتراح : ص٢٤ .

ثالثاً : إنّ الطريقة التي اتبعها اللغويون العرب في جمع اللغة تؤكد صفة اللغةالاجتماعية بوصفها ظاهرة اجتماعية لا تخصّ رواةاللغة والمهتمين بشؤونهافي ذلك الزمان، وإنما هي ملك المجتمع، فجمعها ودراستها تقتضي فهم البناء الاجتماعي نفسه، والإحاطة بعاداته، وأعرافه، وأذواقه، بما هيأ لنا تراثاً ضخماً ينبيء عن إدراك القدماء أنّ اللغة العربية كانت آنذاك عرضة لغزو لغوي خارجي، ولتأكيد وترسيخ هوية هذه اللغة، والحفاظ على نقائها راحوا يتقصونها – ما وسعهم الى ذلك سبيل – في بطون القبائل البدوية حيث تكون خالية من الشوائب التي قد تعلق بها في المدن والحواضر وعلى ألسنة العامة من الناس، بما يخرجها عن أصولها العربية التي حددوها، وقد اهتموا في الوقت نفسه بلغة الحواضر، وراحوا يسجّلون ما أصابها من لحن فوضعوا كتباً كثيرة تعالج بعض جوانب اللهجات، وما فيها من انحراف عن القيود الصوتية والبنائية والتركيبية المعتمدة في الحكم على فصاحة اللغة أو عدم فصاحتها. فقد وضع (الكسائي) (ت : ١٨٩ هـ) كتاباً : في (لحن العامة) او (ما تلحن فيه العوام)، وقد عُدَّ هذا الكتاب أوّل ما وصل إلينا في هذا الضرب من التأليف، وحذا نفر من اللغويين حذو (الكسائي)، ومن هـؤلاء (الفراء) (ت: ٢٠٧ هـ)، و (أبو عبيدة معمر بن المثنى) (ت:٢٩٠ هـ)، ووضع (ابن السكيت) (ت: ٢٤٤هـ) كتاباً في (إصلاح المنطق) و (ابن قتيبة) (ت : ٢٧٦ هـ) كتاباً في (أدب الكاتب)، و (أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي) (ت: ٣٧٩ هـ) كتاباً في (لحن العامة)، و (ابن الإفليلي) (ت: ٤٤١هـ) كتاباً في (شرح الخلل الواقع في الجمل)، و(ابن الجزري) (ت: ٥٧٩ هـ) كتاباً في (تقويم اللسان)، وغير ذلك كثير مما حاول به أصحابه تنقية اللغة والتوجه إلى فصيح الكلام ومقاومة اللهجات العامية.

وتعدُّ هذه الكتب سجلاً لأغلب الالفاظ، والمعاني المستعملة في لهجات الخطاب في البيئات العربية المختلفة، مما تهتم به الدراسات اللغوية الاجتماعية وما سنأتي على بيانه في مواضعه .

رابعاً : واخيرا فإنّا نجد في العمل المعجمي عند العرب في بعض أوجهه ضرباً من ضروب الدرس اللغوي الاجتماعي، فعلى الرغم من تحكّم المعجمات المطولات في الاستعمال اللغوي بما أخرجها عن أن تكون وصفاً للاستعمال الفعلي

للغة وسجلاً لها إلى أنْ تصبح معايير يقاس بها « خير استعمالات الكلمات»[48] فانا نلحظ أنّ المعجميين واللغويين العرب قد وضعوا كتباً اختصت بناحية لغوية معينة يمكن تقسيمها بحسب موادها على الأقسام الآتية:

أولاً : كتب النوادر

وهي كتب تبحث في الألفاظ العربية التي لم يشك في أصلها العربي، ولكنها لم تجر كثيراً على ألسنة العرب آنذاك، أو أنها تدوّن الألفاظ الغريبة من لغات القبائل وممن ألّف في موضوع النوادر اللغوية هــذه يُذكــر (أبو عمرو بن العلاء) (ت: ١٥٧ هـ)، و (القاسم بن معن الكوفي) (ت: ١٧٥ هـ)، و (يونس بن حبيب) (ت:١٨٢ هـ)، و (الكسائي) (ت: ١٨٩ هـ)، و (الفراء) (ت: ٢٠٧ هـ)، و (الأصمعي) (ت: ٢١٥ هـ)، و (الأخفش) (ت:٢١٥ هـ)، و (أبو زيد الانصاري) (ت: ٢١٥ هـ). ولم يصلنا من آثار هؤلاء إلا نوادر أبي زيد الانصاري.

ثانياً : كتب لغات القرآن

وقد اهتمت بما ورد في القرآن الكريم من لغات العرب، ومنها : كتاب (اللغات في القرآن) (للفراء)، الذي أحصى «محققه عدد الألفاظ معزوة للقبائل فوجد أن لقريش مئة وأربعة ألفاظ، ولهذيل خمسة وأربعين، ولكنانة ستة وثلاثين، ولحمير ثلاثة وعشرين، ولجرهم واحد وعشرين، ولتميم وقيس وعيلان ثلاثة عشر، وقبائل أخرى بلغت اثنتين وعشرين قبيلة ترددت ألفاظها بين لفظة واحدة وستة الفاظ»[49].

وهناك كتب اهتمت بإيراد الالفاظ التي عُدت غريبة عن العربية منها : غريب القرآن، (لأبي عبيدة)، و (لسعيد بن تغلب البكري) (ت: ١٤١ هـ)، و (لابن سلام الجمحي) (ت: ٢٢١ هـ) .

---

(٤٨) دراسات في اللغة . د . ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦١ ، ص١٣٣ .

(٤٩) اللغات في القران ، المسند لابن عباس ، تحـ . د . صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م ، ص٦-٨ .

ثالثاً : كتب المعرّب والدخيل[٥٠]:

التي حاول اصحابها فيها جمع ما عُدَّ دخيلاً على العربية من اللغات الاجنبية كالفارسية، والرومية والآرامية وغيرها، ومن أشهرها نذكر كتاب (الغريب المصنّف) (لأبي عبيدة القاسم بن سلام) (ت: ٢٢٤ هـ) و (أدب الكاتب) (لابن قتيبة) (ت: ٢٦٧ هـ)، و(المعرّب من الكلام الاعجمي) (لأبي منصور الجواليقي) (ت: ٤٦٥ هـ) وغيرها مما سنتحدث عنه في موضع لاحق.

رابعــاً :كتب المعاني

وقد اهتمت بتسجيل مستوى بعينه من مستويات اللغة وفي موضوع واحد فهناك كتب في : خلق الانسان، والخيل، والشجر، والحلي، والماء، والمطر، والإبل، والسلاح، وغيرها مما يتعلّق بالانسان وحياته الاجتماعية[٥١]، مما يُعد مرحلةاولى من مراحل تدوين اللغة وجمع نواة معجمها، ويعدّ أيضاً أساساً في الدراسات اللغوية الاجتماعية، بل إنه من أهم فروع هذا العلم المعاصر، التي تطمح إلى بيان أوجه الاستخدام اللغوي المعين في البيئة والزمان المعينين، وما جرى لهذا الاستخدام من تطور عبر الزمان والمكان.

كما إن المتأمل هذه المؤلفات يجد أن اللغويين العرب القدماء ممن اهتموا بمثل هذا النوع من التآليف قد فطنوا إلى الفروق الدقيقة بين دلالات الألفاظ، وصرفوا جهداً كبيراً في تسجيل الألفاظ الدالة على المعاني الخاصة بشؤون الحياة في المجتمع الكلامي الواحد، أو في المجتمعات المتعددة على الرغم من صعوبة البحث في مثل هذا المجال لتداخل المعاني أحياناً، أو تضادها أو اشتراكها أحياناً أُخرى.

---

(٥٠) المعرب : هوالكلمات التي نقلت من اللغة الاجنبية إلى العربية سواء وقع فيها تغيير ام لم يقع، والدخيل :هو اللفظ الأجنبي الذي دخل العربية دون تغيير.

(٥١) انظر فيها : المعجم العربي : نشأته وتطورهُ . د . حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ ، الجزء الاول.

المبحث الثاني

تطــــوّر اللغــــــة

ذكرنا فيما مرّ من صفحات إنّ اللغة هي المحور الرئيسي لحركة التاريخ الإنساني بأسره، وهي لهذا في تفاعل لا ينقطع مع المجتمع الناطق بها، وأنّها من أخطر الظواهر الاجتماعية التي تصاحب سلوك الناس في كلّ لحظة، وترافق المجتمعات في أطوارها التاريخية المتلاحقة، فيصيبها ناموس التغير، ولما كانت الظواهر الاجتماعية من عادات وأعراف وتقاليد وأنشطة تتطور، فكذلك اللغة في جريان واندفاع مستمرين. في أية فترة كانت من وجودها، وفي أية بيئة عاشتها، وهي في تطورها الدائم المستمر هذا إنما يتنازعها عاملان متناقضان «تجاهد اللغة في الاحتفاظ بتوازنها بينهما، وبقدر احتفاظها بهذا التوازن يكتب لها طول العمر بين الناطقين بها، وهذان العاملان هما : عامل المحافظة من ناحية، وعامل التطور من ناحية اخرى »[1].

أما عامل المحافظة، فكان دائماً كابحاً التطور اللغوي، لأنه ينطلق من فكرة أساسية على جانب كبير من الأهمية، وهي أن اللغة تراث قومي، وقد يكون – دينياً أيضاً – تقتضي الأمانة الحفاظ عليه، والاعتزاز به كما كان على عهد السلف ولهذا أصبحت النصوص المقدسة مثلاً في بعض اللغات نماذج لغوية عليا، وحواجز صارمة في وجه التطور اللغوي الطبيعي، كما هو الحال في اللغة اللاتينية التي ماتت في اوربا لغة للتخاطب بعد سقوط الدولة الرومانية بقليل، ولكنها ظلّت مع ذلك لغة التعليم في اوربا كلها قروناً طويلة بعد هذا التاريخ، لأن المثقفين هناك كانوا يرون فيها لغة الكنيسة، ولغة البابوات، ولغة الطقوس والصلوات في الكنيسة الكاثوليكية.

وعند العرب كان القرآن وما زال نصاً مقدّساً، ومعجزة بلاغية وبذلك خفّت قيوده اللغوية على الكتّاب والمؤلفين، واستطاعوا أن يبنوا حضارتهم الفكرية على تطور لغوي أكثر مرونة وأقل تعنّتاً . « لأن القرآن الكريم لم يلزم العرب على تقليده، كما هو الحال فيما يظنّه المسيحي الكاثوليكي في قرارة نفسه، من أنّ الكتاب

(١) اللسان والانسان ، ص٩٨ .

المقدّس في ترجمته اللاتينية (الفولجاتا) التي كتبها القدّيس (جيروم) نمطٌ يجب تقليده، بل أن العربي قد آمن في قرارة نفسه بأن القرآن الكريم معجزة لا يمكن تقليدها »[٢].

ومع هذا فإنّ ارتباط اللغة العربية بالدين الجديد قد أثراها، وساعد على انتشارها وخلّدها خلود القرآن «فلم يحدث حدث في تاريخ اللغة العربية،أبعد أثراً: في تقرير مصيرها من ظهور الاسلام . عندما رتّل محمد (ص) القرآن على بني وطنه، بلسان عربي مبين، تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج في مستقبل هذه اللغة، ولا ينحصر هذا في المقام الذي أخذته العربية منذ ذلك الوقت في العالم الاسلامي كله، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الإطلاق، بل يتجاوزه بمقدار أعظم إلى النتائج التي تركتها غزوات الفتح على أيدي عرب البوادي، تحت راية الإسلام في لغتهم، وبذلك صارت العربية لغة الطبقات الموجهة في دولة سرعان ما امتدت رقعتها في اوج عظمتها من اسبانيا غرباً، الى اواسط آسيا نحو الشرق »[٣].

إن العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها، وتثبيت هذه القومية وإحيائها علاقة خطيرة الشأن، حتى أنه من الممكن بعث لغة طال موتها كما فعلت (إسرائيل) في بعث العبرية في العصر الحاضر كي تجتمع عليها اليهود مختلفو الالسنة، وقد نجحت في ذلك أيما نجاح، في بعث لغة كانت حتى القرن التاسع عشر لغة منحسرة الظل والفعل الحضاري يلغو بها شتات من الناس متفرقين، فأصبحت العبرية اليوم لغة الحضارة والعلم الاسرائيلي المتطور.

ومن مظاهر اعتزاز الامم بلغاتها القومية أن يتخذ أصحابها، كلهم أو بعضهم مواقف عدائية نحو كل دخيل، من أجل تقليل هذا الدخيل، أو نبذه وتحريم استعماله. «ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث في اللغة الألمانية في القرن العشرين حيث تم تطهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانية

---

(٢) نفسه ، ص١٠٠ (بتصرف) .

(٣) العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فك . تر . : د . عبد الحليم النجار ، دار الكتاب العربي – مصر ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١م ص١ .

لهــا »[١].

أما عامل التطور فهوالجريان التاريخي والطبيعي لعناصر اللغة هذا الكائن الحي الذي « يخضع للتطور الدائم في حياته «كما يقول (شلايشر)»[٥]، ويصلح أن يكون « معياراً دقيقاً لرقي الأمة وانحطاطها في ميدان الثقافة والعلم والحضارة »[٦]، وما يسير عليه الناطقون في شؤونهم الاجتماعية، فعقائد الأمة، وتقاليدها، وما تخضع له من مبادىء في نواحي السياسة، والتشريع، والقضاء، والتربية، والأخلاق، وحياة الأسرة، وما تعتنقه من نظم بصدد العمارة، والنحت، والرسم، والموسيقى، وسائر الفنون، والأنشطة الإنسانية الاخرى، كل ذلك يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها : في الأصوات، والمفردات، والدلالة، والقواعد، والأساليب ... وهلم جر[٧]. فكل تطور يحدث في ناحية من تلك النواحي يتردّد صداه في اللغة، وسواء أكانت اللغات الحديثة صوراً متقدّمة عن اللغات الإنسانية البدائية أم انّها بشكلها الحديث ليست سوى تبسيط، وتسهيل للغات البدائية « التي كانت تتصف بتركيب معقد من حيث قواعدها، ونوعية وعدد مفرداتها[٨]، وإنّ الانسان قد عمد في مختلف مراحل حضارته إلى الاختصار من القواعد اللغوية، وتبسيطها لكونها عبئاً على ذاكرته وعلى جهازه الناطق.

أقول، سواء أكان هذا ام ذاك، فإنّ اللغة لم تنشأ طفرة واحدة ولم تكتمل لها الوسائل التعبيرية دفعة واحدة[٩]، بل تتمو بنمو الإنسان فكراً ووعياً وتحضراً، ولهذا كانت اللغة وستظل في تطور دائم تبعاً لتطور النشاط الإنساني، ومقتضيات الحياة

---

(٤) اللغة والمجتمع : راي ومنهج . د . محمود السعران ، بنغازي ١٩٥٨ ، ص٤٥ .

(٥) Mautice Loroy The Main Trends in Modren Linguistics English Translation by , G. Price Oxford . 1967. p. 15.

(٦) الاعلام ولغة الحضارة . عبد العزيز شرف ، مجلة اللسان العربي . المجلد ١١ جـ١،الرباط ١٩٧٦ ، ص٣٣٣ .

(٧) اللغة والمجتمع . د . وافي ص١١ .

(٨) Otto Jasperson. Language Its Nature Development and Origin, London : Allen and Unein 1922 p. 102.

(٩) اللغة في إطارها الاجتماعي ، ص١٧ .

الاجتماعية شؤونها، من انتقال، أو احتكاك الجماعات الناطقة بغيرها، فتنشأ ألفاظ، وتهجر أخرى، أو تنقرض انقراضاً تاماً[١٠].

بل قد تنقسم اللغات على لهجات، أو تبعد اللغة فتكون لغات، فعوامل نشوء اللهجات واللغات واحدة، والاختلاف بين النشوءين كميّ، وهذا ما التفت إليه العالم العربي (ابن حزم) (ت:٤٠٢ هـ) فأوضحه تمام الوضوح، إذ جعل أسباب اختلاف اللغات العربية، والسريانية، والعبرانية تمام الوضوح، كأسباب الاختلاف بين لهجه (فحص البلوط) و (قرطبه)، وبين الأندلسي والقيرواني، تبدلت بتبدل مساكن أهلها واختلاف بيئاتهم وتقاليدهم، وظروف معيشته فقال: «إن الذي وقفنا عليه، وعلمناه يقيناً أنّ السريانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة – لا لغة حمير – لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الاندلسي إذا رام نغمة اهل القيروان، ومن القيرواني إذا رام نغمة الاندلسي، ومن الخراساني إذا رام نغمتنا.

ونحن نجد من سمع لغة أهل (فحص البلوط)، وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد أن يقول إنّها لغة غير لغة (أهل قرطبة) وهكذا في كثير من البلاد فإنّه بمجاورة اهل البلدة بأمّةٍ اخرى، تتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على مَن تأمّله، ونحن نجد العامة قد بدّلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً، وهي في البعد عن اصل الكلمة كلغة اخرى، ولا فرق، فنجدهم يقولون في (العنب): العينب، وفي (السوط):اسطوط، وفي (ثلاثة) دنانير: ثلثاث، واذا تعرّب البربري فأراد ان يقول:الشجرة، قال : السجرة، واذا تعرّب الجليقي ابدل من العين والحاء والهاء فيقول: مهمد، إذا أراد أن يقول محمد. ومثل هذا كثير. فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أنّ اختلافها من نحو ما ذكرناه من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان

---

(١٠) يشير ابن سيده في مخصصه كثيراً إلى انّ اللفظة المعينة مماته ، وذلك يعني استجابة اللغة الى الحياة ، فتميت الفاظاً وصيغاً لاشك في أصالتها لمجرد انّ الحياة الاجتماعية لم تعد تهضمها .

وكذلك فعل الفراهيدي في (العين) فذكر المهمل من الألفاظ ، أو غير المستعمل .

ومجاورة الأمم، وأنّها لغة واحدة في الأصل »[11].

وهذا التطور اللغوي مرهون بعوامل سياسية، واجتماعية، ونفسية، وجغرافية، ولغوية، ودينية، وعوامل شعبية تتحدد في الفروق بين الأجناس والفصائل الانسانية، وجسمية تتحدد في التكوين الطبيعي لأعضاء النطق وغيرها من العوامل التي كتب فيها الكثير[12].

والذي يعنينا من ذلك أثر المجتمع في اللغة، وهو المؤثر المباشر بل أن «أهم المؤثرات في مختلف ظواهر اللغة ترجع إلى أمور تتعلق بالحياة الاجتماعية نظم العمران »[13].

وإننا « بالوقوف على المراحل التي اجتازتها اللغة، وفي ضوء خصائصها في كل مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مرّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم»[14].

فقد يضع المجتمع المعين بمحض ارادته الفاظاً جديدة يسمّي بها ما يستجد في حياته من صناعات ومبتكرات، او ما يعبّر عنه (ابن جني) بـ « اختراعات الصناع لآلات صنائعهم »[15] فيسمّي كلاً منها بإسم، وكلما اكتشف الانسان في الطبيعة شيئاً ازداد ثراء فكره، وثراء لغته، فحين اكتشف الحديد فتح آفاقه على عمليات حسيّة كثيرة كصنع الفؤوس، والاسلحة، وعلى اعمال تستدعيها هذه المخترعات كأعمال القنص والصيد واساليبهما، والحفر التراب، والزراعة، والنبات، والنمو، وهذه الانشطة تحتاج بالضرورة الى اسماء من اللغة، وجد الفكر الانساني نفسه غير عاجز عن اختراعها بارتجالها، او توليدها من كلمات سابقة، وهكذا نجد

---

(١١) الاحكام في اصول الاحكام . ابن حزم . جـ ٣٠/١ . وانظر : مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية . د . هاشم الطعان . الموسوعة الصغيرة (١٩) بغداد ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م ، ص٤٣ .

(١٢) انظر على سبيل المثال : اللغة والمجتمع . د . وافي . ص٨ -٩٤ ، واللغة والمجتمع رأي ومنهج. د . السعران ، ص٣٨ وما بعدها .

(١٣) علم اللغة . د . وافي ، ط ٧ ، ص٢٩٧ .

(١٤) نفسه : ص٢٥٧ .

(١٥) الخصائص : ٤٥/١.

أنّ مفهوم الكلمة مرتبطة بمحيطه، واذا عجزت اللغة عن التعبير عن ظروف الحياة المستجدة، فقد يُقضى على معالمها.

أو قد يَهْجر المجتمع ألفاظاً لأن مسمياتها لا تعدو طرفاً في حياته، فتطور اللغة داخل المجتمع لا يكون دائماً بمعنى التقدّم والارتقاء، فالثورات الاجتماعية لا سيما الفكرية، بسبب ما تؤدي إليه من تبدل الأشياء التي يراها الانسان، أو يستعملها، أو تبدّل المفاهيم التي يؤمن بها، تؤدي في غالب الأحيان إلى تطور لغوي، فالمبدع يستوحي هذا العالم بما فيه من مادة الطبيعة، وتجارب المجتمع، حتى اذا شعر ازاءه بشعور جديد احتاج الى الفاظ جديدة تعبّر عما يحسّ به، فاذا وفّق في اصطناعها، واذاعتها في البيئة المعينة، صارت جزءاً من جسد اللغة العام، وحينئذٍ يفقد المبدع احساسه الذي صاغه بكلمات ويصير عرضة لإحساس جديد، والفاظ جديدة، وهكذا دواليك . وقد يكون سبب التطور شخصاً ذا مكانة خاصة بين جماعته، بحيث يستحق التقليد والمحاكاة منلدن المحيطين به، ثم ينتشر هذا التقليد الجديد الى دوائر ومجموعات اخرى، وخير مثال على ذلك ما يسمّى بـ (الضرورة الشعرية) من حيث هي مظهر من مظاهر الخروج على الاستعمال العادي للغة، وتعبير عن الارادة الشعرية الخلاقة التي تتجلى بها الخصائص الفردية للأديب على مستوى الالفاظ والتراكيب . وهي لهذا « ليست دليلاً على قصور لغة الشاعر وعجزه عن استيفاء حقوق العمل الشعري – كما يـظن الــكثير –، بل هي عكس ذلك، من مظـــاهر اقــتدار الشاعر ونشــاطه الخــلاق»[16].

فالشاعر لا يخرج عمّا عليه الاستعمال اللغوي للألفاظ والعبارات إلا ليبلغ بالتعبير مستوى آخر من مستويات الاستعمال الواقعة في اللغة، أي أن الشاعر يظل محدوداً بدائرة اللغة لا يتجاوزها . أما اذا لم يبلغ بالتعبير مستوى له وجود حاصل في اللغة فهذا من قبيل الخطأ الذي لا يجوز في الشعر، او الكلام . وقد دل سيبويه (ت :١٨٠هـ) على ذلك في (باب ما يحتمل الشعر) قرر فيه : « ليس شيء يضطرون اليه إلا وهم يحاولون به وجهاً آخر »[17]. و « لو اضطر شاعر فأضاف الكاف الى نفسه، قال : ما انت كِي، وكَيْ خطأ، من قِبل أنه ليس في العربية حرف

(١٦) الضرورة الشعرية ، دراسة أسلوبية ، السيد ابراهيم محمد ، ط٢ ، دار الاندلس ، بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١م ص١٢٧ .

(١٧) الكتاب . طبعة بولاق ١٣/١ .

قبل ياء الاضافة »[١٨].

وعندي أن التجديد اللغوي على مستوى الافراد لا يُنكر أو يرفض إلا اذا أقصى عرفاً لغوياً قائماً ومعتمداً من لدن الجماعة الناطقة، وذلك بالخروج على سنتها في القياس، أو لم يُبلغ به وجهاً آخر مقبولاً يمكن في ضوئه أن يدخل في مجال البحث اللغوي بعد اعتماده وشيوعه في المجتمع المعين « ولو ظل على هذا المستوى الفردي لما كان موضوع بحث في علم اللغة »[١٩]. فإذا كان العرف هو الذي يحدّد المقاييس الاجتماعية من عادات وتقاليد ودين، وطرائق معيشة، فالصحيح أنّ العرف هو الذي « يحدد معايير الاستعمال في اللغة، وإذا كان الفرد خاضعاً دائماً لما يحدده العرف من المقاييس الاجتماعية فهو خاضع أيضاً لما يحدده العرف من معايير اللغة، فالمتكلم الذي يستعمل لغة المجتمع الذي نشأ فيه يستعمل أصواتها، وصيغها ومفرداتها، وتراكيبها حسب أصول استعمالية معينة، يحذقها بالمشاركة في التخاطب، ومرّن عليها، ويطابقها دون تفكير في جملتها، أو تفاصيلها، وقلّما يرد عليه موقف من المواقف يدفعه إلى التفكير في السبب الذي من أجله يتكلم بطريقة خاصة، وإذا دفعه إلى ذلك سبب من الأسباب وقف حائراً دون الإجابة عليه، وإنما يكون جوابه « إنما وجدنا آباءَنا على أمة وإنا على آثارها مقتدون »، وسيكون هذا جوابه عن كل سؤال يدور حول الامور العرفية التي ذكرناها، كالعادات، والتقاليد، والمعتقدات، والملابس، وهلم جرا. وسيجد المتكلم أنّ اللغة منظمة اجتماعية عرفية، قوامها عدد من الأجهزة التي تمثّل في نظره معايير معينة[٢٠].

وهذه المنظمة الاجتماعية العرفية دائبة التطور بما يتلاءم وتطور الحياة التي يعيشها الناطقون. فالتطور الذي أصاب مجتمع ما قبل الاسلام بعد أن بعث الله في الناس رسولاً، قد بانت نتائجه – فيما بانت – على اللغة فقد دفعت العقيدة الجديدة المجتمع العربي إلى إبداع لغوي صحب هذه الثورة الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية التي جاء بها الاسلام فاستجدت كلِم، وأُميتت كلمات، وتغيرت دلالات

---

(١٨) نفسه : ٣٩٢/١ .

(١٩) انظر : اللغة والمجتمع . ص٨٥، والمدخل إلى علم اللغة . د . محمود فهمي حجازي ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٢٥ .

(٢٠) انظر : اللغة بين المعيارية والوصفية . ص٩ .

كثيرة من الألفاظ انحساراً أو اتساعاً، أو استجدت لها معان لم تكن لها من قبل، ودخلت العربية الفاظ وعبارات من لغات اخرى، وعمليات لغوية أخرى أجد من الإطالة ذكرها، فقد فصّل القول فيها كثيرون [٢١]، لعل المحاولة القديمة (لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي) (ت: ٣٢٢ هـ) من المحاولات الجادة في هذا المجال، فقد اوقف جلّ كتابه الموسوم بـ (الزينة في المصطلحات الاسلامية العربية) على تسجيل ما أصاب الالفاظ العربية من تطور وتغيير في الدلالة، فقد ذكر ما كان لبعضها من معان قبل الإسلام، وما طرأ عليها من تغيير في الدلالات بظهور الإسلام، وساق لنا كثيراً مما جاءت به الشريعة الاسلامية من ألفاظ جديدة في القضاء، والسياسة، والشرائع، والمعتقدات، وألفاظاً جديدة لم يألفها الناطقون من قبل في لغتهم من نحو : الملائكة، والعرش، والجنّ وجهنم والصراط وغيرها، وساق كذلك تراكيب جديدة لم تكن موجودة من قبل من نحو : لا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبك الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا اليه راجعون، وغير ذلك[٢٢].

وقد صنع (احمد بن فارس) (ت: ٣٩٥ هـ) صنيع (ابن حمدان الرازي) اذا عقد في كتابه (الصاحبي) باباً ذكر فيه ما جاء به الدين الجديد من ألفاظ، وما تغير، من الدلالات تضييقاً أو توسعاً، معللاً ذلك، تعليلاً يتفق وقوانين التطور اللغوي الذي تعمده الدراسات المحدثة، يقول : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم، وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله – جلّ ثناؤه – بالإسلام حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأُبطلت أمور، ونُقلت من اللغة الفاظ من مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زيدت، وشرائط شُرطت، فعفى الآخر الاول ... فكان مما جاء به الاسلام ذكر المؤمن والمسلم، والكافر، والمنافق، وأنّ العرب اذا عرفت المؤمن من الأمان والايمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمّي المؤمن بالاطلاق مؤمناً، وكذلك الاسلام والمسلم، وانّما عرفتْ منه إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصاف ما جاء.

---

(٢١) من بينهم من المحدثين نذكر الدكتور السعران في كتابه : اللغة والمجتمع ص٤٦ وما بعدها ، والدكتور وافي في كتابه : اللغة والمجتمع ص٢٠–٢١ .
والدكتور حسن ظاظا في كتابه اللسان والانسان ص١٠٢ وما بعدها ، وغيرهم .

(٢٢) أنظر : الزينة في الكلمات الاسلامية العربية ، لابن الرازي ، عارضه باصوله وعلّق عليه حسين بن فيض الله الهمذاني ، القاهرة ١٩٥٧ ، جـ١ ، ص٥٦–٥٧ .

وكذلك كانت لا تعرف الكفر إلا الغطاء والسَّتر، فأمَّا المنافق فاسم جاءه الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروا، وكان الأصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: فسقت الرُّطبة إذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بأنّ الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله – عزّ وجلّ – ومما جاء في الشرع الصلاة، واصله في لغتهم الدعاء ... »[٢٣].

وكان الاحتكاك الاجتماعي بين العرب وغيرهم من الأقوام الأجنبية سبباً في دخول كثير من الألفاظ الاعجمية على وفق ما اقتضته حياة العرب وحاجاتهم اليومية من أدوات حرف، وأطعمة وأشربة، ومظاهر حضارية، فمن الثابت أنّ ما تأخذه لغة عن لغة اخرى إنّما يختلف باختلاف العلاقات التي تربط المجموعتين الناطقتين، وما يتاح لهما من فرص الاحتكاك المادي والثقافي، فكلما قويت العلاقات ازداد تأثر اللغات بعضها ببعض ونشطت بينهما حركة التبادل اللغوي، ومهما كان شكل الاحتكاك كيفاً وكماً فإن من المسلّم به أنه يرجع «إلى ظواهر الاجتماع، وتدعو إليه مقتضيات العمران »[٢٤] تنعكس خلاله بعض نواحي الحياة الاجتماعية العامة » ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته، وما يكتنفه من شؤون.

وقد حاول (ابن جنّي) أن يضع حدوداً للاستدلال على عربية الأعجمي وإن كان قد قصر حديثه عن حدود معينة فلم يتعرض لذكر لغة من الساميات، وإنما ذكر أمثلة منسوبة للفارسية أو الرومية، وقد كان من الممكن أن يعرض لذكر الحبشية، أو العبرية، أو السريانية، لو كان يرى نسبة بعض الكلمات إليها، ولم تتعد تلك الحدود التي رسمها واحتكم إليه (ابن جني) في إثبات نسبة اللفظ المعين إلى اللغة العربية أو عدم نسبته مقولته المشهورة التي ترى أن اللفظ عربي اذا كان قد قيس على كلام العرب، واعتمد أساليبهم في أبنية الكلمات أو إعرابها، وقد ضمن (ابن جني) مقولته هذه في باب خاص سمّاه باب (إن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب) ذكر فيه قوله: «قال ابو علي: إذا قلت: « طاب الخُشكَنان » فهذا من كلام العرب، لأنك باعرابك إيّاه قد أدخلته كلام العرب، ويؤكد هذا عندك أنّ ما أُعرب من أجناس الاعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها، ألا تراهم يصرفون في

---

(٢٣) الصاحبي : ص٧٨–٨١.

(٢٤) اللغة والمجتمع . د . وافي ، ص٢٤–٢٥ .

العلم نحو: آجُرّ، وإبريْسَيم، وفرِند، وفيروزج، وجميع ما تدخله لام التعريف، وذلك انه لما دخلته اللام في نحو : الديباج، والفيرند، والهرِز، والآجُرّ، أشبه اصول كلام العرب، اعني النكرات فجرى في الصرف، ومنعه مجراها »[٢٥].

وقال في موضع آخر «ومما يدلّك على أنّ ما قيس على كلام العرب فزنّه من كلامها انك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم ابنية التصريف، نحو قولهم في مثال (صَمَحْمَح) من الضرب (ضَرَبْرب) ومن القتل (قَتَلْتَل) ومن الأكل (أكلكل) ومن الشرب (شَرَبْرب) .... ونحو ذلك . فقال لك قائل : بأي لغة كان هؤلاء يتكلمون ؟ ولم تجد بُدّاً من أن تقول : بالعربية، وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف »[٢٦].

وهناك قواعد أخرى للغويين العرب مما يعرف بها اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية لا نجد لها مجالاً فيما نحن فيه[٢٧]

وعلى الجملة فإنّ اللغويين العرب قد نهجوا سبيلاً قويماً في تعريب الألفاظ الأجنبية ونقلها إلى العربية، وذلك بأن وضعوا ألفاظاً عربية جديدة مقابل اللفظ المنقول يجري مجرى القياس العربي، وذلك بإبدال حروفه أو تغيير بنائه بالحذف أو الزيادة . قال سيبويه: «لما أرادوا أن يعربوه – أي اللفظ – ألحقوه ببناء في كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية »[٢٨].

أو أن يشتقوا ألفاظاً جديدة من أصول عربية أو معرّبة للدلالة على المعنى الجديد.

فإن تعذّر عليهم هذا وذاك، أجازوا دخول المعنى المراد بلفظه دون تغيير فيه، وهذا ما سمّي عندهم بالدخيل.

---

(٢٥) الخصائص ٣٥٧/١ ، وانظر : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث . د . عبد الصبور شاهين القاهرة . ١٩٦٦ ، ص ٣٣٦ – ٣٣٩ .

(٢٦) الخصائص : ٣٦٠/١ .

(٢٧) انظر في ذلك : المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم . أبو منصور الجواليقي . تحـ: احمد محمد شاكر ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٥٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ .
والمزهر : ٢٧٠/١ – ٢٧١ .

(٢٨) الكتاب : ٣٥/١ .

وسنرى أن اللغويين العرب قد فطنوا إلى أن اختلاط العرب بالأعاجم قد نشأ عنه فرق في التعبير الصحيح، والتعبير الملحون على مستوى الأصوات والأبنية والتراكيب، ومعاني المفردات، مما يُعد عاملاً من عوامل التطور اللغوي. ومن عوامل التطور اللغوي أيضاً استخدام الناس بعض الألفاظ بغير ما عرفت به في أصل اللغة دون مراعاة للفروق بين الدلالات قياساً إلى ما عرفت به في أصل اللغةدون مراعاة للفروق بين الدلالات قياساً إلى الاستخدام القرآني مثلاً، وقد رصد (ابو عثمان الجاحظ) هذه الظاهرة فسجلّها قائلاً:«وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحق بذلك منها، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدْقِع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر، وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ... والعامة ربّما استخفت أقلّ اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقلّ في أصل اللغة استعمالاً وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر »[٢٩].

وإلى مثل ذلك أشار (ابن قتيبة) (ت: ٢٧٦ هـ) في أدب الكاتب بقوله : فما رأيت أحداً منهم يعرف فرق ما بين الوكع والكوع، ولا الحنف من الفَدَع ولا اللَّمى من اللُّطع، فلما رأيت هذا الشأن كلّ يوم إلى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه، ويعفو أثره، جعلت له حظاً من عنايتي وجزءاً من تآليفي »[٣٠].

وعلى الرغم من أن كلمة اللغويين العرب لم تكن متحدة بازاء (ظاهرة الترادف) في اللغة فقد أنكره فريـق منهـم (كأبـي علي الفارسي) (ت:٣٧٧ هـ) و

(٢٩) البيان والتبيين . ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧م ، جـ ٢٠/١ .

(٣٠) أدب الكاتب . ابن قتيبة الدّينوري . دار صادر ، بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م. ص٩ . وانظر الصفحات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٦٦ .

(ثعلب) (ت :٢٩١ هـ) و (ابن فارس) (ت: ٣٩٥ هـ)[٣١]، وذهب فريق آخر إلى إثبات وجوده مطلقاً (كابن خالويه) (ت:٣٧٠ هـ) بسبب تعدد الوضع، وذلك إما يكون على سبيل لغات القبائل المختلفة، وهو السبب الأكثر لديهم، وإما أن ينشأ من واضع واحد نادراً، ويغلب في ذلك أن يكون سبيله المجاز حتى يشتهر، ويصبح في درجة الحقائق، نرى أن السبب الرئيسي في وقوع الترادف، ومثله (المتضاد) هوالتطور في الاستعمال « كما أن للمعرب والدخيل واختلاف اللغات أثراً في ذلك أقلّ شأناً »[٣٢] وقد يكون العجز عن طريق نطق بعض الأصوات أو الألفاظ، أو سماعها من أفواه الآخرين منطوقة خطأ سبباً آخر من أسباب التطور اللغوي، فقد ينطق أحد المتكلمين ببعض الأصوات أو العبارات نطقاً خاطئاً بسبب عيب في أعضاء النطق أو لحرصه على تأكيد نطق بعض الأصوات، أو تحدّثه بسرعة، مما يؤدي إلى تناسخ الأصوات وحلول بعضها محل بعض، فتتحول الصاد مثلاً إلى سين أو العكس، والضاد إلى ظاء، والغين إلى قاف، والعين إلى طاء، وهلم جرا، مما يغيّر صوت اللفظ المعين، فيشيع الصوت الجديد ويتفشى، وهذا ما نلحظه بوضوح في اللهجات العامية في الوطن العربي « فالسين قد تحولت إلى صاد في بعض المواطن، فيقال في (ساخن): (صاخن) في عامية الشرقية المصرية وغيرها، والصاد إلى السين في كثير من الالفاظ في عامية القاهرة وغيرها، (فبدلاً من : يصدق، مصير ... الخ، يقال : يسدق، مسير)، والضاد الى ظاء في عامية العراق والمغرب العربي وخاصة ليبيا، وفي لهجات القبائل النازحة إلى مصر (فبدلاً من: وضوء، يضيع، يضرب، يضم ... الخ، يقال : وظوء، يظيع، يظرب، يظم...الخ)، والعين إلى نون في بعض الكلمات في لهجات العراقيين (فيقال مثلاً:«ينطي» بدلاً من «يعطي »)، واللام إلى ميم في بعض الكلمات في عامية القاهرة («امبارح» بدلاً من «البارحة »)، والميم إلى نون احياناً في عامية المصريين (فيقال : « فاطنة » بدلاً من « فاطمة »)

(٣١) من انكر الترادف أحد رجلين ، رجل أنكره مطلقاً ، فلا يوجد عنده لفظان إلا ويوجد بينهما فرق في المعنى . ويمثل هذا (ابو علي الفارسي) ، ورجل انكر وجود الترادف المطلق فهو يرى أن الالفاظ التي تدل في ظاهرها على الترادف والتساوي لابد وأن يكون في كل منها زيادة على الأصل ماليس في الأخرى ، ويمثل هذا (ثعلب ، وابن فارس) أنظر : فقه اللغة ، ابراهيم محمد نجا ، ص٥٣ .

(٣٢) الترادف في اللغة ، حاكم مالك لعيبي ، بغداد ١٩٨٠ ، ص٣٠٥ – ٣٠٦ .

... وهلم جرا[٣٣].

وقد يخطىء السامع أحياناً استقبال بعض الأصوات أو الألفاظ، فيقلّد ما سمعه بطريقة خاطئة دون أن يعي ذلك.

وقد تنشأ عادة لغوية على ألسنة بعض الناطقين لا تصحح في حينها فتتمكن في الالسنة وتشيع، وتحل ألفاظ جديدة موجهة توجيهاً صوتياً خاصاً، وتسير في السبيل التي تريدها على السير فيه سنّة من سنن التطور اللغوي، وسبب من أسبابه . وقد ألمح (ابن جني) إلى هذا السبب . وعقد له باباً في خصائصه سماه (باب في أغلاط العرب) وذكر فيه أنّ (ابا علي) -رحمه الله- «كان يُرى وجه ذلك - يعني أغلاط العرب - ويقول : إنما دخل هذا النحو في كلامهم، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها، ولا قوانين يعتصمون بها، وانما تهجُمُ بهم، طباعهم على ما ينطقون به، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد فمَن ذلك ما أنشده أحمد بن يحيى :

غدا مالك يرمي نسائي كأنّمـــا نسائي لسَهْمي مالك غرضان

فيا ربّ فاترك لي جُهينة اعصُرا فما لك موت بالقضاء دهاني

هذا رجل مات نساؤه شيئاً فشيئاً، فتظلم من مَلَك الموت عليه السلام، وحقيقة لفظه غلط وفساد، وذلك أنّ هذا الاعرابي لما سمعهم يقولون : ملك الموت، وكثر ذلك في الكلام، وسبق إليه أنّ هذه اللفظة مركبة من ظاهر لفظها، فصارت عنده كأنه (فَعَل)، لأن مَلَكاً في اللفظ على صورة(فَلَك)، فبنى منها فاعلاً، فقال : مالك موت، وغدا مالك، فصادر في ظاهر لفظه كأنه فاعل وانما مالك هنا على الحقيقة والتحصيل مافل) كما أن ملكاً على التحقيق (مَفَل)، واصله مَلاك) فالزمت همزته التخفيف، فصار ملكاً. واللام فيه فاء والهمزة عين، والكاف لام، هذا أصل تركيبه ... »[٣٤] ومن ذلك قولهم:مصائب في (مصايب) وفي (زاي) زاء، و (منائر) في (منابر) و (مزائد) في (مزايد) وغير ذلك كثير[٣٥] مما عدّه (ابن جني) من أغلاط العرب التي خالفت الظاهر والقياس جميعاً، مما يؤكّد ما نذهب إليه من أنّ التغيير الصوتي الذي يطرأ على نطق بعض الألفاظ، والصيغ مظهر من مظاهر التطور اللغوي على ألسنة الناطقين.

---

(٣٣) اللغة والمجتمع . د . وافي ص٨٥ .

(٣٤) الخصائص : ٢/٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣٥) انظر الخصائص : ٣/٢٧٤ - ٢٧٢ .

فتسقط من الإعياء تاركة المجال للبقية الباقية من الدخيل تتسرب إليها بدون أية مقاومة حتى تجهز عليها . كما هو حال اللغة العربية يوم غزا سيل دخيلها على الفارسية حتى أصبح العلم والادب والسياسة جميعاً لا تعرف تعبيراً غير العربية، وتقلص ظل الفارسية، فأصبحت رطانة للطبقة الدنيا من الفلاحين والرعاة، وصغار التجار والصناع، وعقمت (البهلوية)[3] مدة قرنين من الزمان، فلم يؤلف بها إلا نزرٌ يسيرٌ، ولم يشرع الفرس بالكتابة بها إلا أواخر القرن الثالث، «حيث ترجم تفسير الطبري في عهد الدولة السامانية (٢٢٦هـ-٣٨٩ هـ) [4] .

وكان سلاطين وملوك ووزراء الدولة البويهية (٣٢٠ هـ - ٤٤٧ هـ) ينظمون ويكتبون بالعربية ويكفي أن نذكر منهم : ابن العميد، وابن عباد، والوزير المهلبي.

وظل الشعر العربي مسيطراً حتى القرن السادس الهجري، وان كنّا نجد الشعر الفارسي قد بدأ يترعرع في القرن الرابع الهجري.

وكان أمر التركية مثل ما كان أمر الفارسية، فقد صارت العربية بعد الفتح الإسلامي لغة العلم والحضارة في تركستان الشرقية والغربية حتى أواخر القرن السادس.

وحكم اللغة السندية[5] حكم الفارسية والتركية في وضوح تأثير اللغة العربية فقد كانت العربية في السند لغة العلم والتأليف على مدى القرنين الاول والثاني الهجريين، وبعد أن فتح السلطان (محمود الغزنوي) الهند في القرن الرابع أصبحت العربية أيضاً لغة العلم والحضارة، حتى القرن العاشر اذ نشأت

---

(٣) هي (الفارسية الوسطية) (لغة البائين)، وهي امتداد للفارسية القديمة التي تعود إلى الفترة بين ٦٠٠ و ٤٠٠ ق ، م . وكانت في عهد الساسانين اللغة الرسمية في الدول الايرانية . انظر: المدخل إلى علم اللغة. د.عبد الوهاب عزام، مجلة المجتمع القاهرة ١٩٥٣ ، ص٢٣ ، م٧ .

(٤) صلات اللغة العربية واللغات الاسلامية . د. عبد الوهاب عزام . مجلة المجمع القاهري ١٩٥٣، ص ٢٣ ، م ٧.

(٥) في إقليم السند (كراتشي) ، وهي من اللغات التي تسوعب مجالات الحياة اليومية في الباكستان اليوم إلى جانب : الأردية ، والبنجابية ، والبلوشية ، والباشتو . انظر : المدخل الى علم اللغة ، ١٢٤ .

(الاردية)[٦]، مزيجاً من السنسكريتية والعربية والفارسية والتركية.

إنّ تأثّر اللغات بعضها ببعض واقع منذ أن وجدت اللغات، ولكن من الثابت في قوانين اللغات أن اللغة المؤثرة او المنتصرة لا تخرج سليمة من صراعها، بل أنّ طول احتكاكها باللغات الاخرى، وشدّة كفاحها معها يترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة من اللغات المغلوبة في نواحي الأصوات، والأساليب، والمفردات، ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة في النواحي التي تعوز اللغة الغالبة، فاللغة الغالبة تعمد في العادة إلى خصمها المقهور، فتمتص منه ما تحتاج اليه، وتستلّ منه ما يعوزها قبل أن تجهز عليه، وإن كان التأثر بين اللغات يحدث – في الغالب – بطريقة تلقائية لا عن قصد أو تدبر[٧]، وقد يحدث أيضاً عن تدبّر سابق، وإصرار مرسوم، حين يضع الغازي في اعتباره القضاء على لغة من يعاديه من أجل القضاء على حضارته وقطع صلته بتراثه وامته، ودينه، كما هو شأن الفرنسيين في العصر الحديث مع عرب القطر الجزائري، حين دبّروا، وعملوا المستحيل من أجل مسخ هذا الشعب العربي عن أمته، وإلغاء دوره في عالم العروبة الرحب، ولولا تمسك عرب الجزائر بعروبتهم، ودينهم، وتراثهم، لحلّت الفرنسية محل العربية، ولعاشت الاخيرة غربة قاتلة إلى الأبد.

إنّ ارتباط الجماعات الناطقة بروابط الحضارة أو التجارة، أو تنازعهما حضارياً أو سياسياً، أو دينياً يرسم آثاره على اللغات، فالاحتكاك بين اللغات نتيجة لازمة للاحتكاك بين المجتمعات، وما يكتنفها من مقومات حضارية، واتجاهات فكرية، وأنشطة اجتماعية أو اقتصادية، ومن ثم يختلف ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التي تربط بين الشعبين الناطقين، وما يتاح لهما من فرص الاحتكاك المادي والثقافي، فكلّما قويت العلاقات التي تربط أحدهما بالآخر، وكثرت فرص الاحتكاك نشطت بينهما حركة التبادل اللغوي، ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدّتها حينما يتجاور شعبان، ولهذا السبب بلغت حركة التبادل اللغوي أقصى صورتها بين العربية والفارسية والتركية . ويبلغ من تأثير العربية في اللغات

(٦) هي لغة واحدة أخذه إلى الانقسام ، يطلق عليها عند المسلمين (الاردو) أي الجيش وتسمّى عند الهندوس الهندوستاني ، ويكتبها المسلمون اليوم بالخط العربي أما في الباكستان فالاردية أحد لغات المنطقة الغربية .

(٧) فقه اللغة . د . وافي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص١٢١ .

الأخرى بعد الفتح الاسلامي شأواً عظيماً، إذ عمّ تأثير العربية فيما يزيد عن مائة لغة من لغات شعوب آسيا، واوربا، وإفريقيا، وكان ذلك بفضل فعل الدين الاسلامي من جهة، وإلى سمو الفعل الحضاري ونقائه من جهة أخرى.

ومن المعروف أنّ ما تقتبسه اللغات من بعضها أكثر ما يكون على مستوى المفردات، ويتّصل عادةً بأمور قد اختّص بها أهل اللغة المأخوذ عنها، و امتازوا بإنتاجه، فمعظم ما انتقل إلى العربية من اللغات التي احتكت بها، كاليونانية، والفارسية مثلاً يتّصل بنواحٍ مادية، أو علمية، أو بنظم ادارية، امتاز بها اليونانيون والفرس آنذاك . وأخذها عنهم العرب الذين انطلقوا بعد الإسلام في رحاب جديدة من الرقي والتقدم، ووجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة، ليس في الفاظهم ما يدل عليها فاقترضوها، وأدخلوها في المعجم العربي، إما بلفظها، او بإيجاد المقابلات اللفظية العربية لها على وفق الانظمة الصوتية، والصرفية الموجودة في العربية، ومن جانب آخر منحت العربية نفسها للناطقين بغيرها، فاقترضوا ما شاءوا من ألفاظ، وأساليب . وهكذا تبدو اللغات في حياتها كما يبدو الناطقون مؤثرين ومتأثرين، مانحين وآخذين، فقد أثّرت العربية، وتأثرت، ومنحت وأخذت، ولكن ما أخذته قليل، وما أعطته كثير لا يحصى.

إن هذه الحركة النشطة من التأثّر والتأثير اللغويين، من الأخذ والعطاء، هي التي أطلق عليها اليوم مصطلح (الاقتراض اللغوي)، ولما كان الاقتراض اللغوي لا يعني أنّ اللغة المستعيرة مطالبة بردّ ما استعارته أو اقترضته من غيرها، من اللغات بدا لنا ما في المصطلح من التجوّز، ولهذا لم يكن معروفاً في الدراسات اللغوية العربية القديمة، بل شاعت في هذه الدراسات مصطلحات أخرى كالدخيل، والمعرّب والمولّد مما يشير بوضوح إلى انتباه الأقدمين إلى عمليات التبادل اللغوي.

وعلى الرغم من أنّ ما جاء في كتب (المعرّب) و (الدخيل) و (اللغات) التي حفل بها التراث العربي لا يستقصي جميع الالفاظ التي دخلت العربية من غيرها من اللغات، أو خرجت منها، وانه كذلك لا يوحي لنا بأنّ القدماء العرب في حكمهم على عروبة اللفظ المعين أو أعجميته يصدرون عن دراية فاحصة باللغات الأعجمية، « وإنما كانت أقوالهم مبنية على الظن والتوهم، وعندهم أن كل كلمة لم يشتهر فيها استعمال جاهلي دخيلة، وإذا كانت دخيلة فهي أن تكون عند أحدهم فارسية، وعند آخر عبرانية، أو سريانية، أو حبشية ».

اقول على الرغم من هذا كلّه لا يجوز القول إن اللغويين العرب القدماء « لم يهتدوا إلى أنّ بين العربية والعبرانية والسريانية والحبشية ولغات أخرى علاقات تاريخية، وقرابات لغوية مردّها الأصول السامية الاولى التي دلّ عليها البحث الحديث، كما يقول بعض المحدثين[8].

إذ أن في عمل اللغويين العرب القدماء في هذا المجال وفي حدود الإمكانات العلمية المتاحة لهم آنذاك ما يشير إلى أنهم كانوامنذ القرن التاسع والعاشر الميلاديين منتبهين لصلات القرابة بين اللغات، وعلى وعي بتأثير بعضها ببعض، يؤيد هذا ما ذكره اللغوي الفرنسي (جان بيرو) في كتابه (علم اللغة) من «أنّ الإمام (ابن حزم الاندلسي) المتوفي في القرن الخامس الهجري قد ذكر ان اللغة العربية، متفرعة من أصل واحـــد»[9]، كذلك قال الإمام اللغوي (ابن سيده) (ت: ٤٥٨ هـ) «وكنعان بن سام بن نوح وإليه ينتسب الكنعانيون وكانوا أمة يتكلمون بلغة تضارع العربية »[10].

ومن هنا يتبين لنا إدراك هذين العالمين أن العبرية والسريانية والكنعانية من نفس العائلة اللغوية التي تنتمي إليها اللغة العربية، بل أنّ كثيراً من علماء المسلمين عند تفسيرهم القرآن الكريم، كانوا يشيرون إلى بعض ألفاظ تشابهت في العربية والفارسية والسريانية، ونذكر منهم (الراغب الاصفهاني) (ت:٥٠٢هـ) في كتابه (مفردات القرآن)[11]، وقد كثر بين اللغويين العرب من يتكلمون، في أصول بعض الألفاظ، كالمصحف، والمنبر، والسورة، والآية، والملائكة ويتلمسون لها المنابع الأولى في الحبشية أو السريانية أو غيرهما[12].

ولا يعنينا في هذا المجال الضوابط والعلاقات التي اعتمدها الأقدمون في الحكم على عروبة أو أعجمية اللفظ المعين، وإنما الذي يعنينا أنَ اللغة العربية قد

---

(٨) دراسات في اللغة . د. ابراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص١٤٥ .

(٩) انظر : الاحكام في اصول الاحكام ، ابن حزم ، جـ ٣١/١ ، واللسان والانسان ، ص١٥٩ .

(١٠) المخصص . ابن سيده . السفر الثالث عشر ، المجلد الرابع ، ص١٦٧ .

(١١) انظر : المفردات في غريب القران : الراغب والاصفهاني . تحـ . : محمد سيد كيلاني ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م ، ص٤٣ ، ٩٥ ، ١٨٤ ، ٢٣٠ .

(١٢) انظر : اللسان والانسان ، ص١٥٩ .

دخلت في صراع مع نفسها، ومع غيرها، وكان من نتائج صراع العربية مع غيرها من اللغات كما رأينا أن أعطت وأخذت، ولا ضير على العربية في أن تستمد من اللغات الأخرى ما تمس حاجتها إليها، ومهما كان شأن ما أخذته العربية من غيرها من حيث الكم والنوع فإنه لم يضعفها ولم يأخذ من بنائها المحكم، ولكنه على أية حال أمر كائن، وظاهرة واقعة وكان للغة العربية قدرة فائقة في هضم كل لفظ أجنبي، وجعله في أغلب الأحيان مثل اللفظ الأصيل فيها، أو إثرائه بضروب من الاشتقاقات بما يوسِّع دائرته كماً ودلالة، فكلمة (فيلسوف) مثلاً كلمة يونانية، مركبة ومعناها الاول:يحب الحكمة، وقد دخلت العربية في عصر الحضارة الإسلامية مع مئات الكلمات الأخرى، ولكنّ العربية لم تكتف باستخدام الكلمة فحسب، بل كوّنت منها كلمات جديدة، وصاغت الفعل:تفلسف، ومنه صاغت:كلمة:فلسفية، وكلمة المتفلسفة، وغيرها مما يساعد عليه مبدأ الاشتقاق المعروف في العربية.

وقد دخلت معظم الالفاظ اليونانية إلى العربية عبر اللهجات الآرامية التي سادت الشام والعراق قبل الإسلام، ولا سيّما السريانية التي حملت حضارة اليونان إلى العرب، فحياة البادية العربية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح، أو التوت، او الحمص، أو الخوخ، أو الرمان أو غير ذلك من الثمار التي لم تعرفها البادية إلا عن طريق المناطق الزراعية في الشام والعراق، وكانت هذه المناطق كما هو معروف آرامية، وعندما تعرّبت احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع، ومن الثابت أنّ هذه الكلمات، كلمات آرامية استقرت في العربية[١٣].

والجاهلي لم يعرف البيوت المشيدة بالاحجار، ولذا لم يعرف العرب قبل الاسلام كلمة (لبنة)، ولم نعثر عليها في شعر جاهلي على الرغم من تتبعنا الدائم، ولكنّ هذه الكلمة دخلت العربية عن الآرامية بعد الفتح الاسلامي، ومثل ذلك يقال في جملة من الألفاظ القبطية التي دخلت العربية في مصر من نحو : «برسيم، حنطور، هوش ... » والناظر ديوان الشعر العربي عصر ما قبل الإسلام يجد عشرات بل مئات من الألفاظ المستعملة في الشعر العربي.

---

(١٣) انظر : تفسير الالفاظ الدخيلة في العربية مع ذكر أصلها بحروفه : طوبيا العنيسي ، القاهرة ١٩٦٥،ص١٣٠ .

الساميون ولغاتهم . تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب . د . حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧١ ، ص١٢٣ .

وعلى الرغم من الخلاف الواسع بين اللغويين والعلماء العرب حول عروبة أو عجمة بعض الالفاظ القرآنية[14] إلا أننا لا نرى ضيراً على القرآن أو على اللغة العربية من أن نجد فيها ما ينعت بالعجمة مستعملاً في نصّ عربي، فقد دخلت هذه الألفاظ اللغة العربية في عصورها المختلفة، وتشكلت بشكلها، ونسجها العربي، حتى صارت كالعربية في كثير من الأحوال، فصقلت وطبعت عليها الألسنة العربية، وأصبحت بمرور الزمن، وبعد مراحل التطور لا تعرف عجمتها إلا عند علماء اللغة – وهم في ذلك مختلفون – وجاء بعض من هذه الالفاظ في القرآن الكريم، الذي نزل بلغة العرب النموذجية، بعد أن مرّت هذه اللغة نفسها بمراحل من التطور والامتزاج عبر عصورها الاولى.

هذا على صعيد صراع اللغة العربية الخارجي، وعلى صعيد آخر فقد دخلت العربية في صراع داخلي مع نفسها حين تعددت لهجاتها بفعل اختلاف البيئات العربية، وما صاحبه من اتجاه الألسنة إلىٰ الاختلاف بين القبائل في النطق، وقد ازداد هذا الاختلاف بتفرع القبائل، حتى وصل إلى الألفاظ ومعانيها، فكان ذلك ايذاناً بتعدد اللغة المشتركة إلى لهجات تبتعد عن بعضها بظواهر عديدة منها الصوتي، ومنها الدلالي، ومنها التركيبي[15]، وقد اضطرت القبائل إلى الاتصال ببعضها لتبادل المنافع من تجارة وغيرها، فاجتمعت في الاسواق، واتصلت عند شن الغارات، مما أوجد سبيلاً لتصارع اللهجات، فساد الضعيف وانتشر القوي، وما زالت اللهجات تتصارع حتى كتب للقرشية الغلبة آخر الأمر لأسباب هيأت لها

---

(١٤) يرى فريق من اللغوين العرب بأن في لغة القرآن كلمات أعجمية الأصول عربية الألفاظ ومن هؤلاء (ابو عبيدة القاسم بن سلام الازدي) (ت . ٢٢٤هـ و(الثعالبي) و (ابو حاتم الرازي) ، وغيرهم ، وذهب آخرون الى عدم وقوع الأعجمي في القرآن . ومن هؤلاء (الامام الشافعي) و (ابن فارس) وغيرها ، ولكل فريق حججه .
انظر : الزينة ١٩/١ ، المزهر : ٣١٢/٢ ، فقه اللغة : الثعالبي ٣١٥ ، الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي ١٣٥/١ . ومابعدها .

(١٥) ادلة تعدد العربية الى لهجات كثيرة، نذكر منها:وجود المشترك،والمتضاد، والمترادف والاختلاف في: الاعراب، الزيادة والنقصان، والفك والادغام، التصحيح والاعلال، هيئة النطق وهي تشمل (الإمالة ، والترقيق، والتفخيم، والإخفاء ، والاظهار) وغير ذلك من الأدلة. انظر : فقه اللغة : إبراهيم محمد نجا ، ص ٢٢ .

سبيل النصر[١٦]، وأمكنتها من أن تصبح لغة العرب جميعاً، لأن اللغات إذا تصارعت وكتب لأحدها الفوز، اتجه الجميع إلى التكلم بها، ولذلك صارت القرشية لغة الشعراء في اشعارهم، والخطباء في خطبهم، ويؤكد ذلك أنّ العرب على اختلاف قبائلهم ورد إلينا شعرهم لغة موحدة إلا في القليل النادر، وهو الذي كان عليه الاعتماد في أن تعرف البقية من لهجاتهم.

وقد استفادت القرشية من صراعها مع اللهجات أموراً كثيرة، منها ما يخصّ المفردات وتنوع الأساليب، فغنيت بالمترادف، والمشترك، والمتضاد وغيرها من الأمور التي كان لها كبير الأثر في نمو اللغة وسعتها، ومنها نزول القرآن الكريم بها مما زادها غنى على غنى، وثراء على ثراء.

وعندما انطلق العرب المسلمون في رحاب أوسع من المكان مبشرين برسالة السماء، خالطوا أمماً كثيرة، فكان أن ظهر داء جديد إذ شاع اللحن، وفشا على الألسنة، وتغيّرت ملكة اللسان المضري، فتكونت في الأمصار والبوادي لغات جديدة تختلف عن (لغة مضر) في كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات، فأصبحت (لغة مضر) لا يمكن اكتسابها بالمعاشرة، والمخالطة والمباشرة وصارت مما يفتقر إلى تعليم خاص[١٧].

وتسربت إلى اللغة العربية مئات الالفاظ الأجنبية بحكم اتصال العرب بغيرهم، واتصال غيرهم بهم، فبدا اختلاف جديد بين لهجات الأمصار الإسلامية علّله (الجاحظ) بقوله : « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة، والشام، ومصر »[١٨].

«ألا ترى أنّ اهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمّون البطيخ الخِرْبِز، ويسمّون السميط الرَّزْدَق، ويسمّون المصُوص المزور، ويسمّون الشطرنج الاشترنج في غير ذلك من الأسماء.

---

(١٦) من أسباب انتصار القرشية ، نفوذ اهلها الديني والتجاري ، والسياسي ، واللغوي بين القبائل .

(١٧) مقدمة ابن خلدون : ص٥٥١ ، ٥٨٢ .

(١٨) البيان والتبيين : ١/١٨ .

وكذلك أهل الكوفة، فإنّهم يسمون المسحاة بال، وبال بالفارسية»[١٩].

والأمثلة التي ساقها (الجاحظ) كثيرة مما يعكس لنا صورة جديدة من صور الحياة اللغوية للغة العربية في القرن الرابع الهجري.

ومهما يكن من أمر تأثر أو تأثير العربية فإنّ العربي قد التزم قوانين الفصحى حين حتّمت عليه ظروف معينة مثل هذا الالتزام، ولكنه كان من جهة ثانية ملتزماً إما لهجته القبلية، حين يكون تعامله مع الآخرين في حدود المكان المعين الذي يحيط بتلك اللهجة، ومن هنا يمكن القول إنّ اللغة العربية في تطورها القديم قد مرّت بمرحلة « اللغة الاجتماعية حين كانت تخضع لظروف المجتمع العربي قبل الإسلام، وقد كان الأدباء والشعراء من سائر القبائل يلتزمون قوانين الفصحى المشتركةلا ينحرفون عنها أبداً، فإذا عادوا إلى مواطنهم القبلية استعملوا لهجتهم الخاصة، وكان العربي في كلتا الحالتين ملتزماً بالمستوى الصوابي الذي ارتضاه مجتمعه الخاص للهجته، ولذلك الذي ارتضاه المجتمع العام للغته المشتركة. فإذا بدرت من أحدهم بادرة تكفل المجتمع – والنقاد فيه كثيرون – بتقويم المخطىء سواء بالتوجيه الفردي، أم بحكم ما استقرّ من حسَن المجتمع من استنكار لموقف الخارجين عن تقاليد الفصحى »[٢٠].

ولكنّا نجدبمرور الزمن،أن الفرد قد أفلت من تلك الرقابة اللغوية الاجتماعية فراح يجابه اللغة المشتركة بما يفسدها من ملحون القول على المستوى الصوتي والصرفي، والتركيبي، والدلالي، خاضعاً في ذلك إلى تأثيرات خارجية اقتضتها ظروف الاجتماع الجديد بما ضمّ من أجناس وبيئات مختلفة، وثقافات متعددة، وما نشأ عليه من عادات وتقاليد متباعدة عما ألفه سلفه، كل ذلك انعكست آثاره على اللغة.

ومهما يكن من أمر فإنّ الامثلة العديدة لتطور اللغات عبر التاريخ يدفع إلى الاعتقاد بأنّ التطور اللغوي لا يتم عن طريق الانتقال المفاجيء من كيفية قديمة إلى كيفية جديدة، ولا يمكن اعتباره اندفاعاً واحداً لضربة حاسمة تعطي ثمارها في

---

(١٩) نفسه : ١٩/١ . والسميط . الأجر القائم بعضه فوق بعض ، والرزدق فارسي معرب . واصله بالفارسية « رسته » ومعناها السطر والصف من النخل وغيره . والمصوص : لحم ينقع في الخل ويطبخ .

(٢٠) في علم اللغة .د . عبد الصبور شاهين ، ص٢٣٢

سنوات قلائل، إنّه عملية طويلة، تأخذ من الزمان مئات السنين، ومن الخطأ أنّ نظن أن التطور اللغوي يؤدي إلى نشوء لغة جديدة لا صلة لها باللغة الأم، ولا تحمل شبهاً منها . ومن هنا فإنّ المستوى الصوابي بما يثبته من معايير وضوابط وقواعد للغة المعينة يبقى الدليل الوحيد على قرب الناطق المعين أو بعده من تلك المعايير والضوابط، وتظل المعطيات الحضارية والفكرية للشعب الناطق أساساً في بقاء لغته وفعلها وثباتها في حومة الصراع، وكان للغة العربية من معطيات أهلها الحضارية ومن تشريفها بالتنزيل الحكيم عربياً مبيناً سبباً حاسماً في بقاء هذه اللغة وانتصارها في كلّ صراع.

فاللغة نشاط اجتماعي مكتسب وهي إذا تمكنت في الألسنة، سيظل صاحبها مقصوراً بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزل فيه ألا ترى أن السندي كما يقول (الجاحظ) «اذا جُلب كبيراً فإنّه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ولو أقام في عُليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجُز هوازن خمسين عاماً، وكذلك النبطيّ القحّ، خلاف الغلاق الذي نشأ في بلاد النَّبط، لأن النبطي القح يجعل الزاي سيناً، فاذا أراد أن يقول زورق قال سورق، ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول مُشمعلّ، قال مشمئل»[٢١].

وهكذا نجد المستوى الصوابي أيضاً هو الذي يحدد سلامة نطق الناطق للغة المعنية، وهويته اللغوية، فيما إذا كان عربياً ينطق بلغة أعجمية، أو أعجمياً ينطق بالعربية[٢٢].

وإذا كانت اللغات تنشأ كما تنشأ الأجسام الحيّة، ويعتورها التغيير والتبديل كما هو شأن الكائن الحيّ وأنشطته المختلفة، فإنا نرى في العوامل الاجتماعية التي هي ناشئة عن العوامل البيئية سبباً رئيسياً في تطور اللغات سلباً أو ايجاباً، وفي صراعها مع غيرها، وانتصارها أو انكسارها في هذا الصراع ولعل من أظهر الاتفاقات التي عثرنا عليها في هذا المجال أن العالم العربي (ابن خلدون) في حديثه عن نشأة لغة الأمصار من اللغة الأولى إنما يقرر حقيقة علمية تعدّ من أحدث ما توصل إليه الباحثون اللغويون في العصر الحاضر، أعني بها إدراك هذا العالم

---

(٢١) البيان والتبيين : ٧٠/١ .

(٢٢) المقدمة . لابن خلدون . ص٤٩٣ .

العربي أثر البيئات على الظواهر الاجتماعية ومنها اللغة، يقول: «إن كلاً منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده، والإبانة عما في نفسه، وهذا معنى اللسان واللغة، وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم»ويتحدث عن فنون الشعر في الأمصار قائلاً: «والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التي إذا سمعها، ويمجّ نظمهم اذا انشدوا، ويعتقد أنّ ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها، وفقد الإعراب منها، وهذا انما يأتي من فقدان الملكة في لغتهم (اي علماء اللسان) فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم (أي أهل الأمصار) لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها، وإن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره، وإلاّ فالإعراب لا دخل له في البلاغة، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة، فإذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحّت الدلالة، واذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الاعراب في اواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الاخر »[٢٣].

(٢٣) نفسه . ٥١٣ .

الفصل الرابع

وسائل التواصل غير اللغوية

المبحث الأول

اللغة ووسائل التواصل غير اللغوية

من الثابت أنّ اللغة وإنْ كانت الوسيلة المثلى للتواصل بين الناس، ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد عرف الانسان قبلها وما يزال يعرف وسائل عديدة يتواصل بواسطتها[١]، وهذه الوسائل ذات صور متنوعة منها رموز مادية تفسّر بمعنى معين، ومنها أشياء تستوحى من الطبيعة حمّلها الانسان دلالات خاصة «حتى ظَنّ الانسان في حقبة زمانية أن للطبيعة لغة، وللحيوان لغة[٢]».

ولا شك أنّ لغة الطبيعة، ولغة الحيوان تختلفان كلّ الاختلاف عن أية محادثة، أو تبادل للمعلومات بين الأحياء البشرية، كما سنرى، ومع ذلك فإنّ علم اللغة قد أولى اهتماماً خاصاً بنظرية الإشارات والرموز ونظمها في مجتمع ما، ومثلما تدرس الإشارة اللغوية المنطوقة، تدرس أيضاً لغة الطبيعة ولغة الحيوانات وكثير من انظمة الإشارات والرموز غير اللغوية، كالإشارات البحرية، والعسكرية وقوانين الطرقات والخرائط والطقوس الرمزية، وآداب التصرف والحركات الجسمية بأنواعها، وكلّ ما يستعمل من الكيانات والتشكيلات الدالة بغض النظر عن

---

(١) قد يكون التوصل بالسمع وهو الأكثر ، وقد يكون بالنظر إلى مايرمز به للمعنى المراد ، وقد يكون باللمس كما هو عند المبصرين ، او بالشَم كأنْ يضاف إلى بعض الاشياء مادة ذات رائحة معينة للتنبيه إلى فكرة معينة كما هو الحال في إضافة مادة كريهة الرائحة للغاز الشديد الاشتعال – وهو أصلاً بدون رائحة – خوفاً من تسرّبه فيكون شمَ تلك الرائحة الكريهة إشارة إلى وقوع التسرب . وقد يكون بالتذوق فتقديم القهوة المرَة للزائر إشارة إلى معنى يختلف عنه تقديم القهوة الحلوة أو مشروباً آخر .

(٢) تستخدم كثير من الحيوانات كالنحل والطيور والقطط وغيرها أصواتاً وحركات دالّة ، ولبعضها قابلية إبلاغية مدهشة إذ ظهر البحث الذي قام به العلماء الامريكيون أنّ للغربان لغات عديدة ، فغربان المدينة لاتفهم غربان الريف ، وغربان المدن لاتفهم إشارات بعضها .
انظر : اصوات وإشارات : دراسة في علم اللغة . أ . كوندراتوف . نقله عن الانكليزية ادور يوحنا . بغداد . ١٩٧٠ ص ٩ .

ماهيتها وانواعها[٣].

ومن المعروف لدى الباحثين اللغويين المحدثين أن (سوسور) هو صاحب الفضل الأول في لفت الأنظار إلى ضرورة دراسة حياة الرموز في المجتمعات[٤] بل إنه هو الذي تصوّر مولد هذا الضرب من الدرس الذي لم يكتب له النمو إلا ابتداء من الستينيات من هذا القرن، ولعل فيما ذكره (سوسور) في محاضراته ما يؤكد ريادته في الدعوة إلى هذا العلم اذ يقول : «ويمكننا أن نتصور علماً يتخذ موضوعاً له دراسة حياة الرموز في رحاب الحياة الاجتماعية، ويصبح هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي ومن ثم من علم النفس العام، ونحن نطلق عليه (علم الإشارات) (السيميولوجية)[٥] Semiology وندرس فيه كيفية تكون الرموز والقوانين التي تحكمها، ولما كان هذا العلم لم يظهر إلى الوجود حتى الآن فلا يمكننا التكهن بطبيعته وماهيته، وكيف سيصبح، ولكننا نؤكد أنّ من حقه أن يوجد وأنّ مكانه محفوظ له مسبقاً، وليس علم اللغة إلا جزءاً من هذا العلم العام، والقوانين التي سيكتشفها هذا العلم يمكن تطبيقها على علم اللغة، وبهذا يحتلّ مكانه المحدّد في مجموعة العلوم التي تدرس الوقائع الإنسانية المختلفة[٦]».

وتُعدُّ الإشارات والرموز وسيلة غير دقيقة للتواصل، نظراً لفقرها ومحدوديتها

---

(٣) يميز علم الدلالة بين ثلاثة انواع من الإشارات : الإشارات الطبيعية ، والإشارات الصورية ويسميها الجاحظ بـ (النصبة) وهي عنده : الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد . والإشارات الجسمانية ، وهي في جملتها تشترك في سمة واحدة هي انها تتكون من المومى إليه والمومي.
انظر : اصوات وإشارات . ص٦-٧ ، البيان والتبيين . ٨١/١ .

(٤) يرى بعض الباحثين مثل (جاكبسون) أن الدعوة إلى دراسة حياة الرموز دعوة قديمة ذات تاريخ طويل نسبياً ، إذ بدأت كعلم في القرن التاسع عشر على يد (بيرسي) الذي أخذ يدرس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها في جميع الاشياء والموضوعات الطبيعية والانسانية ، والحق انّ (سوسور) هو الذي بشر بمولدها وحدد موضوعاتها .
انظر : نظرية البنائية في النقد الادبي ، ص٣٦ ، ٣٤٥ .

(٥) عرّبت إلى (السيمائية) او (السيمية) حتى لاتختلف بعلم السيماء والفراسة العربية .

(٦) نظرية البنائية في النقد الادبي ، « بتصرف » ص٣٧ .
وانظر : علم اللغة العام . سوسور : ص٣٤ .

في التعبير عن الأفكار والحاجات والمشاعر الإنسانية، بما لا يجوز في ضوئه اعتبارها بديلاً لغوياً يمكن إحلاله بطريقة من الطرق محل الإشارة اللغوية .فليست تلك الرموز إلا وسيلة مساعدة بإمكانيات محدودة جداً يلجأ إليها الانسان لكي يرمز بواسطتها إلى معنى معين، أو لتأكيد هذه النقطة أو تلك من كلامه .

وعلى الرغم من أنّ مقارنةالرموز والاشارات باللغة الكلامية « يشبه تماماً مقارنة المعزقة الخشبية البدائية بالجرار الحديث بمحاريثه الخمسة أو بالحفّارة الحديثة »[7] إلاّ أن من المفيد أنْ نقف على أهـم الفــوارق بينها وبــين اللغات المنـطوقة [8] فنقول :

أولاً : إنّ الاشارة اللغوية لا تجمع بين شيء وبين اسم، وإنّما تجمع بين مفهوم وبين صورة سمعية أي « بين الشيء والتسمية، وليست الصورة السمعية هي الصوت المادي أي الشيء الفيزيائي الصرف، وانما هي بصمة نفسانية لهذا الصوت هي التمثّل الذي يعطيه لنا حكم حواسّنا، وهي لهذا صورة حسّية، بمعنى أن الإشارة اللغوية حقيقة نفسانية ذات وجهين : المعنى المجرد، والصورة السمعية[9] والصلة بينهما وثيقة، فكلّ منهما يوحي بالآخر، ويستدعي أحدهما وجود الآخر، ومع هذا فإن الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول في اللغة كما أشرنا من قبل رابط كيفي، أو « اعتباطي » كما يقول (سوسور)[10].

---

(٧) الماركسية وقضايا علم اللغة . ص٦٠ .

(٨) انظر تفاصيل في:علم اللغة العام.سوسور:ص٨٥ وما بعدها مفاتيح الألسنية، ص٣٥ وما بعدها .

(٩) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ص٢٢٨ .

(١٠) علم اللغة العام . سوسور : ص٨٦ .

« ففكرة ochs, o-k-s bof s-o-r Sister) على الطرف الآخر»[١١].

أما الرمز أو (الدال البصري) فمن خصائصه ألا يكون كيفياً بصفة مطلقة فهو ليس خالياً من المضمون بل يحتوي على رابط أوّلي وطبيعي بين الدال والمدلول فلا يمكن إبدال رمز العدالة –أي الميزان – بغيره، على سبيل المثال لا يمكن إبدال هذا الرمز بسيارة عسكرية[١٢]. فهناك خاصية تصويرية للرمز قائمة بين شكله وما يدل عليه، فخيال دراجة يُدل على دراجة، ويدّل رسم ملعقة وشوكة متقاطعتين على مطعم ... الخ . فالصلة بين الرمز والمرموز إليه بديهية عند الجميع وعلى وفق ما اصطلح عليه المجتمع المعين، فرسم جمجمة إنسان تدلّ عند مجتمعات معينة على الخطر، ولكنّها تُعد الصورة العادية للحلوى المكسيكية، والسواد الذي يدلّنا ببداهة اللون الطبيعي للحداد والموت هو لون الرجولة عند الكناكين . وهذا يعني « موقفاً متجهاً إلى اعتبار الرمز لا في ذاته وإنما فيما يرمز إليه، أي أنّ الرمز له طاقة خاصة به منبثقة عنه تميزه عن الإشارة اللغوية الي لا حول لها في نفسها »[١٣].

ثانياً: لما كان للرمز خاصيته التشكيلية التصويرية لا يجوز التصرف به، كما هو الحال في الإشارة اللغوية القابلة للتصرف على وجوه مختلفة، إذ يمكن التصرف بالتركيب اللغوي إبدالاً أو تقديماً وتأخيراً، أو حذفاً [١٤]، ولوجود هذه السمة أمكن للإشارة اللغوية التعبير عن آلاف الأفكار، وذلك مما لا نجده في أي نوع من أنواع الرموز الإبلاغية الأخرى، حيث أننا نجد دائماً أن الوحدات الدنيا التي تتركب منها الرموز غير اللغوية وحدات دلالية لها شكل ومحتوى دلالي، لا

---

(١١) نفسه : ص٨٧ ، واعلم انه قد يُتخذ من كلمات المحاكاة دليل على ان اختيار الدال ليس كيفياً بصورة مطلقاً . إلا ان هذه الكلمات لاتمثل إطلاقاً عناصر بنائية لاي تنظيم لغوي ، وعددها قليل وما يدخل منها إلى اللغة يخضع بطرق ما لفعل التطور الصوتي الذي تخضع له بقية المفردات ، امّا علامات التعجب – وهي قريبة من أصوات المحاكاة – فيمكن اعتبارها تعابير عفوية عن الواقع الذي تمليه علينا – إن صح التعبير – (الطبيعة) زيادة على ذلك فانه بالإمكان ان تنفي بشأن اغلبها أن يكون ثمة رابط ضروري بين الدال والمدلول ، وباختصار : إنّ كلمات المحاكاة وعلامات التعجب هي ذات قيمة ثانوية وان اصلها الرمزي مشكوك فيه إلى حدّ ما .

انظر : الالسنية (علم اللغة الحديث) ص٢٤٢ – ٢٤٣ ، وعلم اللغة العام ، سوسور٨٨.

(١٢) الألسنية (علم اللغة الحديث) : ص٢٤٢ .

(١٣) نظرية البنائية في النقد الادبي : ص٣٥٥ .

(١٤) انظر تفاصيل اوجه التصرف بالإشارةاللغوية في : مفاتيح الألسنية ص٥٠ وما بعدها .

يمكن التصرف فيها أو تحليلها الى وحدات أصغر تكوّن بدورها دلالة جديدة كما هو الحال في اللغات البشرية حيث يتّم التصرف المزدوج التقني الذي يبرز العنصر الاقتصادي لهذه اللغات المتمثل في إمكانية التعبير عن ملايين الأفكار من خلال وحدات بنائية بين ٣٥-٥٠ رمزاً صوتياً . فاللغة بهذا الاعتبار هي التي تجعلنا نُخضع الواقع إلى مقولاتها، وليست الأشياء هي التي تُملي قوانينها على الكلمات . وقد ساعدها على ذلك أن العلاقة بين الإشارة اللغوية ودلالتها كامنة فقط عند الجماعة الناطقة التي اصطلحت أو تواضعت على استعمال كلمة معينة علماً لدلالة معينة، فليس للغة خاصية تشكيلية تصويرية كما هو الحال في بقية الرموز، إنها نظام من العلاقات بين اللفظ والشيء، والدال والمدلول، بين المعنى اللساني والشكل اللساني، إنها « نظام متمفصل كما يرى البنائيون»[١٥] حيث كل شيء يوجد، وحيث كل شيء يتضامن وحيث أنّ كلّ عنصر يأخذ قيمته من وضعيته البنائية.

أما رموز الإبلاغ الاخرى فانه وإنْ كان لبعضها أنظمة خاصة مثل خريطة الطرقات حيث أن لكلّ مسافة تمثيل رمزي لها، فمسافة على الخريطة لها ما يساويها على الأرض على وفق نظام حسابي معين، وكذلك الشأن بالنسبة لكل الاتجاهات، أو الرسوم الأخرى الدالة كرسم طائرة للدلالة على المطار، أو رسم صليب للدلالة على المقبرة أو غير ذلك، غير أنّ هذه الأنظمة جزئية لأن مفهوم النظام اللغوي يتضمن وجود دلائل قادرة من بلاغ الى آخر تحدد وظيفياً بتقابلها.

ففي حركة المرور، لا دلالة للأضواء الحمراء إلا في نطاق نظامها باعتبار تقابلها والضوء الأخضر أو البرتقالي، أما الضوءان الأصفر والأزرق المستعملان في إشارات السكك الحديد فلا يندرجان في نفس النظام وإنما في نظام آخر، وهكذا . إنّ اشارات المرور، والإشارات الصوتية وجميع العلامات والرموز الأخرى إنما هي إشارات ورموز محدودة بسيطة لا غاية لها في ذاتها، فقد تكون الإشارة محسوسة (لوحة زيتية) أو (لحن موسيقى) أو (لافتة) ولكنها «تتعالى دائماً فوق واقعها المادي »[١٦] رغبة في تحقيق غاية تواصلية ما، اصطلح المجتمع على دلالتها، وتعارف على ذلك.

---

(١٥) انظر : البنائية في اللسانيات . ص٣٦٠ .

(١٦) في اللغو واللغة . ص٤٨ .

ثالثاً : وأخيراً فإن اللغة عملية إرادية لا تتم إلاّ برموز صوتية يشترط فيها أن تكون صادرة من أعضاء معينة مهيأة بطبيعتها التشريحية إلى أنْ يكيفها الإنسان في نطاق الأصوات، فلا يُعدّ مثلاً من اللغة الطرقُ على الطاولة لاستدعاء النادل، على الرغم من أنّ هذا الطرق يترجم إلى جملة مفيدة أو أكثر منها، وانما هو اشارة وليس لغة لأنه لم يصدر عن اعضاء النطق الطبيعية . ويجب الانتباه هنا إلى أنه ليس كل ما يصدر عن أعضاء النطق يُعدُّ لغة، فهذيان المحموم، وكلام الببغاء، وبكاء الاطفال وغير ذلك ليس لغة ولا كلاماً، لأنه فقد عنصر الإرادة وهو عنصر أساس من عناصر الفعل اللغوي.

وكذلك فإن الاصوات التي تحدثها الطبيعة أو الحيوانات لا تُوجه إلى مخاطب معين، ولا تهدف إلى إبلاغ شيء معين بالذات كما هو الحـال فـي اللغـة – لأن الطبيعـــة « تخبر[١٧] ولكنّها لا تتكلم » بمعنى أن نيّة الإبلاغ غير متوافرة، فالسماء عند العاصفة لا تنوي البتة أن تبلغ الأرصادي شيئاً، وهذيان المحموم، وعطس المريض أو ارتفاع درجة حرارته لم يحدث قصداً لإخبار الطبيب بمرض ما، (وإنما هذه علامات تدرك في الحين فتعرفنا بشيء معلق بما لا يدرك كذلك، إنما كما يقول (الجاحظ) – تشير – « بغير اليد[١٨] »، في حين نجد أنّ « الوظيفة المركزية النوعية للغات البشر الطبيعية هي وظيفة الإبلاغ[١٩] » المقصود قصداً والحيوانات وإنْ كانت تطلق أصواتاً وتستخدم اشارات متنوعة، غير أن أصواتها وإشاراتها هذه محسوسة (ليست تجريدية)، انها كما كانت تقترن بالحادثة أو الوضع، فالديك لا يستطيع أن يقول للدجاجة ما الذي حدث بالامس، وما الذي سيحدث غداً، ولا يستطيع ذلك حتى الشمبانزي الثرثار، فالإشارة تحدث في فترة معينة فقط، وفي وضع محسوس معين « إن معناها آني والحاضر فقط[٢٠] » في حين يستطيع الانسان أن يفصل الاشارة اللغوية عن وضعها، ويستطيع هو فقط التكلّم عن حوادث الماضي وعما سيحدث في المستقبل، وتخيل أشياء واقعية وغير واقعية.

---

(١٧) صوات وإشارات . ص٤ .

(١٨) البيان والتبيين : ٨١/١ .

(١٩) مفاتيح الألسنية : ص٣٨ .

(٢٠) أصوات وإشارات : ص٩ .

وإذا كان علماء اللغة المحدثون يرون أنّ أول تمييز أساسي بين لغة الانسان وأصوات الطبيعة، والحيوانات ،ومجموعة المقاييس والرموز والإشارات الصالحة للتواصل، هو (نيّة الإبلاغ) المقصود قصداً، فالإشارة اللغوية إلاغ إرادي مقصود، وغيرها لا يبلغ وإنما (يشير) دون قصد، بمعنى أن الطير مثلاً عندما يطلق صوتاً ليجلب انتباه الشخص الذي يطعمه لا يكون على علم بكون الصيحة التي يطلقها « إشارة » . إن الاشارة والمضمون في لغة الحيوانات يقترنان بشكل لا انفصام له، وهذا السر وراء عدم تطور لغتهم، فهي تتواصل بالأسلوب نفسه الذي اعتادت عليه قبل آلاف السنين، وما هذه حالة اللغات الانسانية.

أقول اذا كان علماء اللغة المحدثون يرون ذلك، فإن (أبا عثمان الجاحظ) في تناول الفرق بين لغة الانسان ومجموعة الأصوات التي تطلقها الحيوانات قد قال بحقائق علمية سبق في أكثر وجوهها ما استطاع علماء اليوم بيانه وتأكيده . قال في الحيوان[21]: « وزعم صاحب المنطق أنّ كل طائر عريض اللسان فالإفصاح بحروف الكلام منه أوجه، ولإبن آوى صياح يشبه صياح الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيأ للكلب مثل : عَفْ عَفْ، وَ وَ وَ وَ وْ، وأشباه ذلك. وتهيأ للغراب القاف، وتهيأ للببغاء من الحروف اكثر . فاذا صرْتَ للسنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير، ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمّع تجاوب السنانير، وتوعُّدُ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احصِ ما تسمعُهُ وتتبعْه، وتوقف عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما إن كان بها من الحاجات والعقول والاستطاعات، ثم ألَّفتَها، صارت لغة صالحة الموضع، متوسطة الحال.

واللغات إنما تشتدّ وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلّته، وعلى قدر مخرجها وخفتها، وسلسها وثقلها، وتعقدها في أنفسها . كفرق ما بين الزنجي والخوزي، أن الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويجاورهم زماناً فلا يتعلّق منهم بطائل ... ».

ولو تأملنا هذا النص لبانت لنا حقائق من علم اللغة عامة، وعلم اللغة خاصة جديرة بالإثبات، لأن الباحثين الأوربيين – كما يقول الدكتور حسن ظاظا «ما يزالون يقلّبون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة (بعد الجاحظ) باكثر من

(21) الحيوان : ٥/٢٨٦ .

الف عام »[٢٢] حقائق أقامها (الجاحظ) على التجربة المباشرة، والاستقراء والإحصاء، ومن هذه الحقائق نذكر الآتي[٢٣]:

أولاً : إنّ لغة الانسان ليست مجرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي في الصياح أو تقطيعه إلى حروف ذات مخارج متميزة ، فهناك حيوانات قادرة على ذلك كالببغاء والسنانير، وإنما وراء ذلك بواعث اجتماعية أو نفسانية وفكرية أو ما سمّاه (الجاحظ) (بالحاجات)، ووراء ذلك أيضاً ما سمّاه (الجاحظ) بـ (العقول) وهي القدرات المفكرة المدبرة التي تستطيع الملاحظة والقياس والاستنباط ، وتعمل على كشف مجاهل الكون.

وأخيراً ما يسميه (بالاستطاعات)وهي الإرادة أو (نية الابلاغ) التي يشترطها في الإشارة اللغوية علم اللغة اليوم، فهي التي تجعل المتكلم لا ينطق بباعث الغريزة الكلامية أو الحالة الشعورية القويّة المؤقتة فحسب، ولكن كلما رأى هو ذلك مناسباً له مرغوباً فيه. وهو بهذا يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي أعطانا إياها علماء اللغة المحدثون، إذ يرى أن اللغة ليست مخارج الحروف فقط ، وإنما هي القوة الانسانية الارادية المفكرة المعبرة في مجتمع. وإن لغات البشر تتفاوت صعوبة وسهولة، لا في ذاتها فقط، وانما بالنسبة للغريب الذي يريد أنْ يتعلّمها على الخصوص، فيقول إنّ الالفاظ تصعب عليه كلما ازداد جهله بمعناها الدقيق واستعمالها، وكثرة عدد ألفاظها وإمكان نطق حروفها بسهولة نطقاً صحيحاً أو عدم إمكان ذلك.

رابعاً: وأخيراً فليست عملية التواصل بين طرفي الإشارة اللغوية تكمن في الإبلاغ فحسب ، وإنما نجد في هذه الاشارة اللغوية التي يقصد المتكلم اشياء اخرى يمكن عدّها من مشمولات وظيفة الإبلاغ هذه، فالإشارة اللغوية تنقل زيادة على محتواها اللغوي الصرف علامات أو إمارات تخبر السامع نفسه عن المتكلم نفسه دون أنْ يكون في نيته إبلاغها، فصوت المتكلم كثيراً ما يخبرنا عن سنّه، وجنسه،وربما بدانته، وعن حالته الصحية، ومنشئه الجغرافي، وطبقته الاجتماعية، وحالته النفسية. وما نجد في الرموز والإشارات ووسائل التواصل الأخرى مثل هذه المعطيات.

---

(٢٢) اللسان والانسان : ص٤٥ .

(٢٣) انظر : المصدر السابق : ص٤٥ وما بعدها .

المبحث الثاني

الإشارات والحركات الجسمية المصاحبة للغة

من المسائل التي يوليها علماء اللغة الاجتماعيون اهتماماً متميزاً دراسة مجموعة الإشارات والحركات الجسمية التي تصاحب الإشارة اللغوية، أو التي تستعمل للتعبير عن دلالات معينة، فهذه (المصاحبات اللغوية) تمثل جانباً هاماً من جوانب التواصل بين الناس، وهي أيضاً قسيم جيد للغة لا يجوز إغفاله، بل أنها تُعدّ عند بعض الجماعات والأفراد، وفي ظروف وأحوال معينة الوسيلة الوحيدة للتواصل.

« فلسكان استراليا الأصليين لغة إشارية متطورة جداً، إنها تستعمل في العديد من الحالات، عندما تكون المحادثة عبر مسافات شاسعة لا يمكن للصوت أداءها – عندما تلتقي القبائل التي تتكلم لغات عديدة – وأخيراً عندما يكون النطق بالكلمات محظوراً.

ففي استراليا لا يسمح للأرملة التي دفنت زوجها حديثاً باستعمال الكلمات، ولا يسمح الشيء نفسه بالنسبة للشباب المقبلين على مرحلة الرجولة ... الخ . وحتى الأمم المتحضرة لم تنفض عن نفسها مثل هذه المحرمات الكلامية، تذكّر القسس المسيحيين الصامتين الذين لم ينبسوا ببنت شفة لسنوات عديدة، فتحدثوا بلغة الإشارة، لأن الكلمة المنطوقة كانت خطيئة»[1].

إن (اللغة اليدوية) Aranda Hand Language الاسترالية تملك حوالي (٥٠٠)إشارة جسمية واضحة، وهذه الإشارات تمثل أشياءً وأعمالاً وصفات وعبارات اجتماعية، وحتى أسئلة تامة وعبارات كاملة[2].

ولقد تمخض اهتمام العلماء بدراسة هذه الاشارات والحركات الجسمية وتحليلها عن علم حديث يعرف اليوم بعلم الحركة الجسمية أو (الكينات)

---

(١) اصوات وإشارات : ص١٢-١٣ .

(٢) انظر المصدر السابق : ص١٣ .

Kinesice [٣] ، ولهذا العلم مبادؤه العامة مثله في ذلك مثل سائر العلوم.

ويُعد العالم الانثروبولوجي (راي بير دوسيل) من أشهر المحدثين الذين اهتموا بدراسة الحركات الجسمية التي يستخدمها الانسان في عملية التواصل، أو التي تصاحب لغته المنطوقة بما يفيد في فهم العملية اللغوية نفسها، ويفيد أيضاً في فهم ظواهر البناء الاجتماعي للجماعة المعينة، فالحركات الجسمية ليست حركات عضوية يستخدمها الانسان كيفما اتفق، وانما هي نظام يتعلمه الانسان داخل المجتمع، « نظام له أنماطه الخاصة التي تتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية والحضارية للشعب المعين أو الأمة المعينة »[٤].

وإذا كانت الإشارات والحركات الجسمية لمختلف الشعوب الاوربية تتشابه أحياناً تشابهاً كبيراً، فالانكليزي والروسي والفرنسي والالماني كلّهم يهزون أكتافهم بمعنى (لا اعرف)[٥].

وحركة الرأس إلى الأعلى من العراقي أو السوري أو الفلسطيني وغيرهم من العرب في مختلف أقطارهم تعني (الرفض)، نرى من جانب آخر أن هناك اختلافات معينة فدلالة الحركات الجسمية من شعب إلى آخر، فحركة الحاجبين إلى الاعلى من لدن السوري أو الفلسطيني تعني (الرفض) لكنها تفيد عند المصريين مثلاً دلالة اخرى...!

وفي روسيا تتجسد الإشارات الجسمية للوداع بتحريك اليد والاصابع، ويفسّر هذا في البرازيل بمعنى (تعال هنا) ومن أجل التعبير عن (تعال هنا) يدير الروسي كفّه باتجاه الأعلى محركاً إياه أماماً وخلفاً، وفي العديد من الدول الغربية تتم إشارة الوداع بتحريك اليد مع الإبقاء على الكف بعيداً عنها[٦].

ولا شك أنّ هناك فروقاً واضحة في استعمال الحركة الجسمية داخل المجتمع الواحد على وفق الجنس، أو المهنة، أو المستوى الثقافي، أو التقاليد والأعراف

---

(٣) عُرفت الإشارة تقليدياً في الانكليزية باسم (GESTURE) .

(٤) انظر : The New Encyclopedia Britannice. V. 5 p.

(٥) أصوات وإشارات : ص١٢.

(٦) نفسه : ص١٣ .

الخاصة بكل طبقة من الطبقات الاجتماعية[٧].

فحركات الرموش والعيون مختلفة الدلالات بين الرجال والنساء، فالابتسامة مثلاً تدل على السرور والابتهاج دائماً، إنّما تختلف دلالاتها من بيئة اجتماعية إلى أخرى، وتختلف أيضاً في البيئة الواحدة بين موقف وآخر فابتسام آنسة لرجال غرباء في مجتمع معين قد يدلّ دلالة حضارية لكنه يكون غير مقبول في مجتمع آخر، والابتسامة قد تدل على السرور أو المرح أو السخرية، أو البله، وقد تكون دليلاً على رقّة الانسان وطيب اخلاقه، وقد تكون دليلاً على الشك أو القبول أو التعالي أو التواضع، وقد تكون إهانة، أو استنكاراً للإهانة، وغير ذلك مما يمكن أن تؤديه هذه الحركة من معانٍ وفقاً لأنماط اجتماعية وطبقية وبيئية وحضارية.

وهكذا يمكن للمرء أنْ يقف على مئات الأمثلة التي تستحق الدرس لفهم طرائق الاتصال داخل المجتمع، ومن خلال الحركات الجسمية، وارتباط هذه الحركات بالنظام اللغوي.

وإذا أمكن للإنسان أنْ يحذق انماط الحركات الجسمية ودلالاتها في ثقافة معينة ولمجتمع معين يستطيع أن يعرف من خلال هذه الحركات اللغة التي يتكلم بها المتكلم، وإن لم يسمع صوتاً لغوياً، وعلى هذا الاساس تُعدّ الحركات الجسمية نظاماً اتصالياً متمماً للغة، ومعيناً المتحدّث على نقل ما يريده من أفكار وحاجات إلى الآخرين، بل أنّ هذه الحركات قد تكون في ظروف معينة بديلاً عن اللغة يوم تكون اللغة محرّمة لاعتبارات معينة. واذا كان (ابن فارس) قد أشار إلى « إن الانسان الابكم قد يدلّ بإشارات وحركات له على أكثر مراده،ثم لا يسمّى كلاماً»[٨].

وأن (السيوطي) قد عقد في مزهره باباً في ذكر « من عجز لسانه عن الإبانة في تفسير اللفظ فعدل إلى الإشارة والتمثيل»[٩]، بدا لنا من خلاله أنه قد حدس فكرة لغوية اجتماعية هامة دون أن يحللها، تباشر موضوع الإشارات والحركات الجسمية التي يستعملها الانسان، وما تختلف فيه عن اللغة، فإنّ ما جاء به (الجاحظ) في حديثه عن أصناف الدلالات عموماً، وفي حديثه عن الإشارات

---

(٧) انظر: The New Encyclopedia Britannice. V. 5 p.815.

(٨) الصاحبي : ص٤٠.

(٩) المزهر : ٢/٣٢٩.

والحركات الجسمية خصوصاً ينطوي تحته معظم مبادىء علم الحركة الجسمية في معطياته المعاصرة.

فما ذكره (الجاحظ) في كتابيه الشهيرين : البيان والتبيين، والحيوان، بشأن الإشارات والحركات - يمكن ردّه إلى الأسس العلمية التي يعتمدها علم الحركة الجسمية اليوم(١٠). فقد رأى (الجاحظ) إنّ أصناف الدلالات خمسة :

قال : « وجميع اصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ: خمسة(١١) أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العَقْد(١٢)، ثم الخطّ ثم الحال التي تسمّى نُصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصّر عن تلك الدلالات، ولكلّ واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعما يكون منها لغواً بَهْرَجاً، وساقطاً مُطّرحاً »(١٣).

أما الإشارة فاقرب المفهوم منها عند (الجاحظ) «رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه»(١٤). وهي ايضاً: «باليد، والرأس، وبالعين والحاجب، والمنكب إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً

---

(١٠) أحصت الدكتورة فاطمة محجوب في البيان والتبيين اربع عشرة فقرة بشأن الاشارة يمكن ردّها إلى اربعة عشر مبدأ من مبادىء علم الحركة الجسمية.
انظر : اللكنة والحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين . د . فاطمة محجوب ، مجلة الثقافة السنة الثانية العدد ٢١ يونيه ١٩٧٥ ص٣٣ وما بعدها .

(١١) جعلها في كتابه الحيوان أربعة : اللفظ ، والخط ، والعقد ، والإشارة ، ورأى أن من جعلها خمسة بإدخال النصبة « فقد ذهب ايضاً مذهباً له جواز في اللغة » .
انظر : الحيوان : ٣٣/١-٣٤ .

(١٢) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له حساب اليد ، وقد ورد في الحديث أنه « عقد عقد تسعين » وقد ألفت فيه كتب واراجيز .
انظر : البيان والتبين : ٧٦/١ . هامش (١) .

(١٣) البيان والتبيين : ٧٦/١ .

(١٤) الحيوان : ٤٨/١ .

وتحذيراً»[١٥].

والإشارة واللفظ « شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخط ً، وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مَرْفَق كبير، ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخُفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناسُ معنى خاصّ الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة »[١٦].

ويزيد (الجاحظ) قوله: «وكان أبو شمر إذا نازع لم يحرّك يديه ولا منكبيه، ولم يقلّب عينيه، ولم يحرّك رأسه، حتى كأنّ كلامه انما يخرج من صَدْع صخرة، وكان يقضي على صاحب الاشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته . وكان يقول: ليس من حقّ المنطق أن نستعين عليه بغيره، حتى كلّمه إبراهيم بن السيّار عند أيوب بن جعفر، فاضطرَّه بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرّك يديه وحلّ حُبوته[١٧]، وحبَا إليه حتى أخذ بيديه . وفي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم، وكان الذي غرّ أبا شمر وموّه له هذا الرأي أن أصحابه كانوا يستمعون منه، ويسلّمون له، ويميلون إليه، ويقبلون كل ما يُورده عليهم، ويُثَبِّته عندهم . فلما طال عليه توفيرهم له، وتركُ مجاذبتهم إياه، وخفّت مؤونة الكلام عليه، نَسِي حال منازعة الأكفاء ومجاذبة الخصوم ...»[١٨].

والمتأمل ما جاء به (الجاحظ) يبدو له بوضوح حقائق من علم الحركة الجسمية جدير بالإثبات، وجدير بأنْ يكون صاحبها من أوائل المفكرين في التراث الإنساني ممن قصدوا بالتحليل العميق إلى موضوع يرتبط باللغة كل الارتباط، وتوصلوا من ذلك إلى نتائج لا نغالي كثيراً إذا قلنا أن المحدثين لم يزيدوا عليها شيئاً.

---

(١٥) البيان والتبيين : ٧٧/١ .

(١٦) البيان والتبيين : ٧٨/١ .

(١٧) أي : غيّر جلسته .

(١٨) البيان والتبيين : ٩١/١-٩٢ .

فاذا كان من المبادىء الأساسية التي يقررها علم الحركةالجسمية اليوم هو أن تبادل المعلومات، ونقل الأفكار قد يتّم بوسائل أخرى غير اللغة المنطوقة، وإذا كان للغة أعضاؤها، كاللسان والاسنان والحبال الصوتية، فللحركة الجسمية أعضاء ذكرها (الجاحظ) كالراس والعينين واليدين، وقد تؤدي الحركة بالجوارح وحدها، كأن نشير بالسبابة أو الراس، أو الكتفين، كما قد تؤدي الحركة بإشراك جارحة أو أكثر مع شيء خارج الجسم كأنْ يجذب الطفل كم رداء امّه لكي يجعلها تلتفت إليه وإنّ لكل حركة دلالتها الخاصة كما أنّ لكل لفظ دلالته الخاصة، فإنّا نجد (الجاحظ) قد أوضح هذه المبادئ أيّما وضوح، فبعد أن ذكر الإشارة قد تكون بجارحة او غير جارحة، أو أنّ تكون باشراك جارحة او أكثر مع غيرها أو ما عبّر عنه «بالثوب وبالسيف »، راى أن لكل حركة دلالة فقد تكون « تهديداً أو وعيداً، أو زجراً » وغير ذلك.

مما يؤكّد ما يقرّره علم الحركة الجسمية اليوم من أنّ الحركات الجسمية قد تحلّ محلّ الكلام أو أن تكون متمماً فاعلاً له في تأكيد الكلام أو زيادته وضوحاً، ولم يزد أصحاب هذا العلم عما يقوله (الجاحظ) من أن الحركات والاشارات «نعم العون (للغة) ونعم الترجمان هي عنه ».

ويقول علم الحركة الجسمية: «إنّ للحركة كما للفظ شكلاً خاصاً، وبناءاً محدداً، وتتعاقب العناصر المكونة لها بترتيب معين، فالحركة التي دلالتها (تعال هنا) تختلف في تركيبها وتعاقب عناصرها عن الحركة التي دلالتها: (اذهب بعيداً) أو (إليك عنّي)»[١٩] وهذا ما يعنيه (الجاحظ) بقوله:إنّ الاشارة لا تعدو أنْ تكون ذات صور معروفة وحيلة موصوفة».

والاشارة عند (الجاحظ) «طبقات ودلالات»، ويعني بالطبقات ما يعنيه علم الحركة الجسمية اليوم من تعدد أنواع وطبقات الحركة من حيث صلتها بالكلام المنطوق، ومن حيث وظيفتها، فمنها ما يكون رمزاً يحلّ محل الكلام، ومنها ما يكون لتأكيده وايضاحه، ومنها ما يتفاهم به اثنان بطريقة تخفى على الحاضرين، أو كما يقول (الجاحظ) « في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس » ومنها ما يكون حركة وصفية تتخذ شكل الأشياء التي يتحدث عنها المتكلم، كأنْ يصف بناءاً معيناً، وذلك بإبداء حركة توضح تركيبه المعماري حجماً أو

(١٩) اللغة والحركة الجسمية . ص٣٤ .

طولاً أوعرضاً. وثمة أنواع اخرى للحركة الجسمية تتصل باتجاهها، ومداها، وعدد مرات تكرارها[٢٠].

ويقرر علم الحركة الجسمية اليوم أن الحركة تستخدم بدلاً من الكلام حين تكون المسافة بين الباث والمستقبل بعيدة، بحيث لا يسمع الصوت أوعند وجود ضجيج يحول دون السماع الجيد، فنلوح باليدين مودعين، أو غير ذلك من الحركات التي يستخدمها البحارة في عرض البحر، أو العاملون في المطارات، مما تكون فيه الحركة الجسمية أو الإشارة في مثل هذه المواضع وغيرها هي الأكثر إبلاغاً، لأن مبلغها كما يقول (الجاحظ) « أبعد من مبلغ الصوت – وهذا- أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوت »[٢١].

وإذا كان من الحقائق المعروفة في علم الحركة الجسمية أن للحركات الجسمية أثراً على حسن البيان، والتأثير على الجماهير، وأنها تعُدّ أساساً في التعبير التمثيلي (الدرامي)، ولهذا أصبح من مهام هذا العلم دراسة الآثار المترتبة على هذه الحركات، في أثناء الكلام أو الخطابة، ايجاباً أوسلباً مما جعل بعض الكتاب يعيب على شعوب البحر الأبيض المتوسط كالفرنسيين والايطاليين والإسبان أنها تكثر من الحركات الجسمية في أثناء الكلام، ويعدّ ذلك نقصاً، ويمتدح الشعب الانكليزي لأنه يعتمد على التعبير اللغوي أكثر من اعتماده على الحركة الجسمية، ورأى بعض الباحثين أنّ المتكلم أو الخطيب انما يكثر من الحركات الجسمية اثناء خطابه، انما يفعل ذلك لافتقاره إلى المقدرة البلاغية وحاجته إلى البيان والتأثير[٢٢].

وقد طرق (الجاحظ) هذه الأفكار عينها، فقد ذكر لنا أنّ (ابا شمر) كان يدين بعدم جدوى الحركة في التأثير على المخاطبين، لكنّه قد تخلّى عن رأيه هذا حين فرض عليه الموقف أن يستعين بها « فحرّك يديه وحل حُبوته » ويُفسَّر هذا في ضوء علم الحركة الجسمية اليوم بأنه لما كان من وظائف الحركة تأكيد الكلام، وتوضيحه في مواقف انفعالية معينة، فانّه لا يجوز الاقتصار على هذه الحركات دون الكلام، لأنها لا تحمل حينئذٍ أيّ معنى، ولا تتميز بنمط تركيبي خاص يجعلنا أن نتعرف

---

(٢٠) انظر : المرجع السابق ص٣٤ .

(٢١) البيان والتبيين : ٧٩/١ .

(٢٢) انظر اللغة والحركة الجسمية : ص٤١ .

عليها، وهذا مما يضيف حقيقة جديدة تتصل بالجانب النفسي من الحركة الجسمية، إذ تكون الحركة في مواقف المجابهة والانفعال تنفيساً عن التوتر الداخلي الناشيء عن شدة الانفعال[٢٣]، وهكذا نجد أنّه حين احتدم النقاش بين (أبي شمر) و (إبراهيم بن سيّار النظام) وأخذ (ابراهيم) ينازع (ابا شمر) منازعة الاكفاء، ويجاذبه مجاذبة الخصوم، يحدث عند (ابي شمر) ذلك التوتر الداخلي والانفعال الناجمان عن المجابهة، مما يحدو به إلى التخلي عن مبدئه الخاص بعدم الاستعانة بالإشارة.

وإذا كانت الحركات الجسمية والإشارات والرموز وغيرها من وسائل التواصل قد أخذت جانباً من اهتمام اللغويين المعاصرين، فمن المفيد أن نذكر إنه قبل أكثر من ألفي سنة اعتاد (شيشرون) أنْ يعلّم الخطباء أنّ «جميع حركات الروح يجب أن تكون مصحوبة بالإشارة القادرة على تفسير الأعمال والأفكار، مثل إشارات المعصم، والإصبع واليد كلها ممدودة إلى الاعلى، والقدم وهي تضرب الارض، واخيراً، بشكل خاص، تمثيل العيون، فالاشارات تشبه (لغة البدن) Body Language التي تفهم حتى من قبل المتوحشين والهمج»[٢٤].

أما الخطيب الروماني المشهور (كونتيليان) فإنّه قد كوّن شيئاً أشبه بمعجم للإشارات[٢٥].

ولقد مضت ألفا سنة منذ (شيشرون)، ومضى على ما قاله عالمنا العربي الكبير (الجاحظ) أكثر من الف ومئتي سنة، دون أن يضيف علماء اليوم إلا النزر اليسير على ما قرره (الجاحظ).

ولعل مردّ ذلك يكمن في عدم وجود لغة مجسّدة مناسبة للحركات الجسمية، أو نظاماً جيداً لتدوينها، ومردّ ذلك أيضاً أنّ للعبقرية العربية ثماراً ومعطيات جليلة بأي مقياس منصف قسناها.

إنّ تنصيص اللغويين العرب القدماء على اعتبار الإشارة عنصراً في حدّ الكلام حين عرّفوه بقولهم : « هو ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظاً أو خطاً أو

---

(٢٣) انظر : المرجع السابق : ص٤١ .

(٢٤) اصوات وإشارات : ص١٥ .

(٢٥) نفسه : ص١٥ .

إشارة او ما نطق به لسان الحال »[٢٦] أمر جدير بأن يُتوقف اليه، ويحتفى به، وإذا كان يبلغ من تأثير عناصر الموقف الخارجي في استعمال اللغة أنّ «سبعين في المائة من درجة تأثير الكلام في مواقف الخطاب مرجعها إلى ما يكون من النظرات المتبادلة عند الحديث، وأن قيمة الدلالة التعبيرية وتأثيرها يتدنيان إلى ثلاثين في المائة حسب اذا اقتصر على مجرد الكلام المنطوق، وإذا كان ذلك كذلك في نتائج الدراسات المتعارفة عند الغربيين على هذا المستوى فإنه كان كذلك في حصيلة التقريرات التي انتهت للباحثين العرب الأقدمين، أو انتهوا إليها في سبر وجوه الظاهرة اللسانية بمحض الاختبار وما يتهيأ في إطاره من الانظار»[٢٧] ولعلّ في حديث (ابن جنّي) ما يؤكد هذه الحقيقة ويسندها فهذا العالم العربي الجليل هو الذي يقول : « وليست كلّ حكاية تروى لنا، ولا كل خبر يُنقل إلينا يُشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة – كانت –به، نعم ولو نقلت إلينا لم نُفد بسماعها ما كنا نفيد لو حضرناها ... فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين، مُجزئاً عنه، لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه ... وربّ إشارة أبلغ من عبارة »[٢٨].

وربّ متحدّث لا يحسن أن يكلّم إنساناً في الظلمة[٢٩].

---

(٢٦) شرح شذور الذهب ، ابن هشام ، تح ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثامنة مصر ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م ، ص٢٨–٢٩ .

(٢٧) الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية ، (بتصرف) ص٧ .

(٢٨) الخصائص : ١/٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢٩) انظر المصدر السابق ١/٢٤٧ .

الفصل الخامس

المستويات اللغوية

ونظرية السياق

المبحث الأول

المستوى الإجتماعي والبنية اللغوية

اللغة وإنْ كانت نشاطاً جماعياً لشعب واحد، أو أمة واحدة، لكنّ مستوياتها تتعدد وتتنوع تبعاً لتعدد الناطقين بها، وتنوّع ثقافاتهم، وطبقاتهم الاجتماعية، وتباعد الفوارق الزمانية والمكانية والمهنية بينهم، إذ أنّ السلوك الفردي إزاء اللغة يضيف إليها قدراً – وإن كان ضئيلاً – خاصاً به، وهذا القدر الضئيل قد يخفى على المتحدثين العاديين، ولكنه لا يخفى على عالِم اللغة فهو يتبيّنه من خلال نطق الأصوات، ونوع المفردات والتراكيب، بما يؤكد أن الاختلاف في المستويات اللغوية واقع بين أفراد الشعب الواحد أو الامة الواحدة كما تختلف بصماتهم، بل أنّ بعض الباحثين المحدثين يذهب بعيداً فيقرر أنه «يوجد من اللغات بقدر ما يوجد من الأفراد »[1].

ومن المعروف أنّ الاستعمال اليومي للغة يختلف بعفويته، وعدم تكلّفه عن الاستعمال الكائن في المستويات النظرية التجريدية، أو في الاوساط الإعلامية، أو في المستويات الأدبية والفنية، فهذه تقتضي نوعاً من الانقباض النفسي والفيزيولوجي، زيادة على أن اللغة المنطوقة أكثر عفوية من لغة التحرير لما في الأخيرة من الحشو والزيادات والتصنع.

وقد مرّ القول إن تأثير المجتمع بمعناه الواسع على اللغة بيّن، ومن جانب آخر فإن اللغة تتأثر بالمجتمعات والفئات الضيقة الكائنة داخل المجتمع الواحد إذ تتشعب لغة المحادثة في البلد الواحد، أو المنطقة الواحدة إلى مستويات لغوية متباينة تبعاً لتباين واختلاف طبقات المجتمع وفئاتهم الاجتماعية، مع دخول الزمن عاملاً أساسياً في هذا الاختلاف، إذ يؤدي انتشار اللغة في مناطق مختلفة واسعة، واستعمالها من لدن جماعات كثيرة وطوائف عديدة من الناس إلى أن تتفرع اللغة الواحدة إلى (لهجات محلية)، يتكلم بكل لهجة منها أصحاب منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة، ولما كانت كلّ منطقة من هذه المناطق السكانية منقسمة بدورها على مجموعات صغيرة، بحسب مهنها، أو ثقافاتها، أو جنسها، أو أنشطتها

(١) اللغة ، فندريس ، ص ٢٩٦.

الحياتية المختلفة، فإنّ اللغة تتأثّر بهذه المجتمعات الضيقة فتتشعب لغة المحادثة في المنطقة السكانية المعينة إلى لهجات تبعاً لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم، فتكون ثمة لهجة للمتعلمين تختلف عن لهجة الاميين، والمتعلمون يختلفون لهجة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم، وباختلاف مهنهم، وباختلاف درجة ثرائهم ويسوى ذلك من الأسباب، ولهجة أخرى للطبقة الوسطى، ولهجات للجنود وللرياضيين والنجّارين، وللبحارة ولذوي المهن جميعاً، وفي المجتمعات التي تحكم فيها المرأة تقاليد وأعراف خاصة تفصلها عن الرجل، تكون هناك لهجة مميزة للنساء.

وقد يكون هناك اتجاه في التعبير الخاص بطبقات المجرمين، والخارجين عن القانون، والمخنثين، « فمن ألوان اللهجات الطائفية الموجودة في كل مجتمع تلك التي تسمّى (اللهجة السرية) أو (الكلام السري). والمقصود بها تلك اللغة التي تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع، وتهرب من عقابه، وتحاول أن تخفي عنه أمرها، وذلك كلغة اللصوص، ولغة رجال العصابات، ولغة الحشاشين، ومن إليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرّمها مجتمعهم، ولغة القوادين... الخ . فالملاحظ أنّ كلاً من هذه الطوائف وأشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها، والذي تلجأ إليه هذه اللغة في الأغلب أنها تعطي بعض الكلمات المستعملة في اللغة المشتركة دلالات جديدة، وتعتمد على الاستعمالات المجازية، وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرّفة أو غير محرّفة، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعاً »[٢].

وتعرف هذه الاقسام الفرعية داخل اللغة الواحدة باسم (اللهجات الاجتماعية) أو (اللهجات الخاصة)، وهي في جملتها مستويات لغوية ناشئة عن الظروف الاجتماعية المختلفة باختلاف البيئة، أو الحرفة، أو الطائفة، فكل مجموعة من هؤلاء تصطلح لنفسها لهجة خاصة يشعر كل فرد من الأفراد الناطقين بها « بأنّ له في استعمال هذه اللهجة نوقاً خاصاً متميزاً من الناحية الصوتية ومن نواحي الصرف والتركيب والدلالة يعرف به، ويسهل من خلاله تمييزه ونسبته إلى جماعته الجزئية الخاصة »[٣].

---

(٢) اللغة والمجتمع رأي ومنهج . د . السعران ، بنغازي ١٩٥٨ ، ص٣٦ .

(٣) اللسان والانسان . د. ظاظا ، ص١٣٢ .

ومما يساعد على نشوء هذه المستويات اللغوية هو أنّ اللغة تتخذ كما هو معروف موقفاً محايداً إزاء الطبقات والفئات الاجتماعية، ولما كانت اللغة بأهلها لا بنفسها فإنا نجد مستعملي اللغة لا يتخذون جميعهم الموقف المحايد نفسه الذي تتخذه اللغة إزاءهم، إذ تجهد كل فئة أو مجموعة داخل المجتمع الواحد نفسها لاستعمال اللغة في مصالحها الخاصة، وانطلاقاً من معجمها، وتعابيرها، وطرق نطقها مما يساعد على ظهور هذه المستويات الفئوية، والألسن الخاصة، يزاد على ذلك ما يوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق في البيئة الجغرافية والثقافية ومناحي التفكير والتربية، وحياة الأسرة، والمجتمع، والتقاليد، والعادات والأذواق. فهذه الفوارق بين الناس توجّه كلّ مجموعة وجهة خاصة في مناحي الحياة جميعها، ومن أبرزها اللغة، فلكلّ زمن أو بيئة ذوق خاص في استعمال الألفاظ اللغوية، ويبدو ذلك في أدب الأمة، ولا سيما في الجانب الشعبي منها، ولهذا لا يمكن أن نطبّق ما تواضع عليه الناس من أساليب الذوق في هذا الباب في زمن معين، على لغة، أو لهجة في زمن آخر أو بيئة أخرى[4].

ومن هنا يمكن القول إن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها، بل تخلق خلقاً وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة أو الفئة الواحدة.

ولقد أولى علم اللغة الاجتماعي اهتماماً متميزاً لدراسة الخصائص اللغوية العائدة لمجموعات مهنية أو فئات اجتماعية فدعا (هاريس) إلى دراسة أثر النشاط الاجتماعي والمهني على الأسلوب اللغوي على وفق ذلك النشاط من صحافة أو أدب أو علم، أو حرفة[5]. ورأى (مالينوفسكي) إن اللغة ضرب من العمل، وإن مواقف العمل هي التي تعمل على تنويع اللغة[6]، ورأى (ورف) «أنّ الانموذج اللغوي المعين يرتبط بالنماذج الثقافية المجتمعية »[7] وهذا الأنموذج اللغوي هو الذي يجعل بمقدور الانسان أن يتواصل مع أمثاله بدقة بالغة ولهذا رأى (مييه) «أن من الواجب أنْ نحدد كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية، بطريقة عامة في تغييرات البنية

---

(٤) انظر : دراسات في علم اللغة ص١٩٣

(٥) Zellin Harris Discourse analasis Lange . London 1952, p. 18 .

(٦) انظر دراسات في اللغة ص١٩٣.

(٧) الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية . ص١٦٤ .

اللغوية »[٨] وقبل أن نلقي الضوء على ما للغويين العرب القدماء من دراسات في هذا الميدان اللغوي الاجتماعي، لا بد لنا من توضيح أمرين :

أولهما : إن اللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث تعني « مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة،وبيئة اللهجة هي جزء أوسع وأشمل تضم عدة لهجات ولكلّ منها خصائصها، ولكنّها تشترك جميعاً في مجموعة الظواهر اللغوية التي تيّسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهماً يتوقف على قدر الرابطة التي تربط هذه اللهجات، وتلك البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات هي التي اصطلح على تسميتها باللغة»[٩].

وقد أطلق اللغويون العرب القدماء على مصطلح اللهجة مصطلح (لغة) أو (لحن)،والواقع أن بين هذه المسميات فرقاً واضحاً وأقرب الحدود منالاً هو أن يقال: إنّه اذا كانت مجموعة من اللهجات تنتمي إلى لغة أُمّ، وكانت هذه اللغة الأم نفسها ما تزال على قيد الحياة شائعة في الاستعمال، فإن أية واحدة من فروعها غير جديرة بأن تسمّى لغة، إلى أن تموت اللغة نفسها، فحتى ذلك الوقت يسمّى كل فرع من فروعها لهجة، ومن ذلك اللهجات العربية، ومنها قديم مات بينما اللغة الأم ما زالت حية،ومنها حديث هو هذه اللهجات العامية التي تعيش إلى جانب الفصحى[١٠].

أما (اللحن) فهو في الاصطلاح اللغوي قسم أو فرع صغير من فروع اللهجة يختص بإقليم معين، أو مدينة، أو بشعبة من قبيلة، فاللهجة العراقية، مثلاً، لهجة واسعة الحدود، أما نطق أهل البصرة، أو الموصل، أو البادية العراقية فكلّ منها (لحن) أو (لغية)، (تصغير لغة)، بالنسبة للهجة أو حتى اللغة، وهذه (اللغية) تتميز باختلافات في بعض مخارج الأصوات، أوخطأ في الحركات الإعرابية، أو اختلافات في النبرة الموسيقية للكلام، أو الاختلاف في قوانين التقابل بين الاصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض، وما إلى ذلك من قيود صوتية يراعيها المتكلمون عند

---

(٨) اللغة والمجتمع . د . السعران ص٣٨ .

(٩) في اللهجات العربية . د. ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو ، ط٣ ، مصر ١٩٦٥ ، ص١٦ .

(١٠) اللسان والانسان ، ص٢٢٣ .

الكلام[11].او في قواعد الصرف أو في استعمال بعض الألفاظ المحلية الضيقة الحدود.

وقد استعمل اللحن عند العرب بمعنى الخطأ وترك الصواب اللغوي على مستوى الأصوات والصرف والنحو ومعاني المفردات[12]. وهذا اللحن قديم وهو من مظاهر العامية التي سبقت شيوعه، وهو يعرض للغة في ألسنة الناس جميعاً، «وظهوره على ألسنة الصفوة المهذبة دليل على قدمه، وعلى تأثر هؤلاء بالألوان الدارجة العامة من اللغة»[13].

ويمكننا ببساطة أن نعدّ العاميات الشعبية في اللغة العربية تطوراً مستحدثاً تعرّبت فيه ألسنة العامة، وأن اللغة العربية بصفتها لغة الحضارة كانت الأقوى تأثيراً والأوضح من سمات اللهجات المتطورة حتى ليمكن القول « إنّ هذه اللهجات المتطورة هي عبارة عن العربية على ألسنة أهل الاقطار المفتوحة، أو أن هذه اللهجات العامية الدارجة هي لهجات محلية في (ثياب) اللغة الفصحى كما يدلّ الكثير من المفردات والتعبيرات والتراكيب أحياناً »[14].

وثانيهما: إنّ اللهجات على اختلاف أنواعها، ومسمياتها، لا تمتلك «حدوداً طبيعية » على حدّ تعبير (سوسور)»[15]، بل أن هناك تداخلاً في هذه الحدود، وهو شأن اللغات أيضاً بمعنى أن الحدود اللهجية لا تنطبق على الحدود الطبيعية دائماً، وهذا الانفصال مما يألفه اللغوي بين حدود الدولة السياسية أو الطبيعية، وبين

---

(11) انظر في ذلك : اللهجات العامية ، لماذا وإلى اين . د . حسني محمود . مجلة اللسان العربي، العدد (٥) ، الرباط ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص١٩ .

(12) انظر : المفردات في غريب القران . ص٤٤٩ ، وقد جاء فيه مانصه : «اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه إما بازالة الاعراب ، أو التصحيف ، وهو المذموم وذلك اكثر استعمالاً ، وإما بإزالته عن التصريح بمعناه إلى تعريض وفحوى ، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة...». وانظر:البيان والتبيين ١٤٦/١. ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة د.عبدالعزيز مطر، دار المعارف - مصر ١٩٨١ .

(13) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق . د . ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص١٩٦٢ .

(14) انظر : اللهجات العامية لماذا وإلى اين . ص٢٤ .
والعربية ولهجاتها. د . عبد الرحمن ايوب ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص٢٥ .

(15) علم اللغة العام.سوسور.تر.:د.يوئيل يوسف عزيز.دار افاق عربية بغداد ١٩٨٥، ص٢٢٢.وانظر علم اللغة العام. د . عبد الصبور شاهين ، ص١٥١ .

حدود لهجتها أو لغتها التي قد تزحف وراء الحدود، وقد أكّد (ماييه) حقيقة ما ذهب اليه (سوسور) وقرر «أنّ اللهجات لا وحدة لها بالقدر الذي يبدو لأول وهلة، فالأفراد المتكلمون في إحدى القرى ولو كانت صغيرة تتنوع ألسنتهم غالباً تبعاً للسّن، والوضع الاجتماعي، وللاهتمامات ... الخ . وليس كلّ المتعلمين من أصحاب القرى جميعاً متساوين في الولاء للعرف المحلي »[١٦].

ومن هنا فإن المشكل الذي يبقى قائماً هو الحيرة بين مراعاة الفروق الفردية التي تنتهي بالدرس إلى التعقيد، وإهمال هذه الفروق الذي ينتهي إلى عدم إعطاء الفكرة الصحيحة عن حالة اللهجة المعينة.

ومهما يكن من أمر هذا المشكل فإنا نرى أنّ (اللهجات) بأنواعها، لا يمكن أن ترمي إلى مصاف اللغة لأنها بدون نظام قواعد، أو أرومة لفظية أساسية تختص بها،كما هو شأن اللغة المشتركة التي تفرض نفسها على جميع الأفراد في المجموعة الاجتماعية الناطقة، باعتبارها المستوى اللغوي الحضاري الأعم لتلك المجموعة . وإذا كنا نألف في اللهجات نوعاً من النظام أو القيود التي يراعيها الناطقون بتلك اللهجة عند تواصلهم،أو نجد ألفاظاً أساسية فيها، فإنما ذلك في شكله العام استعارة من اللغة المشتركة في دائرة ضيقة خاصة بفئة احتماعية معينة . ومن هنا لا يمكن لتلك اللهجة أو تلك أن تسود المجتمع، ومن هنا أيضاً نجد من غير المقبول أن تسمى أية لهجة(لغة).

وإن إمكانية حلول اللهجة المعينة محل اللغة الأم، والأخيرة على (قيد) الحياة لا يعني سوى فقدان الأفق التاريخي للقائلين بهذا المبدأ، وهو في ذات الوقت هجر للموقف العلمي الصحيح الذي تقرره القوانين اللغوية . وليس للهجات سوى التمركز في اللغة الأم، لأن الأخيرة مقوِّم من مقوّمات الأمة الواحدة أو الشعب الواحد، ووجود اللهجات لا يعني عدم وجود لغة مشتركة، وإنما يثبت هذه الحقيقة ويؤكدها.

فمع اختلاف النطق باللغة المشتركة، ومع قرب الناطقين أو بعدهم عنها يوجد قدر مشترك فيما بين أبناء الأمة الواحدة في الأصوات، وفي الصيغ وفي التراكيب هو الذي يعمل على ربطهم بتلك اللغة النموذجية، وعلى الذي يساعدهم - إنْ شاءوا - على الارتقاء بلهجاتهم ورطانتهم العامية إلى مصاف تلك اللغة، وتضييق الهوة - ما أمكن - بين مستويات الخطاب داخل الأمّة أو الشعب الواحد.

---

(١٦) علم اللغة العام . د . عبد الصبور شاهين ، ص١٥٤ .

المبحث الثاني

جهود اللغويين العرب في دراسة المستويات اللغوية

يبدو للناظر المنصف في تراث اللغويين والمفكرين العرب القدماء في هذا المجال أنهم قد تعجّلوا قطع مسافة التطور التي وصل إليها الدرس اللغوي الحديث في كثير من وجوهها، ولعل أغلب ما اهتم به علماء اللغة الاجتماعيون اليوم وتوصلوا إليه في نطاق دراستهم المستويات اللغوية قد ألفنا لغويينا القدماء يهفون اليه محققين بذلك نوعاً من السبق الذي يمكن للباحث المتأني تشخيصه وجلاء معطياته النظرية والتطبيقية، بما يكون أساساً وطيداً وايجابياً إلى أبعد درجة في إنصاف اولئك القدماء الذين أبلوا بلاءً حسناً في بناء صرح العلوم العربية، فإذا كان العلماء اللغويون الاجتماعيون يدعون اليوم إلى معرفة الوظيفة اللغوية على وفق الفئات والطبقات التي تستعملها، ويقررون أنّ اللغة تؤدي وظيفتها الاجتماعية على مستويات متعددة، لكل مستوى لغوي منها تأثيره المباشر في اختيار مفردات اللغة المستعملة، وتراكيبها، فهناك مستوى لغوي تنوقي فني جمالي خاص بأهل الأدب والفن، وهناك مستوى لغوي نظري تجريدي تستعمل في العلوم، وهناك مستوى اجتماعي عادي يستعمل في الصحافة والاعلام، إلى ما هنالك من مستويات تمثّل أنواع التأدية اللغوية[1]، فما أحسبُ أحداً يماري في أن اللغويين العرب القدماء قد دعوا إلى ذلك قبل مئات السنين، سواء أكان ذلك صريحاً واضحاً، أم كان تلميحاً اقتضاه مقام الحديث في أمور الأدب أو البلاغة، أو النقد . وإذا كنا لا نستطيع أن نحكم كلّ ما قيل، وان نُلّم به فهو كثير، لكنّا نستطيع أن نقف عند نماذج وإشارات متواضعة لإقامة الدليل على صحة ما نقول .

فمن خلال الدراسة النحوية القديمة يمكن أن نلمح الجهد العظيم الذي عرض للغة الفصحى محاولاً بجهد لا يعرف الكلل تصويرها في جميع مظاهرها، وبيئاتها، وأشكالها، الأكثر، والكثير، والأقل، والنادر، والشاذ، إلى ما هنالك من مستويات.

ومن خلال التأليف المعجمي، لا تعرف أمة من الأمم تفننت في أشكال معاجمها وترتيبها كما فعل العرب، وقد كانوا منطلقين ، حين لاحظوا جانبي

(١) انظر: اللغة والحضارة ص٢٥٨، اللغة والمجتمع د. وافي ص١١، اللسان والانسان ص١١-١٢.

الكلمة، وهما اللفظ والمعنى، فألفوا معاجم رُتِّبت على حسب الالفاظ، وأخرى رُتِّبت على حسب المعاني أو الموضوعات، وجمعوا ما عرفته بعض القبائل من الفاظ وتعبيرات، وفروق بين الألفاظ، فألفوا كتباً في موضوعات الحياة البدوية المختلفة[٢]، ووضعوا معجمات تهدف إلى ترتيب المعاني بطريقة خاصة، وذكر الألفاظ التي تقال للتعبير في كل معنى[٣]. ولم يقتصروا في معاجم الألفاظ على طريقة واحدة، وإنما اتبعوا عدة طرق لا مجال لتفصيلها هنا، ولكنها في جملتها تشير إلى نوع من الإدراك الصائب من لدن المعجميين العرب القدماء يتحدد في معرفتهم أن العمل المعجمي ليس علاقة اسم معين بمسمّى أو مفهوم معين، وإنما هو رصد للغة في حركتها الاجتماعية بملاحظة تنوع استعمالاتها، وتعدد أبنيتها قياساً إلى وظيفتها، أو الطبقة التي تستعملها، ومن هنا تعدّ المعاجم العربية رصيداً لا يستهان به من حيث الكم والنوع لبيان المعاني والدلالات اللغوية القائمة على ميدان التجربة عند المتكلمين في المحيط الاجتماعي المعين، بما يساعد على بيان الميول والحاجات التي تواخاها المتكلمون عند التعبير عن أغراضهم، والتي تستنبط أساساً من مجموع العلاقات الاجتماعية المعاشة، وكذلك بيان المفهوم الذي تفيده الكلمة المعينة في جميع سياقاتها واستعمالاتها، وإن كان المعجم العربي لا يهتم كثيراً بأصل الكلمة وتاريخها، ولهذا كلّه لا نعجب أن نجد عالماً لغوياً اوروبياً هو (هاي وود) يبهر بجهود المعجميين العرب فينطلق لسانه بهذه الشهادة التي يقول فيها : « الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلّون مكان المركز، سواء في الزمان أم المكان، بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب»[٤].

وفي الوقت الذي نجد فيه أنّ المعجميين العرب قد حاولوا بيان أثر الاستعمال

---

(٢) مثال ذلك مافعله الأصمعي (ت-٢١٣هـ) في وضعه كتباً في موضوعات الحياة العربية في عصره من نحو كتبه في : خلق الانسان ، والابل ، والخيل ، النبات ، والشجر ، وكذلك فعل ابو زيد (ت-٢١٤هـ) ، وغيرهما .

(٣) من ذلك كتاب الالفاظ لابن السكيت . والالفاظ الكتابية للهمذاني .

(٤) اللغة العربية بين الموضوع والاداة . د . احمد مختار عمر . مجلة فصول ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ١٩٨٤ ، ص١٤٢ .

في حياة الكلمة، وتعيين دلالتها، وتحديد معناها[٥]، (على) وفق المجموعة الناطقة بها، وبيان قربها أو بعدها من اللغة المشتركة بما عرف عنها من نظام في الأصوات والبنى والتراكيب، نجد من جانب آخر فريقاً من اللغويين يحاول أنْ يرصد عيوب المستويات اللغوية بالقياس إلى مستوى اللغة المشتركة. فعلى الرغم من أنّ العامية كانت معروفة في أيام العربية الأولى، ولا أريد بالعربية الاولى العصور التي سبقت الاسلام وظهور النبوة، فتلك حقب لا نعرف من أمرها الشيء الواضح الذي يمكن أن يكون أساساً للبحث[٦]. وأن العامية قد عرفت في أيام (الخليل بن أحمد) وأضرابه من اللغويين، فإنّ البحث في تاريخ العربية يدلّنا على الجهود التي بذلت كي تسود اللغة الفصيحة، في وضوحها، والتزامها الإعراب، وبعد أن شرّفها الله عزّ وجل لغة لكتابه الحكيم، ولتكون هذه اللغة لغة عامة يعرفها كلّ العرب لا أثر فيها (اللغات الخاصة) التي اعتادت كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها[٧].

وسواء استطاع اللغويون العرب من النجاح في مسعاهم الرشيد هذا أم لم ينجحوا فإنّهم قد قدّموا حالة مرضية من البحث لا يمكن تجاوزها اليوم لأنها تشكل جوهراً في الدرس اللغوي الاجتماعي يوليها أصحابه اهتماماً كبيراً.

فبين أيدينا عشرات من الكتب التي تعالج ظاهرة(اللحن) ومظاهره في اللغة، ويعدّ (الكسائي) (ت:١٨٩ هـ) رائداً في هذا المجال، فهو أول من وضع كتاباً في اللحن ضمنّه مجموعة من المفردات التي شاعت في زمانه تناقض المأثور عن لغة فصحاء البادية[٨]، وكان (سيبويه) (ت:١٨٠ هـ) من قبله قد أشار إلى بعض أسباب اللحن[٩]وكان (ابن السكيت) (ت:٢٤٤ هـ) قد وضع كتابه (إصلاح المنطق) ليعالج داءً قد استشرى في لغة العرب، محاولاً ضبط هذه اللغة، فساق لنا كثيراً ما يغلط

---

(٥) يعدّ جار اللّه الزمخشري في كتابه اساس البلاغة رائداً في هذا المجال .
انظر : مقدمة كتاب مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والادب والتراجم . د . عمر الدقاق مكتبة دار الشرق ، بيروت . (المقدمة لامين الخولي) .

(٦) انظر : دراسات في اللغة : د السامرائي ص١٩٧ .

(٧) انظر : نفسه ، ص٢٧ .

(٨) حققه الاستاذ عبد العزيز الميمني ، وطبع في القاهرة عام ١٣٤٤ هـ .

(٩) سيبويه . ٤٢٦/٢ .

فيه العامة على المستويات الصوتية والصرفية، أو ما يضعونه في غير مواضعه[١٠].

وضمن (ثعلب) (ت:٢٩١ هـ) فصيحة الألفاظ الفصيحة التي يودّ تقديمها لمن أراد تعلم الفصحى في صورتها المأثورة البدوية القديمة.

وأوقف (الجاحظ) في البيان والتبيين باباً بعنوان (ومن اللحّانين البلغاء)[١١] و (ابن جني) باباً في (سقطات العلماء)[١٢].

وأوقف (الزبيدي الاشبيلي) (ت:٣٧٩ هـ) كتابه في لحن عامة الأندلس في القرن الرابع . ووضع (ابن الجوزي) (ت: ٥٩٧ هـ) كتابه (تقويم اللسان)[١٣] ليتمثل خلاله أخطاء عامة أهل المشرق التي بُدأ بتسجيلها مع بداية القرن الثالث وظلت تنتقل على الألسنة حتى انتهت إلى بغداد في القرن السادس معتمداً في ذلك على كتب اللحون السابقة.

ووضع (ابن مكي الصقلّي) (ت:٥٠١ هـ) كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) في لحن عامة وخاصة صقلية في القرن الخامس الهجري . ذكر فيه أبواباً كثيرة من نحو: « ما العامة فيه على الصواب والخاصة على الخطأ »[١٤] و «ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر »[١٥] و « ما خالفت العامة فيه الخاصة وجميعهم على غلط »[١٦]، وكذلك ضمّن كتابه مجالاً رحباً لأخطاء المتخصصين وما جرى على ألسنتهم، ومن هؤلاء قرّاء القرآن، واهل الحديث، وأهل الفقه والوثائق، وكتّاب العقود، والبيع، والإجازة، وما إليها من العقود التي تسجّل المعاملات بين الناس، وكذلك أهل الطب ومصطلحاتهم، وأسماء عقاقيرهم، وما يطلقونه من مسميات على

---

(١٠) انظر : اصلاح المنطق ، لابن السكيت . شرح وتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون . دار المعارف ، مصر ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م الجزء الثاني ، ص٢٥١ وما بعدها .

(١١) البيان والتبيين : ٢٢٠/٢.

(١٢) انظر : الخصائص ، ٢٨٢/٣ - ٣٠٩ .

(١٣) حققه الدكتور عبد العزيز مطر وطبعته دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .

(١٤) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان . تحقيق . د. عبد العزيز مطر ، القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

(١٥) نفسه . ص٢٢٧وما بعدها .

(١٦) نفسه : ص٢٣٨ وما بعدها .

الأمراض[17]. بما يجعل هذا الكتاب مصدراً أصيلاً للهجات والمستويات اللغوية التي سادت في صقلية بين طوائف المتعلمين، وأصحاب المهن كالأطباء، وأهل الفقه والحديث وكتّاب الوثائق وغيرهم، مما يساعد على رسم صورة واضحة للمجتمع الصقلي بعامته وخاصته.

وتعدّ هذه الكتب التي ذكرناها وعشرات لم نذكرها[18] خير مصدر لمعرفة اللهجات الخاصة في بيئات الشرق والغرب العربيين، ويتبين من خلالها أيضاً موقف اللغويين العرب من هذه اللهجات.

وإذا كنا نجد أغلب اللغويين العرب الذين تحدثوا عن اللهجات، واللحن الواقع على ألسنة العوام أو الخواص[19]، قد اتخذوا جانباً معيارياً غايته التنبيه على الخطأ من أجل ألاّ يقع فيه المتكلمون وقصداً إلى المحافظة على اللغة وصيانتها من التحريف واللحن . فإنا نجد من جانب آخر فريقاً آخر قد حاول أن يترسم لنفسه منهجاً وصفياً غايته وصف ما هو كائن مما يتكلمه الناس بالفعل لا ما يجب أن يتكلموه دون التورط في مسائل الصواب أو الخطأ وذلك بلا ريب منهج يبحث عن الحقيقة لذاتها، وهو منهج علمي موضوعي لا يغفل المحافظة على اللغة ومراعاة سلامتها، « ولكنه ينظر إليها على أنّها ظاهرة متطورة، وإن ما قد ينظر إليه على أنه لحن أو تحريف ليس إلا صورة من صور التطور والتغير اللذين يلحقان باللغة على

---

(١٧) نفسه : صف الباب الخامس والثلاثين ص٢٤٧ الى الباب الاربعين ص٢٧٤ وما بعدها .

(١٨) انظر فيها : لحن العامة والتطور اللغوي ، ص ١٦١-٢٧٤ .
ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة . د . عبد العزيز مطر ، ط٢ دار المعارف ، مصر ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص٥ وما بعدها .

(١٩) العامة في نظر الجاحظ العرب الذين لم يبلغوا منزلة الخاصة اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً ، والخواص او الخاصة تتفاضل عنده في طبقات ايضاً قال في البيان ١٣٧/١ : « اذا سمعتموني اذكر العَوامّ فاني لستُ اعني الفلاحين والحَشوَة والصناّع والباعة ، ولستُ اعني ايضاً الاكراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار ... وانما الامم المذكورة من جميع الناس اربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم . والباقون همج واشباه الهمج ، واما العوام من اهل ملّتنا ودعوتنا ولغتنا واخلاقنا فالطبقة التي عقولها واخلاقها فوق تلك الامم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا ، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات ايضاً » .

فترات الزمن »[٢٠].

ويعدّ (الجاحظ) من أبرز الباحثين العرب ممن سلكوا هذا السبيل، ويعدّ لهذا خير مصدرلمعرفة لهجات العامة والخاصة، ومستويات الكلام وما يناسبها من المستويات الاجتماعية، فلكل شخصية من شخصيات كتابه (البخلاء) مثلاً ألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة، فالمتكلم يتحدّث ويناقش بكلام المتكلمين والقاضي تَرِدُ على لسانه التعبيرات الفقهية، والتاجر يستعمل الألفاظ المتداولة في السوق، والمكدّي يستعمل الألفاظ التي يستعملها المكدّون، واللصوص يستعملون تعابير اللصوص. فعنده إنّ كلام الناس طبقات كما أنّ الناس أنفسهم طبقات، يقول : «وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسّضمج، والخفيف والثقيل، وكلّه عربيّ، وبكلٍّ قد تكلّموا وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا »[٢١]. ولكل شخصية أو جماعة يعرض لها الجاحظ في (البخلاء) أو غيره من آثاره الخالدة لغتها وإطارها المكاني والزماني المحددين، ولها مع ذلك الوانها المميزة لنماذجها، وشخصياتها، بما يجعلها تعكس الحياة بكامل معانيها ومظاهرها، وهذه الألوان تقوم على جانبين أساسيين.

أولهما: جانب وصفي نلمسه في إسهاب (الجاحظ) في التفاصيل تصويراً وتعداداً، فهو يصور الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها وملامحها من عادات وتقاليد، وينتقل إلى وصف مسهب للآلات والأدوات المادية، وتسميات الأطعمة وأصنافها وأوصافها في عصره إلى ما هنالك من مظاهر الحياة.

وثانيهما: جانب تعبيري يقوم على ملاحظة دقيقة لكلام الناس، وما يصاحب هذا الكلام من عادات وظواهر فطن (الجاحظ) إليها وأولاها نصيباً من عنايته كما سنرى.

وحسبنا أن نعرف أن (الجاحظ) قد أشار إلى (لغة الأطفال)، وما تتصف به من الفاظ معينة يطلقها الأطفال على مسميات معينة، فالطفل يرمز للكلب مثلاً بلفظ (واوا ..) كما يرمز للشاة بلفظ (ماه)، قال:«والصبيان هم الذين يسمّون الشاة (ماه)،

---

(٢٠) دراسات في علم اللغة . د . كمال محمد بشر ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ ، ص٥٠ .

(٢١) البيان والتبيين : ١/١٤٤ .

كأنهم سموها بالذي سمعوه منها حين جهلوا اسمها. و « قيل لصبي يلعب على بابهم : من أبوك ياغلام ؟ وكان اسم ابيه كلباً، فقال: وَوْوَوْ »[٢٢].

وساق (الجاحظ) كثيراً من استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في أيامه، فقد عرض لشعر المتكسبين المتسولين[٢٣]، وتحدّث عن لغة الجواري والكواعب والشواب[٢٤] والسماكين واخبارهم[٢٥]، وكتب عن الحياة الخاصة لطائفة اللصوص في كتاب سماه (كتاب اللصوص)[٢٦].

وإذا كان من أبرز ما يدرسه علم اللغة الاجتماعي هومدى ما تحمله اللغة من طوابع الحياة التي يحياها المتكلمون، وأثر هذه الحياة في وسم اللغة بسمات خاصة من حيث المفردات والأساليب، فإنا نرى (الجاحظ) كثيراً ما يعرض لمثل هذه الظواهر محاولاً بيان ما تحمله اللغة من الحياة التي يعيشها مستعملو هذه اللغة، ولعل أبرز دليل على ذلك ما ساقه (الجاحظ في بعض (رسائله) عارضاً جماعة من أصحاب الحرف الذين « أدخلت الحرفة الضيم على لغتهم » يسألهم عن معركة دارت في بلاد الروم بعد أن قدم (المعتصم)، فيصفها كلّ واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته، ثم يذكر عدة أبيات في الغزل، و(الجاحظ) يؤكد مهنة كلّ من هؤلاء، ويذكرها ليشير إلى أثر ذلك في اصناف كلامهم، وهم : طبيب، وخياط، وزراع، ومؤدب، وصاحب حمّام، وكنّاس، وطباخ، وفرّاش، وخباز . ومن المفيد أن ننظر في طرف من حديث (الجاحظ) إذ يقول : « فخص يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلّ الأدب، فإنك إن افردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه، وذلك إني لقيت (حزاماً) حين قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب، كيف كانت؟ فقال:لقيناهم في مقدار (صحن الاصطبل) فما كان إلا بمقدار ما (يحس) الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق (ممرغة) فقتلناهم، وجعلناهم كأنهم (أنابير سرجين) فلو طرحت (روثه) ما سقطت إلا على ذنب دابة

---

(٢٢) الحيوان . ٢٨٨/٥ ، انظر البيان والتبيين . ٦٢/١-٦٤ .

(٢٣) البيان والتبيين : ١٣/٢ .

(٢٤) الكواعب : النواهد ، والشواب ، جمع شابة ، انظر البيان والتبيين . ١٤٦/١ .

(٢٥) الحيوان : ١٩/٦ .

(٢٦) دراسات في اللغة . د . السامرائي ، ص ١٦٣ ، وانظر : الحيوان ٣٦٦/٢ ، ٤٩١/٤-٤٩١ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إن يهدم الصبر من جسمي (معالفه)
فإن قلبـي (بقَتّ الوجــد) معمور

إني امرؤ في وثاق الحب يكبحــه
(لجام هجر) علـى الاسقام معثورُ

لبست بُرقع هجـر بعـد ذلك فـي
(اصطبل حبٍّ) (فروث) الحب منثور

قال: وسألت (بختيشوع) الطبيب عن مثل ذلك، فقال : لقيناهم في مقدار صحن (البيمارستان) فما كان إلا بمقدار ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم في أضيق من (محقنة) فقتلناهم، فلو طرحت (مبضعاً) ما سقط إلا على (أكحل) رجل ....

قال: وسألت (جعفر الخياط) عن مثل ذلك فقال: لقيناهم في مقدار (سوق الخلقان) فما كان إلا بمقدار ما (يخيط) الرجل (درزاً) أو (درزين) حتى تركناهم في أضيق من (جُرُبّان) فقتلناهم، فلو طرحت (إبرة) ما سقطت إلا على رأس رجل ... وسألت (ابراهيم بن اسحق) عن مثل ذلك وكان زرّاعاً، فقال: لقيناهم في مقدار (جريبين) من الأرض، فما كان إلا بمقدار ما (يسقي) الرجل من (ساقية) حتى تركناهم في أضيق من باب، وكأنّهم (أنابير سنبل) فقتلناهم فلو طرح (فدان) ما سقط إلاّ على ظهر (ثور) ... قال، وسألت (فرجاً الرُّخجي) عن مثل ذلك – وكان خبازاً – فقال : لقيناهم في مقدار (بيت التنور) فما كان إلا بمقدار ما يخبز الرجل خمسة (أرغفة) حتى تركناهم في أضيق من (حجر التنور)، فقتلناهم، فلو سقطت (جمرة) ما وقعت إلا على (جفنة) خباز ... »[٢٧].

وهكذا تجد المؤدب وقد ضمّن حديثه كلمات من نحو:الكتاب، والقراءة والدواة، وصاحب الحمام ترد على لسانه كلمات من نحو:يغسل، الاتون، ليفه. وترد على لسان الخمّار كلمات من نحو: صحن الشراب، والدن، سكران، وغير ذلك مما يوضح ويحدد مع أية بنية اجتماعية معينة تتفق بنية لغوية معينة، ويحدد أيضاً كيف تتمثل تغيرات البنية الاجتماعية بطريقة عامة في تغيرات في البنية اللغوية، مما اهتم به اليوم علماء اللغة الاجتماعيون كل اهتمام وحرصوا على البنية اللغوية،

---

(٢٧) رسائل الجاحظ ، (من رسالته في صناعة القوّاد) ص ٢٦١ وما بعدها .

وسواء أكانت هذه الأمثلة قاصرة أو متعسفّة، أو لم تؤدِ إليها مقدمات علمية يقينية، أم أنها فاعلة في إبراز تلك العلاقة فإن هذا الضرب من الدرس اللغوي لا يزال اليوم في أوائله « وهو بطبيعته محوج إلى فضل استقصاء، وزيادة احتراز، وإنّ النتائج التي توصّل اليها قليلة قلة بالغة »[28] ومن هنا يبدو لنا خطورة ما ألمح اليه (الجاحظ) في هذا المجال قبل مئات السنين مما يشير إلى فهمه البيّن إلى أنّ المستويات المهنية التي يزاولها المتكلمون تمثل ألواناً من العلاقات بين اللغة والمجتمع، فالغالب إنّ الكلام الذي يستعمله أصحاب المهن، بما فيه من ألفاظ وتراكيب وأمثال، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات دال على عمل صاحبه وعلى طبقته الاجتماعية، وإن اختلفت نسبة الدلالة باختلاف الأفراد والظروف والعصور، ومن واجب اللغوي الاجتماعي اليوم أن يربط الكلام بمستواه الاجتماعي، ويدلل على أسباب هذا الارتباط وأوجهه.

ويحاول (الجاحظ) أنْ يستعيد البيئة العامية بملحها، وظرفها، وتقاليدها، فيروي ما يثير الضحك والمرح من لهجات أولئك العامة[29].

وقد أكدّ (الجاحظ) ضرورة ألا نكلّم الآخرين إلاّ بما يفهمونه، وبما دأبوا على استعماله في تواصلهم، فإن التواصل السليم ما يتّم بواسطة ما هو شائع في عرف الجماعة الناطقة، بغضّ النظر عن صحته قياساً إلى النظام اللغوي العام المقرر في اللغة المعينة، ولقوم، أو أمة معينة، ولعل هذا المبدأ فيه ما يضارع مبدأ (الشيوع اللغوي) الذي نادى به بعض رواد المدرسة اللغوية الامريكية[30]، ولهذا أجاز (الجاحظ) لنفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة إذا كانا في كلام قائلهما، مراعياً بذلك حال المتكلم، ومناسبة الكلام . يقول في مقدمة (البخلاء): « وانْ وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب، ولفظاً معدولاً عن جهته، فاعلموا انّما تركنا ذلك لأنّ الاعراب في هذا الباب يخرجه من حدّه من أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء، واشحاء العلماء كـ (سهل بن هارون) وأشباهه »ويقول:«ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج

---

(٢٨) اللغة والمجتمع . د . السعران ، ص٤٠ .

(٢٩) انظر : البيان والتبيين ، ٧٣/١ وما بعدها .

(٣٠) انظر : الفصل الاول ، المبحث الثاني ، هامش رقم ١٤٣ .

ألفاظها، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخارج كلام المولّدين والبلديّين، خرجتَ من تلك الحكاية، وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، ومُلحة من مُلح الحشوة والطَّغام، فاياك أنْ تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سَرِيّاً، فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويُذهب استطابهم إياها واستملاحهم لها »[٣١].

وإلى مثل هذا اشار (عبد الرحمن بن علي) المعروف بـ (ابن الجوزي) (ت : ٥٩٧ هـ) بقوله: «حلفت ألا اكلّم عامياً إلا بما يوفقه ويشبه كلامه، ووقفت على نجّار فقلت له: بكم هذا البابان ؟ فقال:بسلمتان يا مصقعان.فحلفت ألا أكلّم عامياً إلا بمـــا يصلح »[٣٢].

وقد أوقف الإمام اللغوي (الخوارزمي) (ت : ٣٨٢ هـ) جلّ كتابه الموسوم بـ (مفاتيح العلوم) على ذكر المصطلحات والألفاظ المتداولة عند كلّ طبقة من العلماء وأصحاب الحرف والصناعات الخاصة بعلومهم وصناعاتهم،والشائعة على ألسنتهم، فهناك ما يتواضع عليه كتاب الرسائل والمؤرخون، وأرباب الآراء والمذاهب والأطباء والمنجمون، والموسيقيون، وهناك ما يتواضع عليه العاملون في ديوان البريد، أو ديوان الخراج، أو ديوان الجيش، وهناك ما يستعمل من الفاظ في دواوين الضياع والنفقات والماء . فكلٌ له الفاظه الشائعة في كلامه دون سواه[٣٣]، بما يجعل (مفاتيح العلوم) مدخلاً ومفتاحاً إلى معرفة علوم كثيرة، زيادة على ذلك نبّه (الخوارزمي) على دلالة اللفظ المعين عند الطبقة الاجتماعية المعينة، مثال ذلك لفظة (الرّجعة) فإنها عند (أصحاب اللغة) (المرّة الواحدة من الرجوع) لا يكاد يعرفون غيرها. وهي عند (الفقهاء) (الرجوع في الطلاق) الذي ليس ببائن. وعند (المتكلين) ما يزعمه بعض (الشيعة) من (رجوع الإمام) بعد موته أو غيبته . وعند (الكتّاب) (حساب) يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد. وعند (المنجمين) (سير الكواكب) من الخمسة

---

(٣١) البيان والتبيين : ١/١٤٥ –١٤٦ .

(٣٢) اخبار الظراف والمتماجنين ، ابن الجوزي ، دمشق ١٩٢٨ ، ص٧٧ .

(٣٣) انظر على سبيل المثال ، مفاتيح العلوم ، المقالة الاولى ، الباب الرابع ، ص٣٦ –٥١ ، والمقالة الثانية ، الباب الثالث ، ص٩٢–١٠٧ .

المتحيرة على خلاف نضد البروج[٣٤]. وغير ذلك مما يفيد ما يسمّى (بتخصيص الدلالة) وتضييقها إلى أبعد الحدود مما تكون فيه هذه الدلالة كالدلالة في الأعلام وأسماء الأشخاص، وهذا ما يؤثره الناس في حياتهم العامة اذ ينفرون عادة من تلك الكليات التي لا وجود لها إلا في الأذهان ويستعملون الدلالات الخاصة التي تعيش معهم فيرونها ويسمعونها، ويلمسونها، ولذا يسهل عليهم تداولها والتعامل بها في الحياة العملية تلك الحياة التي يكثر فيها ما يتعاملون به ويلمسونه ويحسونه، وهم لقصور في الذهن حيناً، أو بسبب الكسل والتماس أيسر السبل حيناً آخر، يعمدون إلى بعض الدلالات العامة فيضيقون دائرتها ويستعملونها استعمالاً خاصاً، وقد لا يتردد الفرد في بيئة معينة وفي زمان معين أنْ يضع لفظاً جديداً دالاً على حاجة جديدة في محيطه العملي، قد يقدّر لها الاستعمال من لدن الآخرين أن تشيع بينهم وتذيع، حتى تصبح وقفاً على تلك الجماعة دون غيرها.

إن تطور اللفظ في دلالته من العموم إلى الخصوص هو الذي يصيب كثيراً من ألفاظ اللغات في العالم[٣٥].

ومما يلاحظ في كتاب (ألف ليلة وليلة) إنّ صاحب الحكايات أو كل أصحاب الحكايات على علم بدقائق اللغة والأسلوب، وإنهم يعيرون كلّ طبقة من الناس لغتها الخاصة فكلام الأمير، أو الوزير، أو من على شاكلتهم الخاصة فصيح رفيع تسير فيه الجملة في نظام مرتب مقصود، يجعل منها لغة خاصة ليست لغة التخاطب، كما أن الحوار في هذه الحكايات يميل إلى الأسلوب العامي، وكأنّ كاتب الحكاية يريد في ذلك أن ينقل الحكاية كما تدور على ألسنة شخوصها ولا سيما إذا كانوا من الطبقة العامية[٣٦].

ولما كانت الأمثال قسمات واضحة بينة لوجه الأمة التي صدرت عنها، ووصف ضمني لوسائل حياتها، وطرق معيشتها. وهي زيادة على ذلك تكشف القناع عن نفسية الشعوب، وترفع الحجب عن طبائع الامم، فترى النفس البشرية في صفاتها، وفطرتها الاولى، فإنا نجد في كتاب (أبي منصور الثعالبي) (ت : ٤٠٩ هـ) الموسوم

---

(٣٤) نفسه، ص٣ .

(٣٥) انظر : تفاصيل ذلك في : دلالة الالفاظ، ص١٥٢ وما بعدها .

(٣٦) التطور اللغوي التاريخي . د . السامرائي، مصر ١٩٦٦، ص١٥٨ .

بـ (التمثيل والمحاضرة)[٣٧] مجاميع من الأمثال في أزمنة وأمكنة مختلفة، فمنها ما هو إسلامي جاهلي، وعربي عجمي، ومولكي سوقي، وخاصيّ عاميّ، وأمثال القضاة العدول والسؤّال والمكدين والشطرنجيين، والنبيذيين، والمغنون العشاق، والنساء، والصبيان، والعبيد، والخدم، والإماء، واللصوص، ونجد أيضاً نشرَ ما يجري مجرى هذه الأمثال من ألفاظهم، وما يأخذ مأخذها من فرائد النثر، وقلائد النظم، وفوائد الجدّ، ونوادر الهزل، ويوجد في هذا الأثر العربي أيضاً ما يتمثل به من القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وجوامع الكلم النبوي الشريف، وكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكلام الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وعيون أمثال العرب والعجم، وما يناسبها وما يشاكلها من نتف الخلفاء، وفقر الملوك والوزراء، ونكت الزهاد والحكماء وغيرهم، وما تختص به كلّ طبقة من هؤلاء وما ينفرد به كلّ فرقة من التجار، وسائر أهل الصناعات المتباينة الاقدار.

مما يشير ذلك كلّه إلى الفوارق اللغوية بين الطبقات الاجتماعية، وامتلاك الأفراد رصيداً لغوياً معيناً يتباين بتباين انتماءاتهم الاجتماعية والمهنية ومستوياتهم الثقافية، مما يساعد على تصنيف الأفراد حسب ملكاتهم اللغوية تبعاً للعوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية التي تميز مجموعة ناطقة عن مجموعة ناطقة أخرى.

ويقوم الوصف اللساني للدلالات اللغوية اليوم على ميدان التجربة عند المتكلمين في المحيط الاجتماعي المعين، ويلاحظ في هذا المجال أن في سلوك المتكلمين (مراكز اهتمام) معينة بالفاظ معينة تستنبط من مجموعة العلاقات بالحياة المعاشة، ومركز الاهتمام هذا يرتبط بالاختيار الذي يتوخاه المتكلمون ولذلك يختلف من مجموعة إلى أخرى، فكل حاجة اجتماعية مهما كانت ضيقة يقابلها ردّ فعل في الرصيد اللغوي، بما يعمل على تجلّي بعض الألفاظ وتخيّرها للتعبير بها عن دلالات خاصة بتلك الحاجة، فكلمات من نحو (نقابة) أو (جوع) أو (كفاح) تؤكّد كلٌّ منها (طبقه) اجتماعية معينة، بما يجعل هناك اختلافاً بين سياقات الكلام من لغة إلى أخرى، ومن استعمال اجتماعي إلى آخر، ولا يمكن لهذا السبب أن تعمّ ما تفيده كلمة معينة عند مجموعة معينة على ما قد تفيده في مجموعة اخرى.

---

(٣٧) حققه . الاستاذ عبد الفتاح الحلو ، القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م .

المبحث الثالث

نظرية السياق أو الإشارة اللغوية والموقف الكلامي

تخضع الكلمة فيما تخضع إلى بعدين أساسيين يمكن في ضوئهما مجتمعين أو منفردين تحديد دلالاتها، أول هذين البعدين بُعد واقعي، وأعني به المحط الإخباري الذي تستعمل فيه الكلمات، وثانيهما بُعد (سياقي)، حيث ترد فيه الكلمات وقد ارتبط بتركيب أو موقف معينين، معنى ذلك أنّ دلالة الكلمة دلالة مزدوجة، واجتماعية ونظرية تتجاوز الاعتباطية، فهي في جدل دائم قائم بين النظام الاجتماعي والنظام الإخباري.

وما دامت اللغة «نظام من العلاقات أو الدلائل اللغوية» Signe Linguistique[1] تعمل كما تعمل الآلة التي بواسطتها يتناقل الناس الخبر عن الأشياء، أو " انها ليست إلاّ نظاماً من القيم والعناصر المعتمد بعضها على بعض، تنتج قيمة كلّ عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد "[2]. أقول ما دام الأمر كذلك فإن فهمنا لوظيفة اللغة من حيث أنها (آلة) يتطلب أمرين معاً.

أولهما: توكيد أهمية (الموقف الكلامي) أو (المقام) أو (السياق) الذي تباشر فيه اللغة عملها.

وثانيهما: النظر إلى العوامل الرئيسية التي ينتظمها هذا الموقف، وهي (المتكلم) أو (الباث) و (المستمع) أو (المستقبل)، والأشياء.

وتقوم الإشارة اللغوية على التواؤم وهذه العوامل، فهناك إشارة لغوية متوائمة والمتكلم، ومتوائمة والمستمع، ومتوائمة وعناصر الموقف الكلامي بكل أبعاده، وأوضاعه وظروفه، وسياقه المتعلق بذلك ما قيل أو ما سيقال وغير ذلك[3]. وقد اشتهر ما اصطلح عليه بـ (سياق الحال) لدى (مالينوفسكي) و (فيرث) وسياق الحال هذا يقوم عند هذين العالمين وعند غيرهما على تحليل اللغة في ضوء رصد علاقاتها بالسمات والتغيرات الذي تجري فيه، و (سياق الحال) يعني فيما يعني :

---

(١) البنائية في اللسانيات ، ص١٨ .

(٢) علم اللغة العام ، سوسور ، ص١٣٤ .

(٣) انظر تفاصيل ذلك في : البنائية في اللسانيات ، ص٤٨ وما بعدها .

جملة العناصر المكوِّنة للموقف الكلامي أو (الحال الكلامية) ومن هذه العناصر المكونة للحال الكلامية نذكر[٤]:

أولاً : شخصية المتكلم أو السامع، وتكوينهما الثقافي وانتماءهما الاجتماعي أو المهني وشخصيات من يشهد الكلام من غير المتكلم والسامع – إن وجدوا – وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم أيقتصر على الشهود أم يشاركون من آن إلى آخر بالكلام، والنصوص الكلامية التي تصدر عنهم .

ثانياً : موضوع الخطاب، أو ما يدور حوله الكلام.

ثالثاً : هدف النص الكلامي وغايته المتوخاة في المشتركين في الكلام، كالإقناع أو الإغراء أو السخرية أو الألم، أو النقد ... الخ.

رابعاً : العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة، والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، كحالة الجو – إن كان لها دخل – والوضع السياسي، ومكان الكلام، وجنس المتحدثين، وكل ما يطرأ في أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال او أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكلّ ما يتعلق بالموقف الكلامي أياً كانت درجة تعلقه .

خامساً : موقع الكلمات من التركيب اللغوي ومستوى ذلك التركيب من حيث قربه أو بعده من القواعد المقررة في النظام اللغوي المعين.

وهكذا يتضح أن من أهم خصائص (سياق الحال) إبراز الدور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم وسائر المشتركين في الموقف الكلامي، وبيان أهمية موقع الكلمات من السلسلة اللغوية المعينة.

ومن دون هذه العناصر المكونة للحال الكلامية لا يستقيم الرمز اللغوي ولا يتم التواصل الصحيح الناقل للأفكار والمعبّر عن الحاجات « سواء اختلف المتكلم أم المستمع أم عناصر الموقف وأحواله، لأن هذه العناصر المتوائمة هي الوظائف

---

(٤) في تحليل الخطاب . د . رضا السويسي ندوة اللسانيات الثالثة ، تونس ١٩٨٥ ، ص٣ .
وعلم اللغة د. السعران ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣ ، ص٣٣٩ .
والاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية ، د ، نهاد الموسوي ، ص٥ .

الاساسية للغة عند المتحدثين »[٥].

وهذا ما يؤكّد أن ثمة إطار اجتماعي تستعمل ضمنه اللغة فتتأثر بمعطياته، وتتكيف عناصره وهي كما ذكرنا : « عنصر بشري في موقف لغوي ما، وعنصر موضوعي، يعمل على تحديد نوع الكلمات المستعملة، وعنصر هادف تحدث من أجله العملية اللغوية»[٦]. ومثلما دعا اللغويون الاجتماعيون إلى دراسة النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي وغير ذلك من مظاهر الحياة الإنسانية على الأسلوب اللغوي، كما بيّنا فيما مضى، فإنهم من جهة ثانية قد دعوا إلى دراسة أثر الموقف الكلامي المعين، ومناسبته، وظروفه في الاستعمال اللغوي، ويقتضي ذلك ملاحظة الكلمات والتعابير التي يستعملها المتكلم في مواقف الفرح، أو الحزن أو الاستقبال والتوديع أو في مواقف تعليمية أو أدبية أو سياسية او دينية، وغير ذلك من المواقف[٧]. ورصد اثر المستمع في تحديد الخصائص اللغوية، كأن يكون من جنس النساء أو المثقفين كي يتحاشى المتكلم نوعاً معيناً من الكلمات، أوكأنْ يكون المستمع طفلاً يحدثه أحد والديه في حديث قد لا يستخدم المتحدّث ألفاظه أو أسلوبه في مخاطبة الجيران، أو غيرهم.

وزيادة على ذلك فإنّ المرافعة القانونية الموجهة إلى القضاة مثلاً تختلف عن الخطبة الدينية، وتختلف عن الحوار الذي يقوم به المحامي وموكّله، ككلّ منها يفترض أشكالاً لغوية معينة، فالإنسان إنما يتخاطب مع غيره ضمن مواقف اجتماعية، وأنشطة إنسانية متعددة تحدّد شكل الأسلوب اللغوي الذي يعتمده المتكلم، ونوعية الكلمات التي يختارها . فالخطاب السياسي بحكم قصده التأثير على المخاطَبين لا بُدّ له من إعداد وتصوّر في ذهن المتكلم قبل إلقائه، ومثل ذلك الخطاب الأدبي الذي يقتضي استعمال وسائل لغوية معينة . أما الخطاب التعليمي فهو متأرجح بين التلقين والتواصل اللساني، إذ يعمد صاحبه إلى تحقيق التواصل

---

(٥) Paul Gaevin. The Prague School of Linguistics, in Linguistics edtted by Hill A. A. 1969 . p. 261-262 .

وانظر : الاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية ، ص٣

(٦) انظر :Personality and Language in Society in Papers in Linguistics. J. R. Firth. London Oxford University. 1959 p. 119-158

(٧) انظر : اللغة العربية في اطارها الاجتماعي ، ص٦٣ وما بعدها .

بينه وبين طلابه بتوفير بعض المعطيات اللغوية والنفسية والتربوية لتحقيق التفاهم والاقتناع، والادراك الجزئي أوالكلّي لخطابه من لدن المستمعين .

في حين نجد أن الخطاب اليومي الآني هو وحده الذي تتضح فيه ظاهرة التلقائية. ومن هنا فقد عكف كثير من اللغويين الاجتماعيين على وضع منهجية تستجيب للمعايير العلمية قصد تحليل الخطاب من وجهة نظر لسانية اجتماعية، «ولعل أول من اهتدى إلى وضع معالم هذا الطريق هو(لابوف) Labove في كتابه (علم اللسانيات الاجتماعية) وثمة دراسات في هذا الصدد ايضاً قدّمها (البرت) Albert و (فريك) Frake و (سانكوف) Sankoff وغيرهم»[٨]، وتبرز في هذا المجال مبادىء أساسية لا مناص منها في تحليل الخطاب، فلا بُدّ أن يتساءل من يتصدّى إلى ذلك عن :

هوية المخاطب، وموضوع خطابه، وكيفية إفراز الموضوع في الخطاب، وظروف فهم السامع وتأويله، ودخل هذه الظروف في علاقة الخطاب باللغة، وكيفية انعكاس العناصر غير اللغوية في التنظيم اللغوي لعناصر الخطاب، وغير ذلك مما يؤكّد دور الفرد متكلماً أو مستمعاً في العملية اللغوية، فاللغة مجال لإبراز إمكانات الفرد اللغوية، وذلك بحكم الأدوار التي يؤديها على مسرح، فما يستعمله وهو يؤدي دور الأبوة من ألفاظ وأساليب لغوية غير التي يستعملها وهو يؤدي دور الزوج أو العضو في النادي، أو الموظف المرؤوس، أو الرئيس، أو لاعب الشطرنج، أو ذي النشاط السياسي المعين، أو البائع أو المشتري، أو لاعب الشطرنج، أو الذي يستحث الناس للقيام بعمل اجتماعي معين . كل اولئك أدوار ذات تخصص فيما يستعمل من لغة، وتتأثر اللغة بشخصية الفرد في كل دور من هذه الأدوار، فالذي يستشهد بآية من آيات الذكر الحكيم في خطبة سياسية يقرأ تلك الآية بطريقة غير الطريقة التي يقرؤها للتعبد، فللآية الواحدة من آيات القرآن الكريم استعمالات مختلفة يتطلب كل منها طريقة أداء خاصة، لأن شخصية الخطيب غير شخصية المتعبد، أو المقرىء ولكل منهم مقامه الخاص الذي يباشر فيه اللغة.

وعلى الرغم من أنّ اللغويين العرب قد تحدّثوا في الغالب عن « حالات لا عن شخصيات، والكلام عن الحالات إنكار واضح للعنصر الاجتماعي الذي يعترف

(٨) تحليل الخطاب ، ص٤ والاثنوميثودولوجيا، ص١٥٧ .

بالتطور لا بالحالة الثابتة[٩]، إلا اننا نلحظ بوضوح تفطنهم الدقيق إلى (نظرية السياق) أو ما يطلقون عليه (مقتضى الحال) أو (المقام)، بما يتفق في كثير من أوجهه ومعطياته مع ملاحظات وآراء اللسانيين والاجتماعيين المعاصرين . فمن الكتب العربية الأولى التي حاولت أن تبين أثر السياق في تحديد الدلالة وتوضيحها مع بيان أثر اختلاف الموقع في اختلاف المعنى هو كتاب (الاشباه والنظائر في القرآن الكريم) لـ (مقاتل بن سليمان): اللغوي المفسّر (ت : ١٥٠ هـ)[١٠].

ويمكن أن نستخلص من بعض ما كتبه (الجاحظ) مجموعة من الحقائق العلمية التي تتعلق بموضوع مناسبة اللغة للمقام على نحو يشبه فكرة (سياق الموقف)التي اوردها المعاصر(برونوسنلاف مالينوفسكي)، فمداد الامرعند (الجاحظ) أنّ « لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والافصاح في موضع الافصاح »[١١] وأنه يجب على رأي (الجاحظ) «فهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[١٢]، « فالوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات » وعليه لا يجوز أن يكلم الخطيب البليغ «سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السُّوقة »[١٣].

وأنت « إذا أعطيت كلّ مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو » ويقرر[١٤] (الجاحظ) بعد هذا حقيقة لغوية علمية أخرى تؤكدّ حتمية العلاقة بين الموقف المعين أو الموضوع، وبين اللغة المستعملة، من أجل الوصول إلى الغرض

---

(٩) اللغة بين المعيارية والوصفية . ص٨٦–٨٧ .

(١٠) ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة . د . احمد نصيف الجنابي ، فرزة من مجلة المجتمع العلمي العراقي ، جـ٤ ، المجلد ٣٥، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م ، ص٣٧٧ .

(١١) الحيوان : ٣/ ٧١ .

(١٢) البيان والتبيين : ١/ ٩٣ .

(١٣) نفسه : ١/ ١٤٤ .

(١٤) نفسه : ١/ ١١٦.

الحقيقي الذي يقام على أساسه التواصل وما يرافق هذا التواصل من ملابسات الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية وغيرها مما يُشبع الكلام بالكثير من المعاني والدلالات التي تخلعها على اللغة تلك الملابسات والظروف، يقول (الجاحظ): «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسمُ أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب الفاظ المتكلمين، كما أنه إنْ عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الالفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذا كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الالفاظ أميل، وإليها أحنّ وبها أشغف، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وابلغ من كثير من البلغاء . وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا: العَرَض، والجوهر، وأيْس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهُذّية والهويّة والماهية، وأشباه ذلك»[15].

ويسعى (الجاحظ) أيضاً إلى تأكيد حقيقة اخرى من حقائق الدرس اللغوي الاجتماعي حين يزيد في ايضاح العلاقة بين اللغة والمقام الذي تستعمل فيه آخذاً بالاعتبار كلّ العوامل التي تحكم العملية اللغوية، وهي عوامل متداخلة ومعقدة إلى حد بعيد . فالمعنى عند (الجاحظ) «ليس يشرف أن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضعُ بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشَّرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخصاصيّ . فإن أمكنك أنْ تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مَداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطُف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكْفاء، فأنت البليغ التام»[16].

---

(١٥) نفسه : ١٣٩/١ ، والنسبة إلى : هذا ، وهو ، وما هو .

(١٦) نفسه : ١٣٦/١ .

ومن إشارات اللغويين العرب إلى مناسبة اللغة للمقام ما عرض له (ابن جني) في غير موضع من كتبه، كتقريره أنّ اللغوي لا ينبغي أنْ يكتفي «السماع» بل عليه أن يجمع اليه « الحضور والمشاهدة »، أي: عليه أن يحيط بظروف الكلام[17].

وكذلك ما عرض إليه (الخطيب القزويني) (ت : ٧٣٨ هـ) بقوله إنّ «مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه ... ومقام الايجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبيّ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام ... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا أعني: تطبيق الكلام على مقتضى الحال»[18].

ولعل من خير علمائنا اللغويين الذين مثّلوا تأثير الاحساس والمواقف العينة على البناء اللغوي هو (القاضي الجرجاني) (ت: ٣٩٢ هـ) الذي لخصّ رأيه في هذه المسألة بقوله : « وقد كان القوم يختلفون في ذلك (يعني التعبير الشعري) وتتباين فيه أحوالهم، فيرقّ شعر أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، وتوعّر منطق غيره .، وإنما بذلك بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك، وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كزّ الالفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تُحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبي (ص): « من بدا جفا »، ولذلك تجد شعر (عدي) وهو جاهلي، أسلس من شعر (الفرزدق)، ورجز (رؤبة) وهما أهلان، لملازمة (عدي) الحاضرة وابطانه الريف، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الاعراب، وترى رقة الشعر اكثر ما تاتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك، فإن انقصت لك الدماثة والصبابة، وانصاف الطبع الى الغزل، فقد جمعت لك الرقة

---

(١٧) انظر : الخصائص : ٢٤٨/١ ، وانظر : والاثنوميثودولوجيا ، ص١٥٦ .

(١٨) الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، ط٢ ، مطبعة الجمالية الحديث – مصر ، ص٨-٩ .

من أطرافها»[١٩].

والمتأمل هذا النص يقف عند ثلاث حقائق أساسية وهي مما يهتم به علم اللغة الحديث[٢٠].

الأولى: تظهر في قوله: إن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع . والجرجاني لا يقصد بالسلامة هنا كما يقصد غيره الذين آثروا لغة البادية لفصاحتها أو لبعدها عن لين لغة الحواضر والأمصار، إنه يريد العبارة التي تتفق مع الموقف النفساني للمتحدث، مما يُحدث عنه سلامة النظم أو التأليف.

الثانية: « ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته » وأظن أنّ الجانب الذاتي الذي يميز به كل انسان يتضح في هذه اللحمة، والدراسة الصوتية المعاصرة ما عادت تكتفي بشرح مخارج الحروف وأوصاف أجراسها، إنها تريد الكشف عن النظام الصوتي، وهو متفاعل مع الألفاظ التي يختارها المتكلم، ثم هو مرئي من خلال النغم والجرس . ولو ذكرنا ما أثار (سوسير) عن الحديث عن (الكلام) La Parole[٢١] فلن يضيق علم اللغة بملاحظة (الجرجاني) الذكي.

والثالثة: إن رقة الكلام تأتينا من قبل المتحدّث الذي ينصاف طبعه أي حديثه، وهو توكيد لأثر الموقف النفساني للمتحدث على لغته، وعن هذا الطريق يمكن أن نعرف بعض ما في الأعماق.

ومن الأسس التي بنى عليها الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) منهجه في دراسة المعنى اللغوي : بربط الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله، وقد توّج عبد القاهر نظريته هذه حينما تكلّم عن أبعاد ثلاثة للمعاني

---

(١٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحـ : وشرح . محمد ابو الفضل ابراهيم ومحمد البجاوي ، ط٢ البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٧٠هـ – ١٩٥١م .

(٢٠) انظر : اللغة بين العقل والمغامرة . ص١٩-٢٠ .

(٢١) انظر : علم اللغة العام . سوسور ، ص٣٢ .

وهي : المعنى المعجمي، ومعـــــاني النحو وأحكامه، والمعنى الدلالي[٢٢].

وتكلم أيضاً عن تغير الدلالة على مستوى الكلمة المفردة، وتغيرها على مستوى التركيب أو العبارة. فيما يعرف عنده بـ (المجاز اللغوي) و (المجاز العقلي) إذ يقول : « إننا اذا وصفنا الكلمة المفردة بالمجاز كقولنا : اليد مجاز في النعمة، والاسد مجاز الانسان، وكلّ ما ليس بالسبع المعروف، كان حكماً أجريناه على غير ما جرى عليه من طريق اللغة، أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة المفردة أصلها الذي وقعت له ابتداءً، وأوقعها على غير ذلك، إما تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه، وما نقلها عنه»[٢٣]. أما تغير الدلالة على مستوى الجملة والعبارة(المجاز العقلي) فهي عنده : « الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها، من مقتضيات النظم وعنها يحدث»[٢٤].

ولعل ما تورده كتب التراث حول مدح الشاعر البدوي (علي بن الجهم) الخليفة في بغداد بقوله :

أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

وإن الخليفة أدرك اثر البيئة والظروف الاجتماعية على الشاعر، لعل ذلك يدلّ على أنّ العرب أدركوا أهمية السياق أو المقام في فهم المعنى المقصود.

وكذلك فهناك ما يثبت أنّ اللغويين العرب تنبهوا إلى خطورة المقام وأثره في فهم دلالة النص، وهو أن الأصوليين اشترطوا اموراً لا ينبغي أن يغفل عنها في استخراج الأحكام من القرآن وهي :

١- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه .
٢- ألا يغفل عن السنّة في تفسيره.
٣- أن يعرف أسباب نزول الآيات.
٤- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

---

(٢٢) انظر :عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني، المفتن في العربية ونحوها، الدكتور زهران البدراوي ، ط٢ ، دار المعارف – مصر ١٩٨١، ص٢٢٤ ، ونظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة ، ص٢٨.

(٢٣) أسرار البلاغة ، ٢/ ٢٧٩ .

(٢٤) دلائل الاعجاز ص٢٠٠ .

فهذه العناصر الأربعة يمكن اختصارها في كلمة « المقام »[٢٥].

واذا تجاوزنا حدود المادة اللغوية موضع النظر من حيث (الدلالة الصوتية) وأعني بها ما تستمده الكلمة من معنى خلال طبيعة الأصوات التي تشكّلها، وقد فطن (ابن جني) وغيره من اللغويين العرب القدماء الى هذه الدلالات[٢٦]. وتجاوزناها من حيث (الدلالة الصرفية) حيث العلاقة بين البنية الصرفية ومعناها، وتجاوزنا أيضاً ما يكتنف المادة اللغوية من ملابسات خارجية في موقف المتكلم، وحال الخطاب، والمتغيرات التي يجري فيها المقام[٢٧]، وجدنا أنّ (الدلالة النحوية) نظام الجملة أو هندستها، وموقع الكلمة المعينة من ذلك النظام من حيث التقديم أو التأخير، أو الذكر أو الحذف أو التعريف أو التنكير مظهراً سياقياً فاعلاً، اذ لا يمكن عزل الكلمة عن العلاقات النحوية التي تضمها إلى غيرها، بما نلحظ من خلاله تعدد استعمالات الكلمة، وأبنيتها المختلفة، مع ضبط الوظيفة التي تقوم بها داخل التركيب المعين.

ومن هنا فقد ألحَّ (النحويون التحويليون) اليوم وعلى رأسهم (تشومسكي) على ضرورة ضبط الظواهر اللغوية، من حيث المبدأ، بشروط نحوية خالصة، وأن العوامل غير النحوية مما يلابس النحو، ويتداخل واياه، كمثل عقيدة المتحدث ازاء العالم الذي يعيش فيه، والفروض القبلية، وآثار موقف الخطاب، وغير ذلك لا تؤدي إلا أدواراً فرعية في تشكيل المستويات المتفاوتة لأصولية الجملة، أو كونها مقبولة لدى أبناء اللغة.

ويزيد التحويليون قولهم: «إن التفسير غير النحوي خطيئة لا يجوز لنا أن نفارقها إلا أن تفشل التشكيلات النحوية المحكمة، وإنّ العوامل غير النحوية مما لا

---

(٢٥) انظر : اللغة العربية مبناها ومعناها ، ص٣٤٨ ، ونظره في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة ص٣٠ .

(٢٦) انظر على سبيل المثال : الخصائص ١٣٢/٢، ١٣٩ ، ١٤٥، ١٥٢ ، ١٧٧ ، وما بعدها وجرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب . د . ماهر مهدي هلال دار الرشيد – بغداد ١٩٨٠ ، ص٢٨٨ وما بعدها .

(٢٧) انظر : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ، ص٤ .

يمكن تشكيله بأحكام قليلة الأهمية في نظرية النحو »[٢٨].

وبذلك يعرض التحويليون الى حد ما عما ينادي به غيرهم من (الوظيفيين) من ضرورة تحليل اللغة في ضوء رصد علاقاتها بالسمات والمتغيرات في العالم الخارجي، إذ ثمة وجوه عريضة من الظواهر تحكمها في الحقيقة عوامل غير لغوية.

وقد فطن اللغويون العرب القدماء إلى أن للألفاظ إطارها التركيبي وكونها الخاص من خلال هذا التركيب، وتعلقها ببعض على نحو يجسّد حركتها الداخلية ويدلّ من ثم على قدرة التركيب على إبراز المعنى المراد دون غيره .

وفي التراث العربي مئات الشواهد والإشارات التي تظهر بوضوح فهم اللغويين والأدباء والنقاد العرب إلى دور (نظام الجملة) أو ما يسمى بـ (نظرية النظم) والتأليف في بيان المعنى المراد دون غيره، وإن أي اختلال في هذا النظام يؤدي إلى ضياع المعنى الدقيق من الجملة المعينة، وقد قام أحد الباحثين المحدثين بأول إحصاء شامل مرتب ترتيباً زمنياً يشير إلى بذور فكرة النظم عند النحاة والبلاغيين والأدباء ومؤلفي كتب الإعجاز[٢٩] نجد من المفيد أن نسوق اطرافاً من إشارات النحاة التي تشتمل على اختبارهم الدقيق لفعل النظم في العملية اللغوية.

من ذلك ما ذكره (سيبويه) من أن مدار الكلام على تأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح، ووضع الألفاظ في غير موضعها دليل على قبح النظم وفساده، قال : « هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة : فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب فأمّا المستقيم الحسن فقولك : أتيتك امس وسأتيك غداً . وأما المحال فان تنقض أوّلُ كلامك بآخره، فتقول : أتيك غداً وساتيك امس، وأما المستقيم الكذب فقولك:حملت الجبل، وشربت البحر ونحوه . وامّا المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، ولي زيداً يأتيك، واشابه هذا. وأما المحال الكذب، فان تقول: سوف اشرب ماء البحر امس »[٣٠] .

وكان اهتمام (سيبويه) بنظم الكلام وتنسيق العبارات واضحاً في مواضع

---

(٢٨) نفسه : ص٤ .

(٢٩) هو الدكتور (حاتم الضامن) انظر كتابه : نظرية النظم ، بغداد ١٩٧٩ .

(٣٠) سيبويه : ٨/١ ،وانظر : نظرية النظم ، ص٨ .

كثيرة من كتابه فمنها : اهتمامه بحروف العطف وأثرها في صحة النظم وفساده، وتقديم المسؤول عنه بعد أداة الاستفهام، وأخبار النكرة عن النكرة، وغير ذلك مما يرى فيه (سيبويه) أنّ لكلّ استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لا بد أن ينشأ عنه تغيير المعنى[٣١] .

فتغيير لفظ عن رتبته الأساسية يفيد في تغير الدلالة المتأتية من تغير نظام الجملة وموقع اللفظ، وسبب ذلك عند سيبويه هو أن المتحدثين « يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعني »[٣٢].

ويبدو (عبد القاهر الجرجاني) أكثر وضوحاً من سيبويه في هذا المجال حين يقرر: إنّ تقديم المفعول به حصل لان مقام الاستعمال تطلّب تقديم المفعول، فهو الذي يهم الناس، ويعينهم ويتّصل بمسرتهم، وكل الذي هم متوقعون له، ومتطلعون إليه[٣٣] ويوضح (عبد القاهر الجرجاني) موقفه من نظرية النظم وأهمية تركيب الكلام في السياق بربطه كلّ كلام بمقام استعماله، وعنده أنّه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات، وإنما لكل موقف ومقتضى حال تركيب يتلاءم معه « فلا نظم في الكلم، ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك، وهذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس »[٣٤] . « واعلم أن ليس النظم إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه، وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها .. فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ الى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد اصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فازيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم او فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو، وأحكامه ووجدته

---

(٣١) نظرية النظم : ص٩ .

(٣٢) سيبويه : ٣٤/١ .

(٣٣) دلائل الاعجاز ١- بتصرف - ١٤٣ .

(٣٤) نفسه : ٤٧ .

يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه »[٣٥].

و« متى رأيت اسم فاعل أو صفة من الصفات قد بدئ به فجعل مبتدأ، وجعل الذي هو صاحب الصفة في المعنى خبراً، فاعلم أنّ الغرض إذا كان اسم الفاعل أو الصفة خبراً »[٣٦].

ومقام الحال عند (الجرجاني) هو الذي يقتضي المتكلم أن يحذف، أو يقدّم، أو يؤخر، ولكي يدرك الجرجاني هذه الفكرة بنقل تمثيل النحويين عليها بقوله:« كمثل ما يعلم من حال الناس في حال الخارجيّ يخرج فيعبث ويفسد، ويكثر به الأذى أنهم يريدون قتله، ولا يبالون من كان القتل منه ، ولا يعنيهم منه شيء، فاذا قُتِل، وأراد مريدٌ الإخبار بذلك، فإنّه يقدّم ذكر الخارجي فيقول: «قَتَلَ الخَارجيَّ زيد » ولا يقول: قتل زيد الخارجيَّ، لانه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له « زيد» جدوى وفائدة، فيغنيهم ذكره، ويهمّهم، ويتصل بمسرتهم ..»[٣٧].

وفيما ذكرناه للجرجاني، وغيره كثير مما لم نذكره يؤكدّ أن هذا الباحث العربي الجليل قد أعطى النحو معنى واسعاً عندما جعل علم المعاني جزءاً منه، ووضع أسساً عاماً، ومقياساً عاماً في النقد[٣٨]، هو النظر الى نظم الكلام نظراً يؤدي ما تريد من معان على خير وجه وأجمله[٣٩]، زيادة على جهوده اللغوية المختلفة، وخاصة فيما يتعلّق بعلم المعنى اللغوي[٤٠] ، الذي يعدّ فيه مؤصلاً مبتكراً يوازي آخر ما جاءت به النظريات اللغوية المعاصرة - تقريبا[٤١].

ومما نستحضره من أقوال النحاة في مجال (الدلالة النحوية)يحتاج الى بحث مستفيض فمواضع الحذف، والتقديم والتاخير، والتنكير والتعريف، وأساليب العربية في التعليل والطلب، والنفي،والتعجب،والنداء،والتوكيد، وغيرها مما استطلعه

---

(٣٥) نفسه : ص٦٤ .

(٣٦) نفسه : ص٢١٣ .

(٣٧) دلائل الاعجاز : ص١٤٣ .

(٣٨) النقد المنهجي عند العرب . د . محمد مندور ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٣٨٧ .

(٣٩) نفسه : ص٣٩١ .

(٤٠) انظر : علم اللغة العام . ١ . سوسور . ص١٠ وما بعدها .

(٤١) انظر : نظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة .

النحاة العرب من خلال اللغة العربية، تبرز لنا بوضوح استعداد اولئك النحاة للوصول بالتحليل اللغوي إلى حدود يكونون فيها سابقين إلى جملة من الأفكار التي يقرّها الدرس اللغوي المعاصر، ذلك انّ النحاة العرب قد كانت لديهم نظرية عامة في الجملة، ويظهر ذلك أولاً من تعريفهم الكلام أو الجملة[٤٢] بأنه «الكلام المفيد المستقل بنفسه»[٤٣] واشتراطهم أن تتركب من عنصرين أساسين أولهما المسند، وثانيهما المسند إليه، وهما « ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا»[٤٤] ، والافادة مقترنة باستقلال الجملة وعدم احتياجها إلى ما يتم معناها وقد عبّر عنها بالمعنى الذي يحسن السكوت عليه، وغاية الأمر عند النحاة العرب في الجملة أن تؤدي معنى مفيداً وذلك بتركيب المفردات على نحو معين، وهذا الترتيب متوقف على أبنية عامة، أو قل على قوالب – يمكن للمتكلم أن يسبك فيها الكلمات حسب اختياره .

---

(٤٢) من النحاة من يستعمل مصطلح الجملة مرادفاً لمصطلح الكلام ، ومنهم من يحاول أن يفرق بين المصطلحين ، وعندهم أن الكلام اخص من الجملة ، والجملة اعم وتشمل الافادة وعدمها ، ومن المحدثين من يحاول التوفيق بين المصطلحين . ونرى أن لافرق بين المصطلحين ، فكلاهما مما يشترط فيه الافادة وحسن السكوت عليه ، انظر تفاصيل ذلك في : اللمع في العربية ، ابن جني ، تحـ. فائز فارس ، الكويت ١٩٧٢ ، ص٢٦ .
شرح المفصل : لابن يعيش ، ١٨/١ .
مغني اللبيب ، لابن هشام ، دار الاصفهاني ، ط١ ، مصر ص٣٥ . النحو الوافي ، عباس حسن ، دار المعارف ، ط٤ ، مصر ١٩٧٦ ، ص١٥ .

(٤٣) اللمع : ص٢٦ « بتصرف » .

(٤٤) ليس لها شرح .

ويعللون سبب تقسيم الكلام العربي على ثلاثة اقسام بقولهم:«لأنّا وجدنا هذه الاقسام الثلاثة يُعبّر بها عن جميع ما يخطر بالبال، ويُتوهم في الخيال، ولو كان ها هنا قسم رابع لبقي في النفس شيء لا يمكن التعبير عنه،ألا ترى أنه لو سقط آخر هذه الأقسام الثلاثة لبقي في النفس شيء لا يمكن التعبير عنه بإزاء ما سقط»[٤٥] .

وتمتد أنساق الكلام عندهم وتتسلسل هو وَفْق امتداد الفرد في المجتمع فالتحقيق – عندهم – في ترتيب احرف المضارعة « أن تقدّم الهمزة، ثم النون، ثم التاء، ثم الياء، وذلك لان الهمزة للمتكلم وحده، والنون للمتكلم ومن معه، والتاء للمخاطب والياء للغائب، والاصل أن يخبر الانسان عن نفسه، ثم عن نفسه وعن غيره، ثم للمخاطب ثم الغائب..»[٤٦].

ولا بُد أن يكون علم السامع هو المسوغ المعقول والمقبول للحذف، وهو يجري في كتبهم كالأصل الثابت المتواتر، وهم يصرّحون به تصريحاً غير ملتبس ويمتد هذا المسوغ للحذف، فهو يسوّغ حذف المبتدأ، وحذف كان واسمها، وخبر إنّ واخواتها، وصلة الموصول، والعائد في صلة الموصول والمعطوف، والموصوف، والمفعول، والمستثنى وغير ذلك مما يجوز فيه الحذف لعلم السامع به، وشهادة الحال عليه[٤٧].

يقول (ابن السراج): « والمحذوفات في كلامهم كثيرة، والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود، إذا آنسوا بعلم المخاطب ما يعنون »[٤٨] .

وأعلن المبرد مسألة ما تقدّم تحت عنوان عريض هكذا: هذا باب ما حُذف من المستثنى تخفيفاً واجتزئ بعلم المخاطب، وذلك قولك: عندي درهم ليس غير. أردت:

---

(٤٥) اسرار العربية ، للانباري ، تحـ ، محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٣٧٧هـ – ١٩٧٥م ، ص٣–٤ .
وانظر : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ، ص٧ .

(٤٦) اسرار العربية ، ص٢٤ .

(٤٧) انظر في ذلك : الخصائص ، ٣٦٠/٢ وما بعدها ، باب (شجاعة العربية).

(٤٨) الأصول في النحو ، لابن السراج ، تحـ ، : د . عبد الحسين الفتلي ، النجف الاشرف ١٩٧٣، ٣٤١/٢.
وانظر : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ص٥ .

ليس غير ذلك »(٤٩) .

و يتخرّج عند (المبرد) حذف فعل الحلف في القسم وذلك «أن للقسم أدوات تُوصل الحلف إلى المقسم به ؛ لأن الحلف مُطرح لعلم السامع به » (٥٠) .

ويمثل علم السامع عندهم دليلاً على اختلاف جهات الكلام وخروج العبارة عن مدلولها النحوي الظاهري إلى معنى مختلف «فعندهم أنّ قولك: غفر الله لزيد، ورحم الله زيداً، ونحو ذلك «لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب، وإنما كان كذلك لعلم السامع أنك لا تخبر عن الله عزّ وجل وانما تسأله ..»(٥١).

ومن ذلك ما يخرج فيه الطلب إلى الدعاء كقولهم:«سقياً لك ورعياً » ومعناه : سقاك الله سقياً ورعاك رعياً . على سبيل الدعاء .

ومن المعروف عند النحاة أن النعت تابع متمم لمتبوعه، لدلالته على معنى فيه وهو النعت الحقيقي، أو في متعلق به وهو النعت السببي، والمراد بقول النحاة: متمم لمتبوعه هو أن الغاية من النعت توضيح المنعوت إذا كان معرفة أو تخصيصه إذا كان نكرة. غير أن النعت قد يرد لمجرد المدح أو ضدّه، أو الترحم فكثيراً ما يكون المنعوت غنياً عن الايضاح، أو التخصيص، فيدل النعت حينئذ على غرض آخر كالمدح والتعظيم كما في نحو: الحمد لله مالك الملك. أو الذم نحو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . او الترحم نحو: اللهم انا عبدك المسكين.

ومما يقوم على أساس ادراك السامع للمعنى المراد، بعد مراعاة التركيب العام ما مايراه أغلب النحاة من اعتبار جملة (يسبني) نعتاً لا حالا في قول الشاعر :

ولقد امرّ على اللئيم يسبني فمضيتُ ثمّة قلت لا يعنيني

اذ أن المراد منه أنّه لا يعني لئيماً بعينه، وانما المراد باللئيم الجنس، ونو

(٤٩) المقتضب : للمبرد ، تحـ. عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ١٣٨٥هـ – ١٣٨٨ هـ . ٤٢٩/٤.

(٥٠) نفسه : ٣٠٨/٢ .

(٥١) نفسه : ١٣٢/٢ ، ٣٢٥ . وانظر : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ، ص١٢ .

التعريف الجنسي يقرب في المعنى من النكرة، وذلك أبلغ في المعنى(٥٢).

ويؤكد النحاة العرب ما للتركيب الفعلي المعلوم فرعاً مبنياً للمجهول فالأصل عندهم كما هو معروف أن يسند الفعل إلى الفاعل، غير انّ مراعاة حال المتكلم، او المتحدّث عنه، تقتضي أحياناً ضرورة عدم ذكر الفاعل، فتقع عملية التحويل حسب شروط ثلاثة معروفة، إذ يحذف الفاعل، ويقام المفعول مقامه، وتغير صيغة الفعل، ومن اليسير استنتاج قواعد التحويل انطلاقاً من المراحل الثلاثة، فحذف الفاعل ضرورة يقتضيها حال الخطاب وإقامة المفعول مقامه تعني تطابق صيغة الفعل بالمفعول، وتغير صيغة الفعل عملية تعويض صيغة معلومة بصيغة مجهولة الفاعل .

وهذا التحويل المنطقي هو الذي يمنح الحرية للمتكلم في أن لا يذكر اسم الفاعل إنْ كان يخافه، أو يحتقره، أو يجهله، أو كان ذلك الفاعل مجهولاً أو مبهماً، أو كان معروفاً لا يحتاج الى ذكر أو بيان، أو كان منزهاً كما في قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) « من بُلي بشي من هذه القانورات فليستتر » فقد ترك ذكر المبتلي سبحانه تعظيماً له، وتنزيهاً أن يذكر مع هذا المبتلى به(٥٣).

ويتخذ ابن مالك تنوعات حال المتكلم حجة على مَنْ ذهب إلى أنّ المنادى محذوف في نحو : ياليتني كنت معهم، وأنّ التقدير : يا قوم ليتني كنت معهم. قال ابن مالك : « وهذا الرأي عندي ضعيف، لان قائل (يا ليتني) قد يكون وحده فلا يكون معه منادي ثابت ولا محذوف، كقول (مريم) عليها السلام : ياليتني مت قبل هذا »(٥٤).

ويطول بنا المقام لو أردنا بيان ما استقصاه النحاة العرب مما يعرض لحال كلٍّ من المتكلم والمخاطب في مواقف الخطاب، أو ما تخصصت به تراكيب معلومه لمواضع معلومه دون غيرها، أو ما يصح وما لا يصح من التراكيب اللغوية

---

(٥٢) انظر في ذلك : سيبويه : ٢٤/٣ ، شرح شذور الذهب . ص١٣ . خزانة الادب ، للبغدادي ١٧٣/١

(٥٣) انظر : شرح اللحمة البدرية في علم العربية ، لابن هشام الانصاري ، تحـ . د ، هادي نهر ، بغداد ١٣٩٧هـ -١٩٧٧م ، ٣٤٧/١ .

(٥٤) شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك ، تحـ ، وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي . مصر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م ، ص ٤ .

على وفق تصورنا للموقف اللغوي الخارجي، وعناصره، وغير ذلك(٥٥).

مما يؤكد لنا أن النحاة العرب قد فهموا اللغة دائماً على أنها ظاهرة ثنائية ذات مستويين، وأن مستوى الابنية المقدّرة (العميقة) من خلال النظر الى المواقف الخارجية وأحوال الخطاب عندهم أهم من مستوى اللفظ أو (الأبنية السطحية) . باعتبار أنّ الابنية العميقة هي أسس التفكير وهي التي تستوعب المفاهيم والأفكار، وما دور الأبنية السطحية إلا القيام بصوغ المفهوم على شكل تراكيب أصولية، وانّ منهج النحاة العرب في ترتيب الظواهر والأصوات اللغوية، ووضعها في نظام معين يعتبر مجهوداً للعقل البشري جديراً بالاعجاب، يمكن للباحث المنصف أن يعدهَ سبقاً على كثير من معطيات المدارس اللغوية الحديثة، ولست مدعياً بلا دليل إذا قررت أنّ النحاة العرب القدماء قد سبقوا (تشومسكي) مثلاً إلى بعض النقاط الجوهرية في النظام النحوي التوليدي أو ما يسمى (بالقواعد التحويلية) Transformationnelles التي انتشرت خلال السنوات العشرين الأخيرة، ومن هذه النقاط أو الفرضيات الأساسية عند أصحاب المدرسة التحويلية تلك الفرضية القائلة : « إنّ ما يبلغ أسماعنا أو ما تراه عيوننا من الظواهر اللغوية لا يعدو أن يكون من ظواهر البنية السطحية Surface Structure المتفرعة عن البنية العميقة Deep Structure (٥٦)، وأني لواثق أنّ نحوي العرب القدماء لن يلحظوا غرابة في هذا الكلام لو سنحت لهم الفرصة بالاطلاع عليه، بل أنَّهم سيجدون فيه حججاً وطرقاً في اللغة مألوفة لديهم .

---

(٥٥) انظر في ذلك الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية . ص ١٥ وما بعدها .

(٥٦) إنّ التمييز الحاصل بين البنى السطحية والبنى العميقة يثير مجموعة من التساؤلات : لماذا تتضمن اللغة بنية سطحية وبنيه عميقه تختلفان في طبيعتهما . ولماذا للغةٍ معينة (العربية مثلاً) طريقة خاصة للتعبير دون غيرها ؟ ولماذا تنتظم هذه اللغة أو تلك على هذا النمط وتعزف عن سواه ؟ وكيف يمكن وضع نظام من القواعد التي تمكننا من وصف كل الجمل النحوية . وذلك انطلاقاً من أبنية الجمل في مستوى الأبنية العميقة .

انظر : « البنيوية » ، جان بياجية ، تحـ . : عارف منيمنة وبشير اوبري ، ط٢ ، بيروت ١٩٨٠، ص٦٨وما بعدها .

البنائية ، محمد الحناش ، ص٣٨٦ – ٣٨٧ .

المبحث الرابع

لغة السلوك وقواعد التصرف الاجتماعي

من بين نظم الإشارات الأكثر متعة الذي أولاه المهتمون بدراسة وسائل التواصل بين الناس ومنهم علماء اللغة هو دراسة ما أطلقنا عليه (لغة السلوك)، ونعني به مجموعة قواعد التصرف الاجتماعي أو قواعد السلوك اللغوية التي يتعارف عليها الناس في مجتمع ما، وهذه القواعد نتاج للحضارة الانسانية تألفها الشعوب والامم وتتعارف عليها، وتتداولها انطلاقاً من الموضوع الذي هي فيه .

وهي أيضاً مما يتطلب دائماً منفذاً للتصرف أو السلوك المعين، وتتطلب في الوقت ذاته مستلماً لذلك التصرف او السلوك، وهي بهذا الاعتبار تتفق واللغة المحتاجة دائماً إلى باثٍّ للكلام ومستقبل له، هذه اللغة السلوكية الخاصة هي التي تعرف اليوم عند علماء الدلالة بلفظة (اتيكيت Etiquette) ، وهو أحد نظم التواصل والتعبير في المجتمعات والمتأمل فيها يمكنه تقسيمها على قسمين .

أولهما : أفعال مادية خارج الحقل اللغوي كأن تكون حركات أو تصرفات معينة دالة

وثانيهما: أفعال داخل الحقل اللغوي يقتضيها النظام اللغوي المعين في اللغة المعينة ليحكم من خلالها « مقاييس اللياقة وعدم اللياقة في المجتمع الكلامي الواحد »[1] وهي مقاييس متعددة ومعقّدة .

فمن القسم الأول، نذكر مثلاً تنازل رجل عن مقعده لرجل مسنّ أو امرأة أو ضيف (حتى لو كان اقل عمراً) دلالة على الاحترام أو الشعور بالمسؤولية الانسانية أو الاخلاقية تجاه رجل ضعيف القوى أوامرأة لاتصبر على الوقوف أو ضيف نحاول إكرامه، وهذا التصرف الاجتماعي المتعارف عليه وسيلة من وسائل الإبلاغ والتواصل لاننا نستخدمه « عندما تحلّ أفعالنا محل كلماتنا »[2] ، فهو نظام خاص من نظم الإشارات، ولغة تستعمل في المجتمع ويؤديها سلوكنا، وتكتسبها الأجيال تتوارثها وتورثها، وقد تنقص منها أو تزيد .

---

(١) انظر : علم اللغة . د . السعران ، ص٧٩ .

(٢) أصوات وإشارات ، ص٢٢ .

ومن هنا فقد اختلفت هذه القواعد من مجتمع إلى آخر، ومن زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان تبعاً للمستوى الحضاري أو الفكري أو الاجتماعي أو الديني الذي يعيشه الشعب المعين، أو الأمة المعينة .

ففي المجتمعات العربية مثلاً يكون الشخص المتطي جواداً هو السبّاق إلى تحية أحد السابلة بغض النظر عن الفرق في العمر أو المركز، أو الجنس، والشخص القادم يحيي الشخص الواقف، والواقف هو السبّاق الى تحية الجالس .

واذا بادر أحد الشباب إلى تحية رجل مشهور مسنّ يهمّ بدخول الغرفة فأنه يعتبر سلوكاً يفتقر إلى الذوق، رغم أن عكس هذا التصرف في رأي الاوربيين يفتقر إلى الذوق، لو أنّ الرجل المسّن كان السبأق إلى تحية الشاب[٣].

وفي مجتمعنا العربي كان العرف وما يزال في بعض الأقطار العربية يوجب أن تمشي المرأة وراء الرجل وعلى مسافة معينة، ولايسمح لها بأنْ تصافح رجلاً التقاه زوجها في الطريق، بل يُعدّ من المحرمات تقبيل يد المرأة من شخص آخر غير زوجها او ابنها أو أخيها، في حين يعدّ ذلك دلالة على الاحترام عند الاوربيين .

وكهذا نجد « أن الافتقار إلى الذوق أو انتهاك حرمة (الاتيكيت) هو الذي - رغم انه يبدو متناقضاً - يجعل من (الاتيكيت) نظاماً للاشارة، وفي الحقيقة أننا عندما نلتزم بقواعد السلوك في المجتمع فان قيمة « سلوكنا الإشاري » تكون صفراً، (إنّ كل شيء هو كما يجب أن يكون) لنفرض أنك صافحت اصدقاءَك لدى زيارتهم ثم جلست بعد استئذانهم الخ . لكن في اللحظة التي ترفض مدّ يدك للتحية، أو تجلس دون أنْ تستأذن فأن القيمة العدمية تتلاشى مباشرة، لان تصرفاتك ستبدأ مباشرة « بالحديث » عند إبداء الاحترام لأصدقائك الذين رفضت مصافحتهم والمضيفين عندما ارتميت على الكرسي دون أن تستأذن »[٤].

وقد كان للعرب علم بقواعد السلوك والتصرف الاجتماعي معروفة لدى الجميع، وكان للباحثين العرب اهتمام في دراسة وتسجيل مثل هذه القواعد، ويُعدّ (ابو الحسين هلال بن المحسن الصابئ) (٣٥٩ هـ - ٤٤٨هـ) خير مثال على ذلك، فقد وضع كتابه الموسوم بـ (رسوم دار الخلافة) ليضمنه مجموع العادات المتبعة

---

(٣) أصوات وإشارات ، ص٢٢ .

(٤) نفسه : ص٢٢ .

في شؤون الألفة، وآداب المعاشرة والتواصل ومجموع القواعد التي يعتمدها الناس في أمور الاحتفاء والسياسة والقيام بها، وفي مقابلة الملوك والسياسة وهو مايعرف اليوم باسم (بروتوكول) Protocole ، وما يدور بحضرة أولي الامر، وفي مكالمتهم، ومقابلتهم ومسايرتهم، ومنادمتهم، ونحو ذلك(٥).

ومن القسم الثاني الذي يباشر الحقل اللغوي ما ألمحنا إلى شيء منه عند الحديث عن السياق النحوي، ونزيد هنا الأمر وضوحاً فنقول: إنّ لغتنا وكلامنا العادي يخضعان إلى قواعد وأنماط السلوك والتصرف الاجتماعي . فالطريقة التي يخاطب بها الصغير غير التي يخاطب بها الكبير، وما يخاطب به الرئيس غير مايخاطب به المرؤوس، وهكذا الأمر بالنسبة إلى المخاطب المحترم، والمخاطب العادي، والطالب والمطلوب، والسائل والمسؤول، والقريب والبعيد، والرجل والمرأة . ففي كل لغة من اللغات المنطوقة ألفاظ وعادات لغوية خاصة بها، يقتضيها نظام تلك اللغة، وهو نابع أساساً مما تعارف عليه المجتمع المعين من عادات وتقاليد تحكم عملية التواصل اليومي بين الناس .

«ففي الروسية كما في الألمانية يستعمل اللفظ (Du) لضمير المخاطب العادي و (Sie) لضمير المخاطب المحترم .... وفي لغة (التبت) يتمّ التعبير عن الافكار بكلمتين مختلفتين تبعاً للشخص المخاطب، فمثلاً يسمىّ الرأس (go) في الكلام الاعتيادي، و (a) في الكلام المحترم، وتسمّى الفكرة (Sampa) في الحالة الاولى (Gongpa) في الحالة الثانية، أما في اليابانية فان « حالات الاحترام » و« درجات التأدب » تختلف كثيراً، هناك عبارات نحوية خاصة تستعمل لدى مخاطبة الندّ والأعلى مرتبة، والأدنى مرتبة سواء في اللقب أم في المركز الاجتماعي »(٦).

وقد ساق اللغويون العرب القدماء كثيراً من الأنماط والعادات اللغوية التي تتفق مع العادات وقواعد السلوك العامة التي عرفها المجتمع العربي فقد خصّوا تراكيب معينة لمواضع وأحوال معينة، فلا يجوز عندهم مثلاً أن « يخبر عن الله – عز وجل – إلا على خلاف ماتخبر به عن المعنى في غيره، وجنس الفعل واحد في الأعمال، نحو قولك : رحم الله الناس، ورحم زيد عمراً، فالرحمة من زيد رقّة

(٥) انظر : رسوم دار الخلافة ، ابو الحسين هلال بن المحسن الصابئ ، تحـ ، ميخائيل عواد ، مطبعة المعاني ، بغداد ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤ م .

(٦) أصوات وإشارات : ص٢٣ .

وتّحن، والله – عزوجل – يجلّ عنها وكذلك علم الله وهو العالم بنفسه ونقول : علم زيد علماً، وانما ذلك علمَ جعل فيه، وأدب اكتسبه، وكذلك جميع ماتخبر به، فمخارج الأفعال واحدة في الأعمال، والمعاني تختلف »[٧] على وفق أقدار المخاطبين أو المخبر عنهم .

وكذلك لايجوز في كل شيء التعظيم، ولا كلّ صفة يحسن أن يعظّم بها، فلو قلت : مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب، أو البزاز لم يكن هذا مما يعظّم به الرجل عند الناس ولايفخّم به[٨].

والصفات عندهم « لاتتساوى أحوالها في قيامها مقام مواصفاتها، بل بعضها في ذلك أحسن من بعض، فمتى دلّت الصفة على موصوفها حسنت إقامتها مقامه ومتى لم تدلّ على موصوفها حسنت أقامتها مقامه، فمن ذلك قولك: مررت بظريف فهذا أحسن من قولك مررت بطويل، وذلك أنّ الظريف لايكون إلا انساناً مذكراً ورجلاً أيضاً، وذلك أنَّ الظَّرف إنما هو حسن العبارة، وأنّه أمر يخص اللسان، فظريف إذاً مما يختص الرجال دون الصبيان، لأنّ الصبيّ في غالب الأمر لاتصح له صفة الظرف، وليس كذلك قولنا : مررت بطويل؛ لأنّ الطويل قد لايجوز أنْ يكون رجلاً، وأن يكون رمحاً، وأن يكون حبلاً وجذعاً، ونحو ذلك، فهذا هو الذي يقبح، والأول هو الذي يحسن، فإنْ قام دليل من وجه آخر على إرادة الموصوف ساغ وضع صفته موضعه »[٩].

وليس كل شيء من الكلام يكون تعظيماً لله – عزّ وجل – يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين، فلا يجوز عندهم أن يقال : الحمد لزيد على إرادة العظمة . لأنّ التعظيم كما يقول (السيرافي) (ت. ٣٦٨هـ) « يحتاج إلى اجتماع معنيين في المعظّم؛ أحدهما أنْ يكون الذي عظّم به فيه مدح وثناء ورفعة . والآخر أن يكون المعظم؛ قد عرفه المخاطب وشهر عنده بما عظم به، أو يتقدم من كلام المتكلم مايتقرر به عند المخاطب حال مدح وثناء وتشريف في المذكور يصح أن يورد بعدها

---

(٧) المقتضب : ١٧٦/٤ – ١٧٧ .

(٨) سيبويه : بتحقيق عبد السلام محمد هارون . ٦٩/٢ .

(٩) المحتسب : ابن جني ، تر : النجدي ناصف ، والدكتور عبد الفتاح شلبي ، القاهرة ١٣٨٩هـ–١٩٦٩م ، جـ ١٠١/٢ .

التعظيم »[١٠].

ومن الصور اللغوية المعروفة التي تبرز من خلالها المستويات الاجتماعية تصرّف الضمائر والصيغ المسندة إليها، واللغات في هذا الشأن متفاوتة فمنها مالا يفصل ولايميز في الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعي للمتكلم والمخاطب والغائب ؛ ومنها مايميز شيئاً من التمييز في ضمائر الخطاب على وجه الخصوص ؛ ومنها مايبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز، والتعقيد، فيتغير كلٌ من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة المتكلم في السلّم الاجتماعي من المخاطب الغائب .

وقد عرض بعض الباحثين المحدثين[١١] تخطيطاً عاماً لدراسة الضمائر في العربية الفصيحة من حيث إظهارها للمستوى الاجتماعي للمتكلمين والمخاطبين والغائبين، مستخلصاً بحذق الدلالات الاجتماعية للضمائر العربية في العصور المختلفة، ومن خلال أنواع كلامية متعددة فهناك القرآن الكريم، والشعر، والخطب، والأمثال، والوصايا، ولغة التخاطب العادي، بما أكّد كثيراً من مقولات اللغويين القدماء في ضرورة تنوع العبارة على وفق منزلة المتكلّم « فإن كان المتكلم من سواء الناس حدّث عن نفسه بمثل (أنا) و (اقرأ) » أما الله تعالى فيخبر عن نفسه بلفظ ملك الأملاك نحو (نحن قسمنا) و (إنّا اعطيناك) وهو وحده لاشريك له ؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب، والملك الرئيس والعالم يخبرون عن أنفسهم بلفظ الجماعة فيقول: قد أمرنا لك بكذا، وهو الأمر وحده..»[١٢].

« ويتوقف النحاة إلى حقيقة المتكلم وحاله ويكشفون عن علاقتها بحقيقة المتكلم وأحواله » فابن جنّي يقرر أنّ الندبة « أكثر مايتكلّم بها النساء » متنبهاً إلى ما يشبه حسابَ تواتر أسلوبٍ من الأساليب الكلامية وفقاً : لجنس المتكلّم[١٣].

ومما يشير إلى وجوب تغير صفات الخطاب وعناصره على وفق منزلة المخاطب والأحوال التي تعتريه في مباحث النحاة العرب الأقدمين مايمكن إجماله

---

(١٠) سيبويه : ٦٩/٢ .

(١١) انظر :اللغة والمجتمع . د . السعران ص ٨١ وما بعدها .

(١٢) اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه ، القاهرة ١٣٦٠هـ – ١٩٤١م ، ص٢٠٨ .

(١٣) اللمع في العربية . ص ١٢٠ وانظر : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية : ص١٤ .

بالآتي[١٤].

أولاً : تقسيم الطلب إلى أمر، نهي، ودعاء، وعرض، وتحضيض، واستفهام فالأمر عندهم لمن هو دون، والطلب ممن أنت دونه، والدعاء طلب من فوقك، « لأنك تأمر من هو دونك وتطلب مِنْ أنت دونه »[١٥] وأصل الدعاء أن يكون على لفظ الأمر، وإنما استعظم أن يقال : أمر والأمر لمن دونك، والدعاء لمن فوقك، واذا قلت : اللهم اغفر لــــي، فهو كلفظك إذا أمرت فقلت : يازيــــد أكرم عــــمراً . . . »[١٦].

والعرض والطلب برفق ولين، والتحضيض طلب بشدة .

ثانياً : والتنكير عندهم ضرب من الكلفَ والتصغير، كما أن التعريف ضرب من الاعلام التشريف ولأجل ذلك « لم تندب العرب المبهم ولا النكرة لاحتقارها، وإنما تندب بأشهر أسماء المندوب ليكون عذراً لها في اختلاطها وتفجعها »[١٧].

ثالثاً : ملاحظتهم حال المخاطب من حيث قربه أو بعده، أو إقباله وانصرافه، ولذا قسّموا حروف النداء على أقسام « فالهمزة المقصودة للمنادى القريب الذي لم ينزل منزلة البعيد، وبقية الألفاظ[١٨] للمنادى البعيد حقيقة أو حكماً وهو الغافل، والنائم والثقيل السمع، وغيرهم اذا أريد المبالغة في ايقاظـــه»[١٩].

« وإذا قصدت إلى خطاب الرجل وهو غير مقبل عليك غير متنبه إليك قلت : يافلان أنت تفعل، فتبدأ بالنداء حتى يقبل عليك، أما إذا كان مقبلاً عليك بوجهه، منصتاً لك، فانك تقول : أنت تفعل، فتترك يافلان، استغناءً باقباله»[٢٠].

رابعاً : و«لا» حرف جواب بالنفي، و « كَلا» مثلها غير أنّ فيها معنى الجواب

---

(١٤) انظر غيرها في : الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية ، ص١٩ ومابعدها .

(١٥) المقتضب : ٢/ ٤٤ .

(١٦) اصول النحو : ٢/ ١٧٧ ، وانظر : سيبويه بتحقيق عبد السلام هارون : ٢/ ٤٤ ، ١٣٢ .

(١٧) المحتسب : ١/ ١٦٨ - ١٦٩ .

(١٨) البقية المقصودة هن : الهمزة الممدودة . و « اي » مقصورة وممدودة ، و«أيا» و« هيا » و« وا » و«يا» .

(١٩) شرح اللمحة البدرية ، ٢/ ١٠٣ .

(٢٠) سيبويه : ٢/ ٢٣٥ .

الزاجر الرادع وفيها أيضاً معنى التهديد والوعيد[٢١].

خامساً: وكانوا يرون أنّ « على المتحدث أنْ يحدث الناس ماحَدَجوه بأبصارهم»[٢٢] وأذنوا له بإسماعهم، ولحضوره بأبصارهم، فاذا رأى منهم فترة فليمسك لأن « من لم ينشط لحديث فارفع مؤونة الاستماع منك »[٢٣].

سادساً: واذا كان من عادة بعض المتحدثين أن يكثر من تكرار بعض الالفاظ أو العبارات في أثناء الحديث، فإنّ جملة الأمر في ذلك على رأيهم « أنّه ليس فيه أي تكرار حد ينتهي إليه، ولا يؤتى على وصفه، وإنّما ذلك على قدر المستعين، ومَن يحضره من العوامّ والخواصّ »[٢٤].

سابعاً: واحتفى النحاة بالمواضع المتّفقة بين النظام اللساني ونظام الوجود الخارجي فاعتبروا المؤنث الحقيقي أقوى من المؤنث المجازي، لأنّه اجتمع له التأنيث من وجهين : داخلي لغوي، وخارجي وجودي، يقول (الزمخشري) (ت٥٣٨هـ) « والتأنيث على ضربين : حقيقي كتأنيث المرأة والناقة ونحوهما مما بازائه ذكر في الحيوان، وغير حقيقي كتأنيث الظلمة والنمل ونحوهما مما يتعلّق بالوضع والاصطلاح، والحقيقي أقوى، ولذلك امتنع في حال السعة : « جاء هند » وجاز « طلع الشمس »، وإن كان المختار « طلعت . . »[٢٥].

ثامناً: وتمثل الحال المشاهدة التي يقع فيها الحدث الكلامي عنصراً من عناصر الكلام لديهم، وتشكل مسوغاً للحذف – وهو باب واسع من أبواب العربية – أثراه اللغويون بحثاً وتمحيصاً على وجوه متعددة – والتعبير بالحال المشاهدة مصطلح صريح من مصطلحهم واتخاذه دليلاً على الحذف خاصة أصل متواتر في كتبهم، بل تجاوزوا ذلك إلى اعتبار « حال الطقس » فلا تستعمل « إنْ » عندهم إلا في المعاني المحتملة الشكوك في كونها، ولذلك قُبح أن يُقال : إن طلعت الشمس

---

(٢١) انظر : مغني اللبيب : ١٦٠/١ .

(٢٢) البيان والتبيين : ١٠٤/١ « بتصرف » .

(٢٣) نفسه : ١٠٥/١ .

(٢٤) نفسه : ١٠٥/١ .

(٢٥) شرح المفصل : ٩١/٥ ، وانظر : الأعراف او نحواللسانيات الاجتماعية : ص٢٠ .

أتك، إلا في اليوم المغيم[٢٦].

فاذا زيد على ذلك كله مانجده، في كتب البلاغة من تقسيم الكلام على قسمين : « قسم يدلّ لفظه على معناه من غير واسطة، وقسم لايدل على معناه ولكن يدل على معنى ثان هو المراد، وهو مايتسابق فيه البلغاء، ويتبارى فيه فحول الكلام، وزمان البلاغة، والاول الحقيقة، والثاني هو المجاز والكناية بالتمثيل إثبات للمعاني . . »[٢٧].

واذا تأملنا ما افاض به الدرس البلاغي من بيان ضروب المجازات، والكنايات والاستعارات وكيفيات إلقاء المتكلم الخبر للمخاطب، والمعاني التي يخرج اليها الطلب، والاستفهام، وصور المحسّنات البديعة من تورية[٢٨]. واستطراد[٢٩]، وحسن التعليل[٣٠]، والمشاكلة[٣١]، وغير ذلك[٣٢]، بان لنا ما للنحاة والبلاغيين العرب القدماء من صدور تلقائي في تفسير الظواهر اللغوية بما يهيء لنا أن نستصفي أصلاً خالصاً في التحليل يستمدّ معطياته من أعمال النحاة وأعمال البلاغيين، ولكنه يمثل نقطة التقاء مشترك بينهم ثم يفترقون .

« وهكذا يصبح هذا البعد الخارجي أصلاً في النحو على مستوى، وأصلاً في

(٢٦) شرح المفصل : جـ ٩/٥ ، وانظر : الاعراف أو النحو اللسانيات الاجتماعية ، ص١٩ .

(٢٧) دلائل الاعجاز : ص٥١وما بعدها .

(٢٨) هي ان يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان ؛ أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والأخرى بعيد مقصود ، ودلالة اللفظ عليه خفيفة، فيتوهم السامع : أنه يريد المعنى القريب ، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره ، وتستره عن غير المتيقظ الفطن .
انظر : جواهر البلاغة ، للمرحوم أحمد الهاشمي ، الطبعة الثانية عشرة ، مصر ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م، ص٣٦٢ .

(٢٩) هو خروج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى غرض اخر لمناسبة بينهما ، انظر : المصدر السابق نفسه : ص٣٦٥ .

(٣٠) هو ان يذكر الاديب صراحة او ضمناً علة الشيء المعروف ويأتي بعلة اخرى ادبية طريفة لها اعتبار لطيف ، بحيث تناسب الغرض الذي يرمي اليه ، المصدر السابق : ص٣٧١ .

(٣١) هو ذكر الشيء بلفظ غيره ، لوقوعه في صحبته ، المصدر نفسة : ص٣٧٥.

(٣٢) انظر : المصدر السابق نفسه : ص٣٦٧ وما بعدها .

البلاغة على مستوى آخر، ولكنه يظل ينتسب الى مبادىء التحليل اللساني الاجتماعي، حتى يتميز تميّزه الخاص، ويُصرح بقواعده المستخرجة أو المستشعرة لدى النحاة والبلاغيين »[٣٣] وغيرهم ممن اهتموا بالدرس اللغوي من معجميين، وأدباء ونقاد .

وإذا كان اللغويون العرب لم ينظّروا اقوالهم بما يجعلهم السبّاقين في مجال ربط السلوك اللغوي بالمحيط الاجتماعي على مستوياته كافة، فإنّا نرى فيما مثلنا به – وغيره كثير مازلنا نأمل أن نتصدى أو غيرنا له بالبحث والاستقصاء – نماذج بيّنة واضحة تؤكّد تفطن اللغويين العرب القدماء إلى الرابط الجدلي بين السلوك اللغوي، ومجمل مظاهر الحياة التي يحياها الناطقون بما فيها من أعراف وتقاليد، ومُثُل اخلاقية أو دينية، او اجتماعية أو غيرها .

(٣٣) الاعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية : ص٣٠ .

أولاً: فهرس المصطلحات التي وضحت مفاهيمها عبر البحث مع مقابلها الاجنبي

اتصال	Communication
اتكيت	Etiquette
انتروبولوجيا اللغة	Anthropological Linguistic
اجتماعي	Social
احداث كلامية	Language Actions
الاداء الكلامي	Performance
الادراك (العقول)	Cognition
ازدواجية لغوية	Diaglossia
استعارة	Borrowing
اشارة	Sign (Gesture)
اشارة لغوية	Linguistic Sign
اصطلاح	Convention
اطلس لغوي	Etymology
اعتباطي	Arbitrary
اقتراض لغوي	Emprunt Linguistic
الانثروبولوجيا اللغوية	Linguistic Anthropology
الانثروبولوجيا الاجتماعية	Social Anthropology

-ب-

الباث	Disseminate
الباعث	Impulsion
بروتوكول	Protocol
بنية اجتماعية	Social Structure
بنية سطحية	Surface Structure

Sound Structure	بنية صوتية
Deep Structure	بنية عميقة
Linguistic Structure	بنية لغوية
Variety of Language	تنويع لغوي

- ت -

Contrastive Language	التقابل اللغوية
Communion	التشارك الاجتماعي
Synonym	ترادف (مترادف)
Antonym (Opposition)	تضاد (متضاد)
Linguistic Development	تطور لغوي
Drama	التعبير التمثيلي
Arabization	تعريب
Phonetic Change	تغير صوتي
Linguistic Change	تغير لغوي
Ŕedundancy	التكرار
Communication	تواصل
Concealment	تورية

-ث-

Biolinguisme, Bilingualism	الثنائية اللغوية

- ج، ح، خ -

Linguistic Geography	الجغرافية اللغوية
Timbre	الجرس
	الحالة الكلامية . انظر : السياق.
Speech Event	حدث كلامي
Culture	الحضارة

الحقائق الاجتماعية	Social Facts
الحقائق اللغوية	Lingual Facts
الخط	Graphic

– د، ر –

الدال	Signifer
الدال البصري	Visual - Signifer
الدراسة اللغوية التاريخية	Historical Linguistics
الرمز	Symbol , (Significant)

– س، ص –

الساميات انظر : (الفصلية السامية)	Choric Behaviour
السلوك الاجتماعي	Linguistic Behaviour
السلوك اللغوي	Faculty of Speech
السليقة (ملكة الكلام)	Context
السياق	
سياق الحال	Context of Situation
السيمية (السيميائيات)	Semasiology , (Sema)
الصم والبكم	Deaf- Mutes

– ط –

الطبيعة الاجتماعية للغة	Social Nature of Language

- ع -

The Language Habits	العادات اللغوية
Linguist	عالم لغوي
Sociology	علم الاجتماع
Sociology of Language	علم الاجتماعي اللغوي
Semiology	علم الاشارات
Ethnology	علم الاعراف الاجتماعية
Anthropology	علم الانسان (المجتمعات البشرية)
Syntax	علم التراكيب
Kinesice	علم الحركة الجسمية
Semantics	علم الدلالة
Phonetics	علم الصوت (الاصوات اللغوية)
	علم اللغة الاجتماعي
Linguistics General	علم اللغة العام
Comparative Linguistics	علم اللغة المقارن
Psychological Linguistics	علم اللغة النفسي
Dialectology	علم اللهجات
Psychology of Language	علم النفس اللغوي
Relation	علاقة
Sign	علامة
Processes	العمليات
Speech Defects	العيوب الكلامية

- ف، ق -

Individuality of Speech	فردية الكلام
Individual	الفردي

Sapir-Whorf Hypothesis	فرضية سابير – فورف
Semitic Family	الفصيلة السامية
Comparative Philology	فقه اللغة المقارن
The Law of Language	القانون اللغوي
Competence	قدرة
Polars of Language	قطبات اللغة
Standard Language	اللغة القياسية
Transformations	القواعد التحويلية
Linguistic Analogy	القياس (اللغوي)

– ك –

Speech	الكلام
Taboo	الكلام الحرام
Secret Language	اللغة السرية
Antonomasia	كناية

– ل –

Melody	لحن
Language (Lague)	لغة
Parent Language	اللغة الام
Body Language	لغة البدن
Little Language	اللغة الصغيرة (لغة الطفل)
Rites Language	لغة الطقوس
Common Language	اللغة المشتركة
Hand Language	اللغة اليدوية
Dialect	لهجة

اللهجات الاجتماعية	Social Dialects
اللهجات الخاصة	Dialects Locaux
لهجة طبقية	Class Dialect
اللهجات المحلية	Local Dialect

– م –

مجاز	Metaphor
المدرسة اللغوية العنجهية	Jigoistic Linguistics
مدلول	Significance
الجمهور (المستمع)	The Audience
المصاحبات اللغوية	Gesture
معجمي	Lexicological
المعنى	Meaning
المعنى السياقي	Contextual Meaning

– ن –

النظم الاجتماعية	Syntax
نظام من العلاقات	System of Signs
نغمة	Tone
وظيفة ما وراء لغوية	Language Function

ثانيا : - فهرس الاعلام

- ي -

ثالثاً: فهرس الشعوب والقبائل والطوائف

رابعاً : - فهرست البلدان والأماكن -

خامساً : - فهرست اللغات واللهجات

سادساً : - مصادر البحث ومراجعه

اولاً : المصادر والمراجع العربية :

١- الاتقان في علوم القرآن . جلال الدين السيوطي، الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .

٢- اثر اللسانيات في النهوض بمستوى العربية، عبد الرحمن الحاج صالح . ندوة خبراء ومسؤولين لبحث وسائل تطوير إعداد معلمي اللغة العربية في الوطن العربي الرياض . ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

٣- الاحكام في اصول الاحكام . ابن حزم، مطبعة العاصمة، القاهرة .

٤- الاحكام في اصول الاحكام، سيف الدين ابي الحسن علي بن محمد الآمدي، مطبعة المعارف مصر ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .

٥- اخبار الظرف والمتماجنين، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دمشق ١٩٢٨.

٦- الادب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة . د . هاشم الطعان، بغداد ١٩٧٨

٧- أدب الكاتب، ابن قتيبة الدنيوري، دار صادر - بيروت ١٩٦٧.

٨- اسرار البلاغة، الامام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

٩- أسرار العربية، للانباري . تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق ١٣٧٧هـ- ١٩٥٧م.

١٠- الاسس النفسية للتكامل الاجتماعي، دراسة ارتقائية تحليلية، د، مصطفى سويف، الطبعة الثالثة، دار المعارف - مصر .

١١- أشتات ومجتمعات في اللغة والادب، عباس محمود العقاد، الطبعة الثانية، دار المعارف - مصر

١٢- اصلاح المنطق، ابن السكيت، شرح وتحقيق : احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون . دار المعارف، مصر ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .

١٣- اصوات واشارات - دراسة في علم اللغة، أ، كوندرانوف . نقله عن الانكليزية ادور يوحنا، بغداد ، ١٩٧٠م .

١٤- اصول البنائية في علم اللغة والدراسات الاثنولوجية . د . محمود فهمي حجازي،

دار الفكر، بيروت ١٩٧٢م .
١٥- الأصول في النحو، ابن السراج، تحقيق .د. عبد الحسين الفتلي، النجف ١٩٧٣م .
١٦- اصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللغة الحديث . د . محمد عسير، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٣ م .
١٧- اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خالويه، القاهرة، ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.
١٨- الاقتراح في علم اصول النحو، جلال الدين السيوطي، طبعة حيدر آباد الدكن .
١٩- الانتروبولوجيا الاجتماعي، ابريتشارد، ترجمة، د، احمد ابو زيد .
٢٠- الالسنية، (علم اللغة الحديث) الطبعة الثالثة، الهيئة العامة للكتاب . مصر ١٩٧٢، قراءات تمهيدية، د، ميشال زكريا ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
٢١- الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، محمد عبد الرحمن القزويني، الطبعة الثانية، مطبعة الجمالية الحديث - مصر .
٢٢- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثّر والتأثير، د، احمد مختار عمر، دار المعارف - مصر ١٩٧١م .
٢٣- البخلاء، ابو عثمان عمرو الجاحظ، مطبعة الساسي، مصر ١٣٢٣هـ .
٢٤- البنائية في اللسانيات (الحلقة الاولى). د.محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .
٢٥- البنيوية، جان بياجيه، ترجمة عارف منيمنة وبشير اويري، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٨٠م .
٢٦- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .
٢٧- تاريخ ابن خلدون المسمّى العبر وديوان المبتدأ والخبر وايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، عبد الرحمن محمد بن خلدون، بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .
٢٨- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، جورج مونين، ترجمة . د . بدر الدين القاسم، دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
٢٩- تأملات في اللغة واللغة، محمد عزيز الحبابي، ليبيا - تونس ١٩٨٠م.
٣٠- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ابن مكّي الصقلي، تحقيق. د.عبد العزيز مطر، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

٣١- الترادف في اللغة، حاكم مالك لعيبي، بغداد، ١٩٨٠م .
٣٢- التطور اللغوي التاريخي. د. ابراهيم السامرائي، مصر ١٩٦٦م .
٣٣- التعريفات الشريف الجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٢م .
٣٤- تفسير الالفاظ الدخيلة في العربية مع ذكر أصلها بحروفه، طوبيا العنبسي، القاهرة ١٩٦٥م .
٣٥- تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار القلم، القاهرة: ١٩٦٦م .
٣٦- التمثيل والمحاضرة، ابو منصور الثعالبي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، لقاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
٣٧- التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق . د . ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٦٢ .
٣٨- جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب . د . ماهر مهدي هلال، بغداد ١٩٨٠م .
٣٩- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد المرحوم احمد الهاشمي، الطبعة الثانية عشر، مصر ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .
٤٠- الحروف ابو نصر الفارابي، تحقيق . د.محسن مهدي، دار المشرق- بيروت .
٤١- الحيوان، الجاحظ، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م .
٤٢- خزانة الادب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكفاية، عبد القادر البغدادي، طبعة بولاق - مصر .
٤٣- الخصائص، ابـو الفتح عثمان ابن جنّي، حققه. د.محمد علي النجار، الطبعة الثانية - بيروت .
٤٤- دراسات عن مقدمة ابن خلدون، المرحوم ساطع الحصري، مكتبة المتنبي، بغداد ١٩٦١م .
٤٥- دراسات في علم اللغة . د. كمال محمد بشر، دار المعارف - مصر ١٩٧٣م .
٤٦- دراسات في اللغة . د . ابراهيم السامرائي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦١م .
٤٧- دراسات في فقه اللغة . د.صبحي الصالح بيروت ١٩٧٠ .

٤٨- دلائل الاعجاز، الامام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي القاهرة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
٤٩- دلالة الالفاظ . د.ابراهيم انيس، الطبعة الثالثة، مصر ١٩٧٢م .
٥٠- دور الكلمة في اللغة، ستيفن اولمان، ترجمه وقدّم اه وعلّق عليه: د.كمال محمد بشر، القاهرة ١٩٧٥م .
٥١- ديوان الاعشى الكبير . ميمون بن قيس، شرح وتعليق، محمد حسين، الاسكندرية ١٩٥٠م .
٥٢- رسائل الجاحظ، جمعها ونشرها حسن السندوبي،الطبعة الاولى ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م .
٥٣- الرواية والاستشهاد باللغة . د . محمد عيسى، القاهرة .
٥٤- رسوم دار الخلافة، ابو الحسين الصابيء تحقيق، ميخائيل عواد، مطبعة العاني ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .
٥٥- الزينة في الكلمات الاسلامية العربية، الشيخ ابو حاتم احمد بن حمدان الرازي عارضه باصول وعلّق عليه :حسين غيض الله، القاهرة ١٩٥٧م .
٥٦- الساميون ولغاتهم تعريف بالقرابات اللغوية الحضارية للعرب.د.حسن ظاظا القاهرة ١٩٧١م.
٥٧- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي مطبعة محمد علي صبيح، مصر ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
٥٨- شرح درة الغواص في اوهام الخواص، (للحريري)، لاحمد شهاب الدين الخفاجي، مطبعة الجوائب، قسطنطينية ١٢٩٩هـ .
٥٩- شرح ديوان امرىء القيس، ابو بكر بن عاصم البطليوسي، مصر ١٣٠٧هـ .
٦٠- شرح الرضي على الكافية، الرضي الاسترابازي، طبعة جديدة وصححة ومذيلة بتعليقات مفيدة من عمل يوسف حسن عمر، ليبيا ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٦١- شرح شذور الذهب. ابن هشام الانصاري، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الثامنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م .
٦٢- شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية، لابن هشام الانصاري، تحقيق: د . هادي نهر، بغداد ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
٦٣- شرح المفصل، ابن يعيش، طبعة المنيرية - مصر .

٦٤- شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح، ابن مالك، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، مصر ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .
٦٥- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ابو الحسين احمد بن فارس حققه وقدّم له مصطفى الشويمي، بيروت ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .
٦٦- الصهيونية واللغة . د.فاروق محمد جودي، القاهرة ١٩٧٧م .
٦٧- ضحى الاسلام، احمد امين، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦١م .
٦٨- الضرورة الشعرية - دراسة اسلوبية - السيد ابراهيم محمد، الطبعة الثانية دار الاندلس، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
٦٩- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام تحقيق محمود محمد شاكر .
٧٠- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، القاهرة ١٩٧٣، تحقيق، محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٧٣م .
٧١- الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، مطبعة المقتطف، مصر ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .
٧٢- طرق تنمية الالفاظ . د. ابراهيم انيس القاهرة ١٩٧٦م .
٧٣- عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها، د . زهران البروادي الطبعة الثانية، دار المعارف - مصر ١٩٨١م .
٧٤- عبث الوليد ابو العلاء المعري، دمشق ١٩٣٦ م .
٧٥- علم اللغة . د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر . الطبعة السابعة، القاهرة .
٧٦- علم اللغة فردينان دي سوسور، ترجمة د، يوئيل يوسف عزيز مراجعة النص العربي . د. مالك المطلبي، دار آفاق عربية بغداد ١٩٨٥ .
٧٧- علم اللغة -مقدمة للقارىء العربي- د.محمود السعران،دار المعارف مصر١٩٦٣م .
٧٨- فصول في فقه العربية . د . رمضان عبد التواب، دار التراث، القاهرة ١٩٧٧م .
٧٩- فقه اللغة، ابراهيم محمد نجا، مطبعة الازهر مصر ١٣٧٤هـ - ١٩٥٦م .
٨٠- فقه اللغة . د . علي عبد الواحد وافي، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٨ .
٨١- فقه اللغة في الكتب العربية . د . عبده الراجحي، بيروت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٩م.
٨٢ - فقه اللغة وخصائص العربية.د.محمد المبارك، دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٦٤م .

٨٣- في علم اللغة العام . د.عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
٨٤- في اللغة والادب . د . ابراهيم بيومي مدكور، دار المعارف ١٩٧١م .
٨٥- في اللهجات العربية د.ابراهيم انيس، مكتبة الانجلو، الطبعة الثالثة، مصر ١٩٦٥م .
٨٦- الكتاب،سيبويه، بولاق ١٣١٦هـ، وبتحقيق، محمد عبد السلام هارون،عالم الكتب، بيروت .
٨٧- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث،د.عبد الصبور شاهين القاهرة ١٩٦٦م
٨٨- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة . د.عبد العزيز مطر، الطبعة الثانية، دار المعارف - مصر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
٨٩ - لحن العامية والتطور اللغوي، د، رمضان عبد التواب، مطابع البلاغ، القاهرة ١٩٦٧م.
٩٠- اللسان والانسان . مدخل الى معرفة اللغة . د. حسن ظاظا، القاهرة ١٩٧١م .
٩١- اللغة، فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، القاهرة ١٩٥٠م .
٩٢- اللغة بين العقل والمغامرة . د. مصطفى مندور الاسكندرية ١٩٧٤م .
٩٣- اللغة بين المعيارية والوصفية . د. تمام حسان، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٨م .
٩٤- اللغة العربية في اطارها الاجتماعي . مصطفى لطفي، معهد الانماء العربي، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٧٦م .
٩٥- اللغة العربية معناها ومبناها . د. تمام حسام، الهيئة العامة للكتاب مصر ١٩٧٣م.
٩٦- اللغة في المجتمع، تأليف . م . م لويس، ترجمة د، تمام حسان، القاهرة ١٩٥٩م.
٩٧- اللغة والاسلوب، عدنان بن ذريل، دمشق ١٩٨٠ .
٩٨- اللغة والتطور . د. عبد الرحمن ايوب، مطبعة الكيلاني، القاهرة ١٩٦٩م.
٩٩- اللغة والفكر، بول شوشار، ترجمة صلاح ابو الوليد، باريس .
١٠٠- اللغة والمجتمع . د. علي عبد الواحد وافي مصر ١٩٧١م .
١٠١- اللغة والمجتمع رأي ومنهج . د. محمود السعران، بنغازي ١٩٥٨م .
١٠٢- اللغة والنحو بين القديم والجديد، عباس حسن، دار المعارف - مصر ١٩٧١م.
١٠٣- لغات البشر أصولها طبيعتها وتطورها، ماريو پاي، ترجمة، د، صلاح العربي، القاهرة ١٩٧٠م .

١٠٤- اللغات السامية، تخطيط عام، تيودور نولدكه، ترجمة . د. رمضان عبد التواب، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م .
١٠٥- اللغات في القرآن المنسوب لابن عباس، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .
١٠٦- اللمع في العربية، ابن جنّي، تحقيق فائز فارس، الكويت ١٩٧٢م .
١٠٧- الماركسية وقضايا علم اللغة، ستالين، ترجمة حنا عبود، دمشق ١٩٥٠م.
١٠٨- مجالس العلماء، الزجاجي، تحقيق، محمد عبد السلام هارون، الكويت ١٩٦٢م.
١٠٩- مجمع اللغة العربية بالقاهرة تاريخه واعماله، محمد رشاد الحمزاوي .
١١٠- محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية، امين الخولي، القاهرة ١٩٥٨م .
١١١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، ابن جنّي تحقيق . د . علي النجدي ناصيف، ود.عبد الفتاح اسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .
١١٢- المدخل الى علم اللغة . د. محمود فهمي حجازي القاهرة ١٩٧٦م .
١١٣- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو . د . مهدي المخزومي، القاهرة ١٩٥٨م .
١١٤- المزهر في علوم اللغة وانواعها، السيوطي، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلّق عليه :محمد احمد جاد المولى وجماعه، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر .
١١٥- معجم الفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
١١٦- المعجم العربي نشأته وتطوره . د . حسين نصار، القاهرة ١٩٥٦م .
١١٧- معجم علم الاجتماع، تحرير البروفيسور دينكن ميشيل، ترجمة . د . احسان محمد الحسن، دار الرشيد - بغداد ١٩٨٠م .
١١٨- المعّرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم، ابو منصور الجواليقي، تحقيق، احمد محمد شاكر، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية مصر، ١٩٦٩م .
١١٩- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لابن هشام الانصاري، دار الاصفهاني، مصر .
١٢٠- مفاتيح الالسنية، جورج مونين، عربّه وذيله بمعجم عربي فرنسي، الطيب البكوشي، منشورات الجديد، تونس ١٩٨١م .
١٢١- مفاتيح العلوم، الامام الاديب اللغوي ابو عبد اللّه محمد بن يوسف الخوارزمي، دار الكتب العلمية . بيروت .

١٢٢- المفردات في غريب القرآن، ابو القاسم الراغب الاصفهاني، تحقيق وضبط محمد سعيد كيلاني، مصر ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .
١٢٣- المقتضب، المبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، القاهرة، ١٣٨٥هـ - ١٣٨٨هـ .
١٢٤- مقدّمة ديوان الادب، الفارابي تحقيق . د . احمد مختار عمر، القاهرة ١٩٦١م .
١٢٥- مقدمة لدراسة فقه اللغة - محمد احمد ابو الفرج، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٦٦.
١٢٦- من اسرار العربية، د . ابراهيم انيس، الطبعة الخامسة، القاهرة ١٩٧٥م .
١٢٧- الموشح في ماخذ العلماء والشعراء، المرزباني، المطبعة السلفية مصر ١٣٤٣هـ .
١٢٨- النحو الوافي . عباس حسن، دار المعارف، الطبعة الرابعة . مصر ١٩٧٦م .
١٢٩- نزهة الالباء، ابو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الانباري، تحقيق . د. ابراهيم السامرائي، بغداد ١٩٧٠م .
١٣٠- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والنحو، د . امجد الطرابلسي دمشق ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
١٣١- نظرية البنائية في النقد الادبي . د.صلاح فضل، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م .
١٣٢- نظرية النظم . د. حاتم صالح الضامن، بغداد ١٩٧٩م .
١٣٣- النقد عند اللغويين في القرن الثاني الهجري، سنيه احمد محمد، بغداد، ١٩٧٧م .
١٣٤- النقد المنهجي عند العرب . د. محمد مندور، القاهرة ١٩٦٩م .
١٣٥- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح، محمد ابو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي الطبعة الثانية، البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

ثانياً : المجلات والبحوث

١٣٦- مجلة ابحاث اليرموك، المجلد الثقافي، العدد الاول، عمان ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، (نظرة في اثر اللغويين العرب في علم الدلالة، علي الحمد) .

١٣٧- مجلة آداب المستنصرية، العدد الرابع بغداد ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (نشأة اللغة وتطورها في مباحث اللغويين العرب والاجانب). د . هادي نهر .

١٣٨- مجلة آداب المستنصرية، العدد العاشر . بغداد ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤، (اللامات بين الهروي والنحاة، يحيى علوان حسون) .

١٣٩- مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد ٢١مصر يونيه ١٩٧٥، (اللكنة والحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين) . د. فاطمة محجوب .

١٤٠- مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد ١١ تونس ١٩٧٤ . (مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة) . د. عبد القادر المهيري .

١٤١- مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع مجلد ٣٥، بغداد ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، (ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة). د. احمد نصيف الجنابي .

١٤٢- مجلة المجمع العلمي القاهري، المجلد السابع، القاهرة ١٩٥٣م، (صلات اللغة العربية واللغات الاسلامية) . د. عبد الوهاب عزّام .

١٤٣- مجلة المجمع العلمي القاهري، المجلد التاسع، القاهرة ١٩٥٩م. (السيمية) عباس محمود العقاد .

١٤٤- مجلة فصول، المجلد الرابع -العدد الثالث، مصر ١٩٨٤م. (الاثنوميثودولوجيا، ملاحظات حول التحليل الاجتماعي للغة)، محمد حافظ دياب .

١٤٥- مجلة اللسان العربي، العدد الخامس، الرباط ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
(اللهجات العامية لماذا والى اين)، د . حسني محمود .

١٤٦- مجلة اللسان العربي، المجلد (١١) الرباط ١٩٧٦م، (الاعلام ولغة الحضارة)، عبد العزيز شرف .

١٤٧-مجلة الموقف الادبي،دمشق -حزيران ١٩٧٨م .(اللغة بين الانسان والعالم الخارجي)، د . محمد خير الحلواني .

١٤٨- بحوث الملتقى الثالث في اللسانيات، تونس ١٩٨٥م .

أ- الاعراف او نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية . د . نهاد الموسى .

ب- نحو مدخل علمي لدراسة اللهجات العربية المعاصرة . د . حسن شقير .

ج- في تحليل الخطاب وبعض القضايا التواصلية من وجهة نظر لسانية.د.رضا السويسي .

د- من النظرية اللسانية الى تنظير الواقع، الاستاذة ليلى المسعودي .

١٤٩- قضايا الادب وضرورة انتاجه، انطون مقدسي، ضمن منشورات الجامعة التونسية . الدراسات الادبية، تونس ١٩٧٨م.

ثالثا: المصادر والمراجع الإنكليزية

150- W. Baskin English Translation Course in Genaral Linguistics. New York 1959.

151-F. Bous. Hand Book American , Indian Languages 1907-1911.

152 - Ardener Edwin . Social - Anthropology and Language Taris tock Publications . London 1971.

153- J.R. Firth. Personality and Language in Society in Papers in Linguistics 1934 - 1951 / London - Oxford University 1969.

154- R. Jakobson . Fandamentals of Language . The ltague Mouton 1956.

155- Jasperson , Otte. Language . Its Nature Development and Origin.

156 - M.A.K. Halliday . Grammar , Society and Noun . London.

157 - H.K. Lewis for University College . London 1967.

158- A. Rechards and C.K. Ogden . The Meaning and Meaning London 1946.

159 - E. Sapir. Language . New York Harcourt Brace and company 1921.

160 - William Bright . International Encyclopedia of Soc . Scienes . Art. Language . Vol. DX.

161- The New Encyclopedia Britannica . Volume 5.

رابعا : المصادر والمراجع الفرنسية

162- Encyclopedie Larousse, Jean Baptiste Morcellesi L.& Linguistique par un Nomber de Professeurs Universitaires.

163- Essai d'une Theorie des langues Spe'ciales dans une Societe. : (Revue des Etudes). Ethnographiques et Sociologiques . V. Van Gemep. Paris , Juin - Juillet. 1908.

164- Vendryes Joseph . Langage Oral et Langage par le Geste en Grammaire et Psychologie . Paris.

واذا ما ازددت علماً   زادني علماً بجهلي

دار الامـــل

Al-Amal Bookshop

ص.ب ٤٦٩ – تلفون ٢٧٦١٧٤

شارع شفيق ارشيدات

اربد – الاردن

مطبعة الروزنا
٢٧٠٩٦١